خَالد محمَّد خَالد

كما تحدث الرسول

المقطم
للنشر والتوزيع

الطبعة الرابعة

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ ـ أغسطس ٢٠٠٤م

القاهرة

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ـ عابدين

القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ ـ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

نضر الله امرءا
سمع مقالتي، فوعاها،
فأداها كما سمعها..
فرب حامل فقه،
إلى من هو أفقه منه..
ورب مبلغ،
هو أوعى من سامع..

الرسول

عليه صلاة الله وسلامه

دَعَا إلى اللهِ فالمستمسكون بِــه

مستمسكون بِحَبْــلٍ غَيْرِ مُنْقَصِــمِ

لَمْ يَمْتَحِنّا بِمَا تَعْيَا الْعُقُولُ بِــه

حِرْصًا عَلَيْنــا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِــم

البوصيري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في أوائل عام ١٩٦٢، ظهر لى كتاب "كما تحدث القرآن"، وقلتُ يومَها فى مقدمة الكتاب:

ـ "إن هذه الصفحات لا تزعمُ لنفسها أنها تُقدِّم القرآن، أو تُفسّره..

ـ "إنها تُلقى السَّمع، لا أكثر.. وترسل البصَر وراء موكب من آياته الباهرات.

ـ إننا نقرأ الآية من القرآن، فلا نلْبثُ حتى تذكّرنا بآية أخرى مُماثلة لها.. ثم تُنادى الآية الثانية، آيات أخريات كثيرات وإذا بنا آخر الأمر أمام قضيَّة كاملة كوَّنت الآيات المَبْثوثة هنا وهُناك كل عناصرها، وقالت فيها قولاً بليغًا.

ـ وإنى لا أحاول أن أخلع على الآيات معنى أتكلّفه، ولا أكلّفها غايات لا تُريدها.. بل أتركُها تقودُنى وحدها إلى غايتها الباسلة الجليلة؛ فإذا نحن أمام فَتْح عظيم يُتمه القرآن لحساب الإنسان ـ لحساب عقله، وضميره، ومصيره"..

كان ذلك منهجى فى كتاب "كما تحدّث القرآن".. وهو نفس منهجى اليوم فى كتابنا هذا..

فَوحْدَة المضمون والجوْهر، القائمة بين بعض الأحاديث وبعضها الآخر، تكشف عن موكب عظيم من الاتجاهات التقدُّمية الرَّاشدة فى تعاليم الرسول ﷺ وتوجيهاته من غير أى تدخّل من جانبنا، ودُونما أى تكلُّف أو إضافة..

المهم، أن تكون وحدة المضمون والجوهر دليلنا.. وعندئذ تُعطينا كلمات الرسول ﷺ أروع أسرارها..

إننا خلال قراءتنا كُتب الحديث والسُّنّة قد نلتقى مَثلاً بحديث أخذ مكانه فى كتاب الصلاة، أو الحج، أو البيوع، لعلاقة فقهية بين الحديث وهذه الموضوعات.. بَيْد أننا حين نتمعّن جوهر الحديث، ومضمونه الإنسانى نجده وثيقة باهرة من وثائق "حقوق

الإنسان"، فإذا استطعنا - أولا - أن نبصر وحدة المضمون هـذه.. واستطعنا - ثانيًا - أن نتتبعها فى جميع ما يُؤلف بينها من نماذج، وجَدْنا أنفسنا أمام القيم الإنسانية الكبيرة تُشرق من أحاديث الرسول ﷺ وكأنها تُكتب وتُقدَّم اليوم فى أوضأ مفاهيمها، وأصدق خصائصها..!!

وهذه هى المحاولة التى حاولتها فى كتاب "كما تحدث القرآن" بالأمس..

والتى أحاولها فى كتابنا هذا، اليوم، راجيًا أن تكون نـهجًا مُجديًا لفهم أصول الإسلام..

وهذه المحاولة، لا تَستقصى فى هذه الصفحات نفسها، ولا تستوعبُ غاياتها.. إنما تُعطى نموذجًا لا أكثر.. ودليلاً لا أقل..

ومن المعروف أن الرسول عليه السلام زُوِّرَتْ عليه أحاديث كثيرة لم يَقلها..

ولكن من المعلوم أيضًا، أن الله سبحانه وتعالى هيَّأ للسُّنة من أفذاذ الرُّواد فى صدر تاريخ الإسلام من توفَّروا فى جهد عظيم على تمييز الصحيح من الزائف، آخذين فى ذلك بأدقِّ موازين النقد والانتقاء.

ولقد اعتمدنا فى كتابنا هذا على الأحاديث التى صحَّت نسبتُها إلى رسول الله بوجه من وجوه الصحَّة، أو بكُلِّ تلك الوُجوه..

* * *

والآن، إلى كلمات الرسول ﷺ، لنسمعَ، ونرى..

خَالد مُحمَّد خَالد

الفصل الأول

عن النفس الباطنة



إن رسول الله ﷺ وطيد الثقة بالإنسان.

وهو بما علّمه ربه، يدرك القدر العظيم الهائل الكامن فى أعماق كل فرد إنسانى، والذى إذا أحْسن إطلاقه أتى من الخير العظيم، ومن العظمة الخيِّرة كل مُعجز وعجيب..

ورسول الله محمد ﷺ، داعية هدى.. وصاحب رسالة.. وحامل مشعل السماء.. ومن ثمَّ فهو دائب الحرص على أن تكثر وتنمو صفوف الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. وإن أشواقه لتنثال من نفسه الكبيرة انثيالاً مُتدارِكًا وراء بطولات الروح الإنسانى.. تلك البطولات التى تتمثل فى الغَلَب على الهوى وترتفع بأصحابها فوق مُستوى الضعفاء فى هُداهم وتقاهُم، إلى مُستوى الأبرار الذين يصير وجُودهم آخر الأمر وكأنه مَثوبة الله وهديته للنوع الإنسانى بأسره..

أولئك هم الذين جاء محمد ليبحث عنهم، ويخرجهم من بين الصفوف المزدحمة، فينفض عنهم غبار التّيه، ويشد فيهم زناد التفوُّق، ويجعل منهم رايات مبسوطة وخفاقة فى جوِّ الحياة.

وليس لجواز مرورهم إلى الله علاقة ـ أدنى علاقة ـ بالثروة ولا بالعائلة ولا بالمنصب، ولا بالجاه.. إنما هى ثروة الروح.. وحَسبُ الروح.. إنما هو الرُّنُوُّ العظيم إلى ما عند الله من هُدى ويقين.. إنما هو سعى الرواد. وزهد الرواد، وإصرار الرواد على كشف طريق الروح وتعبيده، وعلى الوصول بالنفس إلى مجال كمالها الميسور فى غير ضرَّاء مُضرَّة، ولا فتنة مُضلة..

هذه غاية تتطلب قوة عظمى لا جرَم.. بَيْدَ أنها لن تكون بحالٍ قوة العضَل المفتول، ولا النفس المتسلطة، ولا الجموح العاصف، بل قوة النفس الباطنة..

النفس الباطنة، هى القدَر الذى يحملنا فى رحلة التفوق والكمال إذا ألهمَت تقواها.. وهى القدَر الذى يُدحْرِجُنا فى مهاوى التعاسة والضلال، إذا ألهمَتْ فجورها..

وتحويل النفس الباطنة إلى نفس مطمئنة.. ونفس مُشعَّة بالخير.. توّاقة إلى الكمال، هو غاية الدين، وغاية المرسلين فى تَعْلية النوع الإنسانى وبعث إرادة الخير فيه..

وللنفس الباطنة قُوتُها وريُّها..

وإن خير ما تتغذى به وترتوى لهو الإخلاص..

إن نوايانا تشكل أعمالنا وتوجِّهها، والعمل مهما تكن ضخامته وخطره، لا يكون جليلاً ولا يكتب له الخلود الحق إلا بقدر ما تكون النوايا التى أطلقته جليلة وصادقة..

وهذا هو ما يجعل للنفس الباطنة قيمتها ودورها.. فالنفس الباطنة فى جوهرها، هى إرادة الخير بكل ما تمثِّله هذه الإرادة من صدق وإخْبات، هى استقامة الضمير فى أبهى صور هذه الاستقامة.

ومن أجل كشف هذه النفس، ومن أجل دَعْم وجُودها وبَعث رُشدها يتحدث الرسول عنها حديثه العذب العميم.

ها هو ذا عليه السلام يبدأ، فلْنُصْغِ إليه.

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امْرئٍ ما نوى"

قاعدة ترتكز عليها، وتنهض فوقها كل قيم الحياة، و"بوصلة" تحدد وجهة السلوك الإنسانى وتميزُ خبيثه من طيِّبه.

فالأعمال ـ جميع الأعمال ـ لا تستمِدُّ قيمتها من شكلها الخارجى.. بل من ضميرها الخفىِّ..!!

أجل، إن لكل عمل ضميره.. وضمير العمل ـ أىَ عمل ـ هو النيَّة. هو الإرادة الباطنة التى تحفزنا إلى هذا العمل.

انظر.. قد يبسط رجل مائدته الحافلة بألوان الطعام، وصنوف الطيِّبات، ويدعو إليها حَشْدًا من الوُجهاء.

وقد يدعو رجل آخر ضيفًا إلى مائدته الضامرة، فلا يستويان عند الله مَثَلاً.. ولا يستويان مَثَلاً كذلك أمام المعايير الصحيحة للضمير الإنسانى الرشيد.

قد يكون صاحب المائدة الضامرة، والجهد المقلّ خيراً ثوابًا من صاحب المائدة الحافلة بما يفتح الشَّهيَّات.

لماذا..؟ لأن وراء جهده المتواضع نيَّة طيبة، ونزعة خيِّرة فهو ـ مثلا ـ قد آوى إلى طعامه فقيراً يسدُّ فى حياء جَوْعَته.. بينما الأول أراد من مائدته المسرفة أن يتبذَّخ ويزهو

ويُنمى رصيده من الجاه الباطل والغرور الكاذب..!

وهذا مثال يتكرر فى شَتَّى مستويات العمل والسلوك.

إن رسول الله ﷺ يعلم تمامًا أن العمل ـ كل عمل ـ يفقد روحه إذا فقد ضميره.. أى إذا فقد النيَّة الصالحة التى تجعل منه عملاً صالحًا.

من أجل ذلك، أنشأ هذا الحصر الجامع ـ "إنما الأعمال بالنيات"..

ومن أجل ذلك أقام الميزان الحق الصحيح الذى توزَن به أعمال البشر "وإنما لكل امرئٍ ما نوى"..

ليس هناك أروع فى عالم الأخلاقيات من هذا النَّهج، وهذا المعيار.

انظروا..

إنه ـ عليه السلام ـ لم يقل : "لكل امرئٍ ما عمل".. بل قال..

"لكل امرىءٍ ما نوى"..!!

ذلك أن ـ أحلامنا ـ لا أعمالنا، هى التى تكشف بصورة أوضح عن جوهرنا، وعن حقيقة نفسنا الباطنة.

فالرجل الذى يقف فى المسجد مُصليًا ـ مثلاً ـ وهو يحلم بليلة حمراء آثمة، أو بخصْم له يقتله ويخوض فى دمه.. ليس أصدق جوهراً من ذلك الآثم الذى ترنو أحلامه وأشواقه إلى لحظة توبة تنقله إلى طاعة الله وهُداه.

ليس معنى هذا أن العمل الطيب فى ظاهره، غير مرغوب فيه ما لم تصحبه نوايا طيبة. كلا.

إنما معناه أن الرسول عليه السلام يفتح أعيننا على لُباب الحقيقة، فيعلمنا أن النوايا الطيبة الخالصة تتطلب منّا جهداً دائمًا لا نظفر بها، لأنها ليست ضرورية لكى يكون العمل طيبًا فحسب.. بل هى ضرورية كذلك لبقاء أعمالنا داخل نطاق الصلاح والخير.

فنوايانا وأحلامُنا تعيش فينا ومعنا أكثر مما تعيش أعمالنا.

وهذا المعنى الجليل الباهر نأخذه من قول الرسول:

"إنما يُبعث الناس على نِيَّاتِهم".

إن الرسول يؤمن ببعث لا ريب فيه، حيث يقف الناس جميعًا بين يدى أحكم الحاسبين، وحيث "تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلتْ من خَيرٍ مُحضراً وما عَمِلَت من سُوءٍ تَودُّ لو

أنَّ بَينَها وبَينَه أمداً " ..

فى ذلك اليوم يبعث الناس على نيَّاتِهم. أى أن نوايانا تسعى بين أيدينا أينما كنا وكانت لنا حياة.

والعمل الذى كان يبدو شجاعة فى الحق، أو مُبالغة فى الجود.. أو تفانيًا فى خدمة الناس.. لن ينظر الله إليه حتى ينظر أولا وقبلا إلى النوايا التى كانت من ورائه تدفعه وتقوده.

فإذا وجدت النية الصالحة بعثت هى العمل إلى الوجود من جديد، ولقى من الله حفاوة ومثوبة.

وإذا لم تكن ثُمتَ نيَّة صالحة، بقى العمل مطموراً تحت رماد مهيل، ولم يجد صاحبه مثُوبَةً تنتظره ولا عاقبة تسرُّه..

وإن رسول الله ليبلغنا هذه الحقيقة فى مشهد فذٍّ وآسر، يرسمه لنا بيانه الرشيد وقوله السديد فيقول:

"انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهُم المبيت إلى غار، فدخلوا، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: ـ اللهم كان لى أبَوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق [1] قبلهما أهلاً ولا مالاً؛ فنأى بى طلبُ شجر يومًا فلم أرُحْ عليهما حتى ناما، فحلبتُ لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما ـ أهلى ـ فلبثتُ والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى بَرق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة؛ فانفرجت شيئًا غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.. وقال الآخر: اللهم كانت لى ابنة عم، كانت أحب الناس إلىَّ فراودتها عن نفسها فامتنَعتْ منى حتى ألمَّتْ بها سنة من السنين فجاءتنى وأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبينها ففعلت، حتى إذ قدرتُ عليها قالت: لا يحلّ لك أن تَفُض الخاتم إلا بحقه، فتحرّجتُ من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهى

[1] الغبوق: الشراب ليلاً، وهو هنا شراب اللبن.

أحب الناس إلىّ، وتركتُ الذهب الذى أعطيتها - اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.. وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال لى: أدِّ إلىَّ أجرى - فقلت له: كلُّ ما ترى من الإبل والبقر والغنم أجرك..!، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بى، فقلت: إنى لا أستهزئ بك. فأخذه كله، فلم يترك منه شيئًا - اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون"..!!

* * *

فى هذا المشهد الباهر يرسم الرسول صورة مبينة لدَور النفس الباطنة، والنيَّة الخالصة فى تقييم العمل، وتحديد مثوبته.

فهؤلاء الثلاثة الذين انغلق عليهم الغار، وكادوا يهلكون داخل جوفه المعتِم لم يتوسَّلوا فى هذه اللحظة البائسة الحرجة بأعمالهم، بل توسَّلوا بالدوافع النفسية التى كانت وراء هذه الأعمال.

إن كل واحد منهم يقول فى مُناشدته ربه "اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرُج عنا ما نحن فيه"..

إنهم يتوسَّلون بما فى أعمالهم ومواقفهم تلك من ضمير.. من صدق وإخلاص..

وهذه العبارة "ابتغاء وجه الله" تتمثل فيها عند الرسول، القِبْلة التى يجب أن يؤمَّها الناس فى كل عمل يعملون.

"ابتغاء وجه الله" تمثل المعيار السَّوىَّ الصادق لكل دوافع النفس ونوايا الضمير.

فإذا كان الناس مُطالبين بأن تكون دوافع أعمالهم خيرة، ومستقيمة، فإن سبيلهم لهذا حتى لا تتفرق بهم السُّبل، هو أن يقصدوا بأعمالهم تلك وَجْه الله العلىَّ العظيم:

ولكن لماذا وجه الله بالذات..؟

وماذا تعنى عبارة "وجه الله":؟

إن "وجه الله" يعنى هنا الخير المطلق، والعظمة المطلقة، فإذا توخَّيتَ بعملك وجه الله تجرَّد عملك حَتمًا من كل غرض وعرض وتحرَّر من فوره من كل الموبقات التى قد تحجزه عن التحليق إلى مدار ذلك الخير المطلق وتلك العظمة المطلقة.

إن العمل ابتغاء وجه الله يربط الإرادة الإنسانية بأوثق العُرى وأقوى الأسباب.

وحين ينتمى عملك إلى وَجْه الله وصِبْغته، يظفرك هذا الانتماء بسيادة عُظمى على نفسك، وعلى عالمك الذى حَوْلك، ويمنح إرادتك مَضاءً لا يعرف اليأس.. وعقلك ضياءً لا يعرف الظلمة.. ورُوحك تهلُّلاً لا تعرف الحسرة ولا الكآبة..

وهنا يقول الرسول عليه السلام:

"طوبى للمخلصين، أولئك مصابيحُ الهدى، تنجلى عنهم كلُّ فتنة ظلماء"..!!

* * *

وتقوم البواعث الصالحة، والنوايا الطيبة مقام الأعمال حين تحُول الظروف دون إنجاز الأعمال وممارستها.

يقول "أنس" رضى الله عنه:

"رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال لنا: لقد تركتم بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مَسيراً ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم..

قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة..؟

قال: حبسهم المرض.."

وهكذا يرفع الرسول النوايا الصالحة إلى مستواها الحق. فهؤلاء الذين لم يخرجوا إلى الجهاد مع النبى والمسلمين، كتب لهم جميع أجر الذين خرجوا وجاهدوا، واستشهدوا.

فكيف ظفروا بهذا الأجر وهم لم يغادروا بيوتهم فى المدينة ولم تغبرَّ لهم قدَم..؟!

إنها النفس الباطنة والنوايا الخيِّرة.

فقد كانت جوانحهم تنطوى على الرغبة والعزم، ولكن المرض قعد بهم، وحال بينهم وبين ما يَودُّون.. هنالك تقدمت نواياهم الصادقة فملأت الفراغ الذى كان على العمل أن يملأه، وأظفرتهم بكل ثواب الصالحين والعاملين..!

إن عناية الرسول عليه السلام بالبواعث والنوايا تبلغ شأوَها البعيد فى اهتماماته

النبيلة الجليلة.

وهو لا يضع عينه على العمل مهما يكن بادي النفع والعظمة حتى ينظر أولاً باعِثَ هذا العمل، والإرادة النفسية التى دفعته وصَاغت وجوده.

لقد كان الجهاد فى سبيل الله يمثل عند الرسول ذروة الصالحات والقربات، ومع هذا فما كان الرسول يراه شيئًا مذكوراً إذا لم يكن وراءه نية ظاهرة تقصد وجه الله.

يحدثنا أبو أمامة صاحب رسول الله فيقول:

"جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله..؟ فقال الرسول: لا شيء له.. وكرر الرجل سؤاله، والرسول يقول له: لا شيء له، ثم قال عليه السلام: إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، وابتُغى به وَجهُه".

* * *

ماذا يفسد نوايانا، وينحرف ببواعثنا الباطنة عن رؤية الحق الذى يجب أن نعمل له ونعيش دومًا فى خدمته..؟

إنها رؤية الناس، وطلب الشَهرة والزَّهو بينهم..

فأنت حين تعمل عملاً، أو تضحِّى تضحية من أجل أن تبلغ بهذا العمل أو بتلك التضحية حظوةً وجاهًا عند الآخرين، ستكون مضطراً أن تؤدى عملك هذا على النمط الذى يُرضى أولئك الذين تبتغى لديهم الجاه، والحظوة، وليس على النَسق الذى يتطلبه الحق، وتتطلبه المقاييس السديدة لهذا العمل.

وحين يخضع الحق لأهواء الناس، تفسد كافة العلاقات التى تصل قُوى الحياة بعضها ببعض وتضطرب المقاييس التى تحمى سداد الحياة، ويشيع الزيف والبهتان، فتمسى الحياة لغواً وفراغًا وبلبلة.

من أجل ذلك يتقدم الرسول عليه السلام فيُدمدم على الرياء، ويُصليه من نقمته ومن غضبه.

والرياء، هو الاسم الحقيقى لحالة فقدان الصدق والإخلاص..

ونحن نفقد الصدق والإخلاص حين نمارس أعمالنا، وأعيننا على اطماع باطلة نرجو أن تكون أعمالنا سُلمًا إليها..

حين تعبد الله ـ مثلاً ـ ليقول الناس عنا عابدون..

حين نخطب، ونكتب؛ ليقول الناس عنا جهابذة..

حين ننشد المناصب لنزهو بها على الناس ونستعلى..

حين نأتى الأعمال، لا لأنها واجبات نؤديها وننتظر عليها ثواب الله، وسكينة النفس. بل لأنها جواز مرورنا إلى مقاعد الشهرة بين الناس.

وليس إثمًا ولا خطيئة أن يكون لك نصيبك من المجد أو الشهرة إذا كنتَ من هواتهما.. شريطة أن يَجيئا ثمرة غير مقصودة لعملك ومسعاك، لا أن يكونا الباعث المحرّك والوجهة المقصودة .

إن الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها ترابًا فى تراب..

وإن الرسول عليه الصلاة والسلام ليضمّن تعاليمه وأحاديثه زجرًا أكيدًا عن كل رياء .

وها نحن أمام أولاء "لوحة" أخرى باهرة، يرسم فيها الرسول ويُصوِّر ازدراءه الرياء ومقته له فلنطالعها :

* "عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إن أوّلَ الناس يُقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأُتى به فعرَّفه الله نعمته فعرفها قال الله له: فما عملت فيها..؟ قال: قاتلت فى سبيلك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: هو جرىء، فقد قيل..! ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار.."

* "ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتى به فعرفه نعمه فعرفها ـ قال: فما عملت فيها..؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار..!!

* "ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملتَ فيها ؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك ـ قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار" ..

من المعروف بداهة أن كلمات الرسول هذه، لا تعبّر عن ازدرائه الشجاعة، ولا العلم، ولا السخاء..

وإنما تعبّر عن رثائه الشديد للذين يأتون هذه الفضائل بنوايا رديئة وشرّيرة،، إنهم يلوّثون الفضيلة..! فحين توضع الشجاعة، أو يوضع العلم، أو يوضع الجود في خدمة أغراض رخيصة باطلة يكون هذا العمل إهانة لهذه الفضائل وتزييفًا لها.

فالذين يعملون وشعارهم: انظرونا.. لا يرتفعون وفق معايير الرسول إلى مستوى الرشد، ولا ينالهم من عاقبة أعمالهم إلا ما تؤهلهم له نواياهم الهابطة وأطماعهم الدنيا..

وإن الرسول عليه السلام ليحذر أصحابه والناس جميعًا من أن يغتال الرياء منهم ثمار كدّهم وأعمالهم فيقول:

"من سَمّع سَمّع الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به"..

* * *

ويرى الرسول في الرياء ضربًا من الشرك بالله.

ذلك أن الإيمان القويم بالله يعني ألاّ يرتفع فوق جاهه جاه، وألاّ يُطلب من غيره ما لا يملكه أحد سواه.

ومثل هذا الإيمان يرفع الثقة بالنفس إلى مستوى تتحرر فيه من كل رغبة في مُداهنة الآخرين ومسايرتهم والتماس المثوبات منهم.

والرياء لا يكون في العبادة وحدها.. بل ينتظم كل انحراف في البواعث المحركة لكل واجباتنا في الحياة..

فكل الواجبات عبادة.

وأنت تكون ضحية الشّرك الخفيّ كلما مارست واجباتك في مستوى أهواء الناس، لا في مستوى الخير العام الذي تحققه هذه الواجبات.

وجدير بك آنئذ أن تلتمس مثوبتك ممن عملت لهم، وليس من الله الذي لم تقنع به مُثيبًا ومُعطيًا..!!

هذا هو رسول الله يتحدث:

"إن أخْوفَ ما أخاف عليكم، الشّرك الأصغر"

قالوا: وما الشّرك الأصغر يا رسول الله..؟ قال: "الرياء.. يقول الله عز وجل

إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء..؟؟"

وإنه عليه السلام ليُوصى أصحابه دومًا أن يفتحوا أعينهم على هذا العدو المتربص حتى لا يندسَّ خِلسةً بين نواياهم وبواعثهم فيفسدها.

وقف ﷺ ذات يوم خطيبًا فى أصحابه فقال:

"يا أيها الناس: اتقوا هذا الشرك؟ فإنه أخفَى من دبيب النمل" قالوا: وكيف نتقيه يا رسول الله وهو أخفى من دبيب النمل؟ قال "قولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نُشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه".

ولكن أين تقدير الرسول ﷺ للطبيعة الإنسانية إذن ولا حتياجاتها المحتومة من تقدير الآخرين وثنائهم..؟؟

إن الرسول ﷺ بتعاليمه السالفة لم يَجحد الطبيعة الإنسانية، ولم ينكر عليها حقها فى أن تكون مزاياها وفضائلها موضع التكريم والتقدير والثناء.

الخطر الذى يُحاذره الرسول ﷺ ويخشاه، هو أن يمارس الإنسان واجباته، ويعبر عن فضائله، لا بباعثٍ من ولائه لهذه الواجبات وتلك الفضائل بل ليكون بين الناس وجيهًا.

وموضع الخطر هنا، أن قلبه المعلَّق برضاء الناس وتملُّقهم سيجعله مع الاستمرار عبدًا لأهوائهم.. وحين يصير الحق فى جانب، والناس فى جانب آخر، يتبعُ الناس ويُخالفُ الحق.. وقد يفعل ذلك وهو لا يدرى أنه يتحدَّى الحق ويَنْتَبِذُ منه مكانًا قصيًا.. ذلك لأن بصيرته التى تعودت أن ترى الأشياء من خلال الملَق، تمسى وقد اجتاحتها الرغبة فى مصانعة الغير بعيدةً عن مواطن الرشد والحق، ولا تعود تعرف الناس بالحق، بل تعرف الحق بالناس.. وآنئذ تصاب النفس الإنسانية بشَرٍّ ما يمزقها.

إن الذين يعملون ليظفروا بثناء الناس لا غير، يتصرفون وكأنهم بما عند الناس أوثق منهم بما عند الله.

وواجب الإنسان أن يعمل ابتغاء وجه الله الذى منحه القدرة والتوفيق. فإذا صار عمله ذاك موضع الحفاوة والثناء، فلا تثريب عليه ولا حرج، ولا ينقص هذا الثناء من أجره مثقال ذرة.

سأل صحابيٌ رسول الله فقال:

"يا رسول الله: إنى لأعمل العمل من الخير فى السرّ لا يعلمه إلا الله، ولم أبتغ به إلا وجهه ثم أصبح فأرى الناس يتحدثون به، فينشرح لحديثهم صدرى أمِنَ الرياء ذلك..؟؟

فأجابه الرسول عليه السلام: "لا، ليس ذلك رياء، إنما هو عاجلُ بُشرى المؤمن"..

صدق رسول الله.. فحين يأتيك من الناس ثناء أنت له أهل، ثناء لم تبع به إخلاصك وصدق نواياك، فإن هذا الثناء يكون بمثابة القسط الأول واليسير من مثوبة الله لك.. إنه كما قال الرسول ﷺ "عاجل بُشرى المؤمن".

إن ولاءنا لواجباتنا يدوم ويبقى ما دمنا نتوجه بهذه الأعمال إلى الله.

ونحن نلحظ ذلك واضحًا ومُبينًا فى الأسلوب الذى يعالج الناس به واجباتهم تلقاء العلاقات الإنسانية..

فالصداقة مثلاً، التى تستمد خصائصها ووجودها من بواعث نقية وصادقة تدوم وتقهر كل دواعى الفرقة، والجحود، والخذلان..

أما الصداقة التى تزجيها أطماع مُتبادلة، ومنافع زائلة، فإنها ليست أكثر من قطيعة فى ثياب تنكرية.

إن أجلها قصير، وعاقبتها خُسْر..

وهنا نلتقى برسول الله يقول:

"إن من عباد الله أناسًا، ما هُمْ بأنبياء ولا شهداء يَغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى"!!.

"قالوا يا رسول الله تُخبرنا من هم..؟

"قال: هم قوم تحابُّوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور.. لا يخافون إذا خاف الناس.. ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية ـ ألا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون ـ"..!!

من هؤلاء الذين يُقسم الرسول أن لهم كل هذه المثوبة وهذا الرضوان..؟؟

إنهم طائفة من ذوى البواعث الربانية الطاهرة..

إنهم قوم أحبَّ بعضهم بعضًا. لا من أجل أواصر، أو منافع.. إنما هم "تحابوا فى الله"..!!

اعمل عملك ابتغاء وجه الله وحده.. ودَعْ عبير هذا العمل يطلق الألسنة بإطرائك، ويملأ الأفئدة بحبك، ويدل الناس عليك فآنئذ لا تثريب ولا حرج.. ولكن احذر أن تعمل الخير رياء وسُمعة.. طمعًا وزهوًا؛ فإنك بهذا لا تضيع أجرك فحسب، بل وتلوِّث الخير أيضًا..

ولئن كان الرسول عليه السلام يُحاذر على سلامة النفس الباطنة من الرياء، فإنه بنفس القدْر ولنفس السبب يخاف عليها النفاق..

إن تفوق النفس الباطنة، يعنى كما ذكرنا من قبل.. "استقامة الضمير"..

واستقامة الضمير لا تكاد تبين فى شىء كما تبين فى نقاء البواعث التى تبتعث فينا إرادة العمل، والحوافز التى تقود أعمالنا.

وإذا كان الرياء يدفع بأعمالنا بعيدًا عن نهج الإخلاص اللازم لسلامتها؛ فإن النفاق يدفعها بعيدًا وبعيدًا عن كل صواب وحق.

فأولئك الذين يرصدُون رياح المنافع والأهواء قبل أن يُبْحرُوا بأطماعهم الملتاثة، قوم تجعل منهم أنانيتهم المظلمة والمفرطة قبحًا يُكدِّر جمال الحياة، وآفة تستنفد جهد الخير فى مقاومتها ودَحضها.

لماذا ينافق المنافقون..؟

لأنهم صغار جبناء، يسترون بالنفاق صَغارَهم وهواهم.. أو لأنهم ذوُو أطماع غير مشروعة، يتوسلون بالنفاق لإنجازها..

أو لأنهم إمَّعات وفقاقيع طافية على السطح البارد، فهم يعبرون بالنفاق عن خَوائهم.

إن هؤلاء، وهؤلاء، وأولئك، لا يمكن أن تصدر عنهم أعمال جليلة القدر، ولا يتركون فى الحياة بعد رحيلهم عنها سوى بصمات مهزوزة، إذا هم تركوا شيئًا على الإطلاق.

وإذْ كان هؤلاء ضحايا النفاق، وإذ كان النفاق شديد الوطأة على النفس الباطنة، ممعن الإصرار على تشويهها وإضلالها، فقد شن الرسول ﷺ عليه حملة قاهرة من

أحاديثه المباركة وتوجيهاته السديدة.

وإنه ليبدأ فيقول:

"إن شر الناس ذو الوجهين: الذى يأتى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه".

ويقول:

"من كان له وجهان فى الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار"..

ويصوِّرُ الرسول ازدراءه النفاق واشمئزازه منه فى هذا التشبيه الساخر الذى يدمغ به المنافقين، فيقول عليه السلام:

"مَثَل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة".!!

* * *

إن الرسول ﷺ إذ يَدحضُ النفاق، إنما يفعل هذا عن إدراك كامل للأخطار الماحقة التى تحلُّ بكل جماعة يروج النفاق فيها.. هنالك تزاوَرُ الحقيقة وتختفى، ويمسى كبْتُ الصدق فضيلة تلك الجماعة.. وتفقد الجماعة قدرتها على الاحتفاظ بشرف مسئولياتها.

ذلك أن النفاق ابن شرعى للكذب والخيانة، وحين يصير الكذبُ وتصير الخيانةُ العملة الرائجة بين قوم، فقل: عليهم العفاء.

يقول الرسول عليه السلام:

"آية المنافق ثلاث:

*إذا حدَّث كذب..

* وإذا وَعد أخلف..

* وإذا اؤتمن خان."

وفى حديث آخر يضيف الرسول إلى خصائص النفاق آفتين أخريين فيقول:

"إذا عاهَد غدَر..

وإذا خاصَمَ فجرَ..

وهكذا يحمل النفاق بين طياته، عُقوبتة وقصاصَه..

فهو إذ يجعل من صاحبه كذابًا، وخائنًا، وغادرًا، إنما يُحوِّله إلى مسخ شائه، ويجعل وجوده ـ مجرد وجوده عِبْئًا على الحياة تحاول دائمًا أن تلقيه على الأرض وتسحقه تحت قَدَميها.

ويدرك الرسول ﷺ أن الحياة الإنسانية لا يستقيم أمرها إلا بالقدر الذى تسود به حرية الضمير، حيث يتحرَّى الناس الحق ويتبعونه، وحيث يكون الاقتناع الحر الرشيد سبيلهم إلى معرفة الحق وإدراكه.

وحين ينافق الناس، يُزيفون أنفسهم وآراءهم، ويخادعون أنفسهم والآخرين.

وحين يُخفى الناس اقتناعهم الحقيقى وراء غلالات النفاق أو حجبه، فإن حياتهم تفقد كل مُقوماتها وكل قيمتها.

وهنا يتقدم الرسول ليقى الحياة شر هذا الدمار، فيقول:

"لا يكن أحدكم إمَّعة، يقول: إذا أحسن الناس أحسنتُ، وإذا أساءوا أسأتُ ولكن ليُوطدْ أحدكُم نفسه. إذا أحسن الناس أن يُحسن، وإذا أساءوا أن يتجنَّب إساءتهم".

* * *

وحين يُشكِّل الرأى ضربًا من الشُورى أو النصيحة التى تتطلبها مصالح الجماعة والأمة، فإن الرسول لا يراه مجرد رأى، بل هو الدين وهو الأمانة.

فيقول عليه السلام:

"الدين النصيحة.. قلنا لمن يا رسول الله..؟ قال: لله، ولرسوله؛ ولأئمة المسلمين وعامَّتهم".

كذلك يقول:

"المستشار مؤتمن".

ويقول:

"كفى بك إثمًا أن تحدِّث أخاك حديثًا، هُو لكَ به مُصدِّق.. وأنت له به كاذب"..

ويقول:

"من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرُشد فى غيره فقد خانه"..

إن النفاق هنا، أى عندما يتمثَّل فى الرأى نصيحة مُلحَّة أو مشورة مرجوُّة، يكون حيث وضعه الرسول خيانة وهوانًا، لا سيَّما حين يترتب على تزييف الرأى ضياع حق أو تأييد باطل.

وهنا يقول عليه السلام:

"من أعان على خصومة بغير حق، كان فى سَخَطِ الله حتى يَنزِع" ..

"ومن أعان على خصومة بظلم؛ فقد باء بغضب من الله" ..

* * *

بيد أن الرسول عليه السلام حين ينادى الناس إلى أن يحكموا اقتناعهم فى صدق، ويعبروا عن أنفسهم فى شجاعة، لا ينسى أن يبسط أمامهم النهج القويم لهذا السلوك، فليس ينفع الناس شيئًا أن ينجوا من النفاق، ويقعوا فى البهتان أو سوء الأدب.

وهنا يقول عليه السلام:

"إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحَاسِنكم أخلاقًا ..

"وإن أبغضكم إلىَّ، وأبعدكم منى مجلسًا يوم القيامة ـ الثرثارون، والمتشدِّقون، والمتفيهقون" .

ويقول:

"ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذىء" .

وحين يسأله مُعاذُ بن جبل قائلاً: أئنا لمؤاخذُون بما نتكلم به..؟ يجيب الرسول:

"وهل يكُبُّ الناس فى النار على وجوههم إلاَّ حصائد ألسنتهم." ..؟

كذلك لا يريد الرسول ممن يتفوَّقون على دواعى الإمَّعيَّة والنفاق، أن يتورطوا فى مزالق التزمت والتنطُّع..

إن سعة الأفق لازمة، لكى يصل الإنسان إلى الرُّشد والسداد، ولكى يبلغ مطالع الضوء فى الحق الذى ينشده، والحقيقة التى يرجوها ـ شريطة ألا تتحول سعة الأفق هذه إلى تبرير جديد يخفى نفاقًا وهروبًا.

إن التزمُّت كالنفاق، كلاهما يطمس معالم الحق ويُخفيه عن البصائر والأبصار.

وهنا يقول الرسول:

"هلك المتنطِّعون" ..

ويقول:

"من أعطى حظَّه من الرفق، فقد أعطى حظَّه من الخير، ومن حُرم حَظَّه من الرفق، فقد حُرم حظَّه من الخير" ..

كان الرسول ـ عليه السلام ـ يطارد النفاق فى كل مظانّه، ولما خشى أن تتحول المبالغة فى الإطراء والمدح إلى نفاق المادح وغرور الممدوح نهى عن هذا ورَفضه، ودعا إلى القصد فيه.

يروى أبو بكر رضى الله عنه وهو من أصحاب رسول الله هذا الحديث:

"ذُكر رجل عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجلٌ خيراً فقال النبى: وَيْحك قطعت عُنق صاحبك إذا كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، ولا يزكِّى على الله أحداً"..

بل لقد زجر أصحابه الذين قالوا له يومًا: أنت سيدنا، وقال لهم: "لا يسْتَغْوينكم الشيطان"..

إن تبادُل الناس مشاعر التقدير فيما بينهم، لأمرُ يباركه الرسول.. ولكن حين تتجاوز هذه العلاقة مَدَاها المشروع وتتحوَّل إلى مداهنة باطلة ومجاملة كاذبة يحدوها الضلال ويغشاها الزيف والزور، فآنئذ يشجب الرسول تلك العلاقة ويدحضها، لأنها تعتاق نمو النفس الباطنة نحو كمالها المقدور..

* * *

ومع الرياء والنفاق ـ فى مجال تحرير النفس الباطنة ـ تواجه تعاليم الرسول وكلماته آفة ثالثة ـ تلك هى : الكبر.. إن بين الثلاثة وشيجه وثقى، وآصرة محكمة، وإنها لتترعرَع جميعها فى مستنقع واحد.. مستنقع النفس الخواء التى ليس لها ما يشغلها سوى النفايات والأطماع الرخيصة..

إن أعمالنا حين يبتعثها الرياء، يهدر الرياء مثوبتها.. وحين يبتعثها النفاق، يهدر النفاق عظمتها.. وحين يبتعثها الكبر، يهدرُ الكبر إنسانيتها..!!

وإذا ضاع من العمل مثوبته، وعظمته، وإنسانيته، فماذا بقى منه وله..؟ وماذا بقى لصاحبه..؟

إن النفس الباطنة خلال عُرُوجها إلى الكمال مطالبة بأن تنبذ نبذاً أكيداً هذا الثالوث من الآفات.

من أجل ذلك، فإن الرسول الذى دحض الرياء، والنفاق، يدحض بنفس العزم آفة الكِبر ويفضح مضمونها اللاإنسانى.

وإنه ليبدأ حديثه عنها فيقول:

"ألا أخبركم بأهل النار..؟ كل عُتُلٍّ جوَّاظ مستكبر" ..

إذا تصورنا النار ـ معزلاً ـ يعزل فيه أولئك الذين ترشحهم له خطاياهم، فإن الكبر نار حقًّا، لأنه يعزل صاحبه عن البشرية المتحضرة الأنيسة، ويحبسه داخل قوقعة غروره وخيلائه..

وإذا كانت النار "معزلاً" يمورُ بألوان العذاب وصنوف البؤس، فإن الكبر أيضًا هو تلك النار، لأن المستكبر المنتفخ الأوداج يعانى من العذاب النفسى ويحيط به من المقت والسخرية ما يجعل حياته جحيمًا.

إن المتكبر يحرم نفسه بكبريائه من كل فرح الحياة وبهجتها، هذا الفرح وهذه البهجة الكامنان فى البساطة والوداعة وإيلاف الناس والحياة.

فليست نار الآخرة وحدها، هى عقبى المتكبرين، ولكنها نار الدنيا أيضًا.. نار كبرهم واستعلائهم وغرورهم.

وهم بهذا الكبر يحرمون أنفسهم من الجنَّتين ـ جنَّة الدنيا، حيث طمأنينة النفس وراحة القلب، ومحبة الناس ـ وجنَّة الآخرة حيث ثواب الله ورضوانه.

وهنا يقول الرسول:

"لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبر".

ولنفتح أبصارنا جيداً على قول الرسول ـ فى قلبه ـ فإن ذلك يربط الكبر بالنفس الباطنة رباطًا طبيعيًا، ويعلمنا أن الكبر مأواه ومسكنه تلك النفس، مأواه ومسكنه نوايانا وبواعثنا، وهى أخطر مكمن يستطيع الكبر أن يوجه منه ضرباته المميتة ـ لا إلى الناس، بل إلى صاحبه ذاته.

إن الرسول عليه السلام لم يقل: من كان فى سلوكه مثقال ذرة من كبر.. بل قال: "من كان فى قلبه مثقالُ ذرة من كبر".

وفى هذا أيضًا تبيان لجوهر الكبر وحقيقته، فليست مظاهر الأناة والاعتداد، واحترام النفس كبراً، ولا شيئًا من كبر..؟ لأن الكِبر نيَّة مُضمرة تعبِّر عن نفسها فى مظاهر أخرى من طبيعتها وأمثالها.

ألا يكشف الرسول لنا تلك الصورة أو الصور التى تتقمصُها رذيلة الكبر لتعمل عن طريقها..؟

نعم، إنها صُوَرٌ كثيرة، وإن الرسول ليلخصها لنا فى هذا الحديث.

فلقد سأله سائل ذات يوم قائلاً:

"يا رسول الله: إن أحدنا ليُحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا، أفمن الكبر ذلك..؟

فأجاب الرسول قائلاً: إن الله جميل يحب الجمال وإنما الكبر بَطر الحق وغَمْطُ الناس".

أجل - هذا هو الكِبْر.. بطر الحق وغمط الناس - فحين نحاول أن نضع أنفسنا فوق الحق نكون قد بطرنا الحق.

وحين نحاول أن نضع أنفسنا فوق الناس نكون قد غمطْنا الناس.

وفى كلتا الحالتين نكون ضحايا الكبر - ولكن، أليس ثمة سبيل للوقاية من الكبر قبل أن يَستفحل فى النفس جُثومهُ وخطره.؟ بلى هناك سبيل..

* أن تلتزم دائمًا مكانك كواحد من الناس. هكذا يقول الرسول:

"كلكم لآدم، وآدم من تراب"..

"ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى"..

"الناس سواسية كأسنان المشط.."

* وأن ترد نفسك أولاً فأولاً إلى حقيقتها..

وحقيقتها، أنها لا تملك أى امتياز يجعلها فوق الناس إذ مهما تكن مواهبها ونبوغها، فإن ذلك كله نعمة الله عليها - ونعم الله لا تشكر إلا بالتواضع الخيِّر النبيل.

فإذا ترك أحدنا نفسه يتراكم فيها ويرين عليها الشعور بالزهو والاستعلاء، فإن الكبر سرعان ما يلف حياته كلها فى ضبابه.

وهنا نسمع الرسول ﷺ يقول:

"لا يزال الرجل يذهب بنفسه، حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم".

لكن الناس بطبيعتهم يهوون الرفعة ويسعون إليها.

أجل - وإن رسول الله لا يحرمهم حقهم فى هذا الذى يحبون.. إنما هو يريد لهم رفعة خالصة نقية عادلة. لا يشوبها كدر الهوى ولا ظلمة الغرور. وإنهم لينالون الرفعة كاملة غير منقوصة. كلما ابتعدوا عن الكبر وتواضعوا لله، وتواضعوا بين عباده.

يقول الرسول:

"ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا.. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله".

إن التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس. بينما الكبر عَزاء يقدمه الغرور لصغار النفوس، وكلما تحلى قوم بالتواضع، رأيت الإخاء بينهم وثيقًا، والأواصر مشدودة، والمودة ريانة.

عندئذ. يحمل قويهم ضعيفهم.. ويحترم كبيرهم صغيرهم.. ولا تلقاهم عن طريق الخير ناكبين.

والرسول ﷺ وهو يقاوم رذيلة الكبر لا يهدف إلى سلامة الفرد فحسب، بل وسلامة المجتمع كله.

ذلك أن الكبر إذا ساد الناس، وانطوت كل نفس على زهوها تعرضت المودَات الإنسانية لشرٍ وبيل.

من أجل هذا نرى الرسول عليه السلام يعطى توكيدات مستمرة للتواضع ولين الجانب خلال تطبيقاته العملية لمبادئه.

فحين كان يرى الناس ينأون عن الفقراء لفقرهم بينما يعظمون ذوى الثراء والجاه: لثرائهم وجاههم ـ كان هو يعطى كل حفاوته للفقراء، ويبسط لهم رداءه حين يقدمون على مجلسه.

وإنه ليرفع كفيه إلى السماء فى ابتهاله الضارع:

"اللهم إنى أسألك فِعْلَ الخيرات.. وترك المنكرات وحُبَّ المساكين.

ويكسر حدَّة الكبر الناشئ عن الثروة فيقول :

"قمت على باب الجنة، فكان عامَّة من دخلها المساكين".

وفى حديث آخر يقول:

"أما الأغنياء فإنهم على الباب يحاسَبون ويُمَحَّصُون".

صورة جميلة، ومعنى واضح، يقولان للناس، إنه عندما تستقيم الموازين، فإن ثراءكم لا يزيد فى أقداركم مثقال ذرة، لأن المال عرض زائل، ولا يدل وجوده على أية فضيلة أو مزية اللهم إلا حين يوضع فى خدمة الخير والحق.. وهو حين يكون كذلك فإنه لا ينبغى أن ينفخ أوداجكم زهواً، ولا أن يلوى أعطافكم صَلَفًا ولا أن يشعركم بأى امتياز على الذين لم يملكوا من الثروة ما تملكون ومن ثمَّ:

"أحبوا الفقراء وجالسوهم"..

ومثل الثراء فى ذلك، المنصب، فلا فضل لذى المنصب الأعلى على صاحب المنصب الأدنى، ولا حق للأول فى أى زهو أو استعلاء يحضه عليهما الغرور.

فالناس العاديون أصحاب دَور عظيم فى الحياة يجعلهم عظماء.. وليس ما يبدو على ظواهرهم من بساطة ومَسْكنة، نداء إلى امتهانهم أو النظر إليهم من فوق بعيد ففى هؤلاء البركة والخير.

هكذا يقول الرسول:

"ابغونى فى ضعفائكم، فإنما تُرزَقون وتُنصرون بضعفائكم".

ويحدثنا مصعب بن سعد فيقول:

"رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلاً على من دُونه، فقال رسول الله ﷺ: "هل تُنصرون وترزَقون إلا بضعفائكم"..؟؟

إن الرسول لا يعنى بالضعف العجز ـ إنما يعنى البساطة.. ويعنى بالضعفاء، الناس العاديين.. الملايين التى تكدح وتعمل ثم تذهب من الحياة بضرورات العيش أو تكاد دون أن تتململ أو تقنط أو تلقى بمسئولياتها إلى أرض اليأس والإفلاس..

إن السِّمنة فى المنصب أو الجاه لا ترشح صاحبها قط للاستعلاء على عباد الله.

إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جَناح بعوضة.

هكذا يقول الرسول عليه السلام.

أتراه يعنى سمنة اللحم والشحم.؟! كلاً.. وما ذنب من ينمو جسمه وخلاياه فيتفاقم طولاً وعرضًا..؟!

إنما يعنى الذين يتعاظمون ويترهّلون فى صلفهم بغير حق. يعنى الذين يأخذهم الكِبْر بعيداً عن الناس العاديين الذين هم فى الحقيقة صُنّاع الحياة. ولولاهم ما كان للحياة معنى ولا نماء.

هؤلاء الذين يصف الرسول ﷺ خيارهَم، بأنهم خيرُ عباد الله، وينعتهم فى مقال آخر بأنهم "مُلوك الجنة"..!!

هؤلاء الذين ترى أحدهم:

"..أشْعث، أغبر، ذا طمْرَين، لا يؤْبَهُ له، لو أقسم على الله لأبَرَّه"..!!

هكذا، يقاوم الرسول الكبر، كما قاوم من قبل النفاق والرياء.

وهو عليه الصلاة والسلام، إذا كان يرى الكبر بطر الحق وغمط الناس.. فإن للرياء وللنفاق نفس الدور وكلاهما تزييف للحق وبهت للناس.

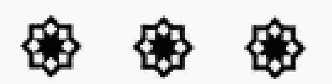
والثلاثة معًا، يُشكّلون خطرًا ماحقًا على الشخصية الباطنة، التي يريد الرسول لها الكمال، وعلى استقامة الضمير التي يرجو الرسول لها المنعة.

إن ثمت آفات كثيرة تفسد النفس الباطنة وتقعُد بها عن مُتابعة مِعراجها.

لكن هذه الثلاثة ـ الرياء والنفاق والكبر ـ هي شرُّ تلك الآفات جميعًا؛ لأنها أقدرها على التسلل والتنكُّر والإيغال..!!

وإن الذين تخلُو نواياهم وأعماقهم من تلك الآفات لا يهبون الحياة أعمالاً سليمة وعظيمة ونافعة فحسب.. بلى إنهم يصبحون جزءًا حيًا من ضمير الحياة.

وحسبهم هذا مَثوبة.. وحَسْبُهم أجرًا..!!!





الفصل الثانى

عن الفطرة المؤمنة

يؤمن الرسول عليه الصلاة والسلام أن كل مولود يولد على الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها..

وفي هذه الفطرة تكمن وتتمثل البديهة التي تهدي صاحبها تلقائيًا إلى الحق، وتوجه أحاسيسه ورُؤاه نحو خالق هذا الوجود المعجز العظيم.

وهذه البديهة تولد معنا وتنمو معنا.. ولكنها كأي شيء فينا يحتاج نموها إلى رعاية وزاد.

والأنبياء والمرسلون يقدمون إليها زادها ويحولونها إلى بصيرة مضاءة بنور ما فتح الله عليهم من آياته وعطاياه.. أي يحولونها إلى فطرة عارفة مؤمنة.

ولقد ركبت الطبيعة البشرية بحيث لا يستطيع الناس أن يعيشوا بغير إيمان.. الإيمان بأي شيء يفرض نفسه على الاقتناع والوجدان.

وحين ينظر كل منا إلى نفسه ويجوس خلال تجربته يجد هذه الحقيقة في حياته.. حتى الذين يلحدون نراهم مؤمنين بإلحادهم.!!

ودور الدين السماوي ـ أي دين ـ أن يهدي الناس إلى الإيمان بالحق.. ويساعد الفطرة على نموها الجزيل والقويم.

ومن عناصر الإيمان الرشيد تتكون الفطرة الرشيدة الثاقبة.

وحين نتتبع أحاديث الرسول في هذا المجال، نجد الفطرة المؤمنة تتألق بنور ما بثَّ فيها من حكمة، وتتشكل بهدى الله في أحسن تقويم.

إن نقطة البدء في ترشيد الفطرة وتمكينها من هداها، إدراك أن هذا الخلق وذاك الكون لم تنجبهما صدفة عمياء.. بل هما من صنع قوة، لها كل العلم، وكل الاقتدار ـ وهي قوة الله رب العالمين.

"كان الله تعالى، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق

السماوات والأرض، وكتب فى الذكر كل شىء".

هكذا تحدث الرسول:

ففى البدء بل قبل البدء كان الله، الأول بلا بداية.. وكانت قدرته ترفّ فوق عالم من الماء، أى عالم خلو من كل مظاهر الحياة. ثم خلق السموات والأرض. وبثَّ فيهما وفى كونه الكبير من الحياة والأحياء ما لا يمكن حصره ولا وصفه. ثم كتب فى الذكر كل شىء. راسمًا السنن والقوانين التى ستحكم هذه القوى المخلوقة وتحدد مسيرها، وتنظم علاقاتها.

صورة جميلة ومحكمة يشير بها الرسول ﷺ فى غير غموض وفى غير فضول، إلى إيمانه بمنشئ الكون وبارئه..

فإذا اهتدت الفطرة إلى الإله الذى خلق وأبدع، فإن عليها أن تعرفه، واحدًا، أحدًا، ليس له شريك يُعينه.

وإن الوحدانية لتُمثّلُ عند الرسول ﷺ أعظم بل أجمع خصائص الإيمان بالله، وتكاد تذوب أمام عظمة مثوبتها كل خطايا الإنسان.

يقول الرسول لمعاذ صاحبه:

"يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟

قال معاذ: الله ورسوله أعلم.

قال الرسول: فإن حق الله على العباد، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله عز وجل، ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا.

قال معاذ: قلتُ يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟

قال الرسول: لا تبشرهم فيتّكلوا".

ومن أجل تطهير الضمير الإنسانى من كل بقايا الشرك لا سيما فى ذلك العهد البعيد الذى كان المسلمون الأوائل فيه، حديثى عهد بدنيا الأصنام والأوثان. راح الرسول عليه السلام يقصر كل مظاهر التعظيم والإجلال على الله وحده، وراح يقطع على قوى الشرك ومغرياته كل خطوط الرجعة.

* فالحلف بغير الله، تعظيم لغير الله، ومن ثم فهو شرك.

"من حلف بغير الله فقد أشرك" ..

* وعند الله وحده مفاتح الغيب، فمن ذهب يلتمس معرفة الغيب عند غير الله، فقد أشرك.

"من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد".

وإذا قَرَّ في الفطرة إيمانها بوجود الله، وإيمانها بوحدانيته فإن الرسول بعد هذا يحدثها عن كمال الله المطلق.

* فهو سبحانه حي لا يموت.

"أنت الحي الذي لا تموت، والجن والإنس يموتون" ..

* وهو لا ينام ولا يَغفُو.

"إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام" ..

* وهو قريب من عباده يسمع سرهم ونجواهم. ويبصر ظِلالهم ووَقع خطاهم.

"يا أيها الناس، اربَعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا بصيرًا، وإنه معكم أينما كنتم" ..

* وهو جل جلاله جواد كريم..

"إن يمين الله ملأى - وكلتا يديه يمين - سحَّاء الليل والنهار لا يغيض أبدًا" ..

* وهو بعباده رحيم وتواب..

"إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل" ..

* وهو ليس كمثله شيء، ولا يستطاع وصفه إلا بأنه نور السماوات والأرض.

"سئل رسول الله ﷺ. كيف رأيت ربك يا رسول الله..؟

فأجابه نورَ أنَّى أراه" ..

* والله بقدرته وبعلمه وبآثار رحمته في كل مكان وزمان.. وإيمان الفطرة بهذا ينأى بها عن كل جدل عقيم حول ذات الله.

"يسأل الرسول عليه السلام جارية أين الله..؟ فتشير إلى السماء فيقول الرسول: إنها مؤمنة"..

وفى ذات المعنى يقول عليه السلام:

"لو سقط دَلوُ أحدكم فى بئر، لوقع على الله"..

ليس لله مكان يجده لا في السماء و لا في لأرض، و إنما يعنى الرسول في كلا الحديثين وفي الأحاديث الأخرى المماثلة تنزيه الله عن مكان بذاته لأنه وهو مبدع الوجود كله يتجلى في الوجود كله و هو مع خلقه جميعا أينما كانوا.

ولقد كان رسول الله يستشعر هذه الحقيقة ويُحسُها إحساسًا عميقًا وعريقًا، فلم يكن يغفل عن الله لحظة - وهذا هو المظهر السديد للإيمان.

* ومن ثَم فقد كان إذا هَمَّ لينام يقول:

"باسمك ربى وضعتُ جنبى، وبك أرفعه، إنْ أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرْسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"..

* وإذا استيقظ من نومه قال:

"الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور".

"أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"..

* وإذا خرج من بيته قال:

"باسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

"اللهم إنى أعوذ بك أن أضَلَّ أو أُضل، أو أذلَّ أو أُذل، أو أظلم أو أُظلَم، أو أجهل أو يُجهلَ عَلَىَّ".

* وإذا فرغ من طعامه قال:

"الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، وجعلنا مسلمين".

* وإذا رأى الهلال، يبزغ أول أمسيات شهر جديد، نظر إليه فى حبٍّ، وناجاه قائلاً:

"هلالُ خير وبركة إن شاء الله ـ اللهم أهِلَّه علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام ـ ربى وربك الله".

* وإذا دخل بلدًا أو قرية قال:

"اللهم رَبَّ السماوات السبع وما أظللن، وربَّ الأرَضين وما أقللن، وربَّ الرياح وما أذرين، وربَّ الشياطين وما أضللن ـ أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها"..

* وإذا خرج فى سفر قال:

"اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل.

"اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السَّفر، وكآبة المنظر وسوء المقلب فى الأهل والمال والولد".

* وإذا عاد من سفره قال:

"آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون"..

أرأيتم..؟

كل خطوة فى حياته، وكل حركة، بل كل خَلْجة من خلجاته، موصولةُ العُرى بالله، ولها ابتهالها الخاص إلى الله..

وهو حين يُعلِّم الناس أن يصنعوا ذلك، لا يريد منهم مجرد كلمات تردَّد، وأدعية تتلى.. إنما يريد أن تكون هذه الابتهالات مظهر إيمانهم الذَّكور لله، والشَّكُور له.

فهذا هو الله فى وعى الرسول وإيمانه..

مصدر الوجود كله، ومصدر الخير جميعه.. ومن ثم لا يتحرك إلا مُولّيًا وجهه شطره، راجيًا رحمته ومُلتمسًا عونه.

وما دام ذلك كذلك.

وما دام الأمر كله لله، فإن من تمام الإيمان به، التوكل الحق عليه، واللجوء الدائم إليه وهذا يفسر الارتباط الروحى الوثيق الذى يتجلى فى ابتهالات الرسول هذه التى أسلفنا طرفًا منها والتى يرجو الرسول ﷺ لجميع الناس أن يكون لهم منها نصيب.

إن الرسول يريد بهذا أن يعلم الناس فن الحياة الراشدة المطمئنة ـ فحين ينجح أحدنا فى إسلام قلبه لله على هذه الصورة، فما عساه فى الحقيقة فاعل..؟

إنه يجمع أعمق حاجات النفس بأعمق حقائق الإيمان.. بل إنه يؤلف بين حاجات نفسه وحقائق إيمانه، فإذا الصعاب والمشاقُّ التى تتقطع الأنفاس إعياء منها تتحول إلى انْسيابات وديعة تقهر الصخر وتتخذ فوق عنفوانه سبيلاً سَرَبًا..

إن الناس يصابون بالضجَر، وبالجزع، وباليأس حين يشعرون أنهم موكولون إلى حولهم وقوتهم لا غير، وحين يتصورون قوتهم هذه فقَّعة تائهة ومعزولة..

أما حين يُرسون سنا البصائر إلى مصدر الوجود الأعظم ويُحسُّون المدد اللانهائى الذى يَصبُّ فى قواتهم والذى تتصل به طاقاتهم اتصالا يشدُّ الإيمان أزْره، فإن قواهم ساعتئذ تتفوَّق على الضعف وعلى اليأس وعلى الخذلان.

وفى هذا المعنى يقول الرسول قولا بليغًا:

"احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك.

إذا سألت، فسأل الله..

وإذا استعنتَ، فاسْتعن بالله..

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك..

وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك"..

هذا هو برهان الإيمان، وهو برهان يتضاءل أمامه كل برهان.

أن ينطوى قلبك الذكىُّ على حسٍ صادق بأن الكلمة الأخيرة فى كل شىء إنما هى لله رب كل شىء.. وأنه بقدر إيمانك بالله وبقدرته، يجىء تفوقك على كل المعوقات.

ولكن هذا الارتباط الذهنى والنفسى بالله سبحانه لا ينبغى أن يعنى نفض اليد من المسئولية. بل هو على العكس ينمى الشعور بها والصبر عليها.

فهذا الإيمان بالله المدبِّر لكل شىء، القادر على كل شىء، يعنى فى نفس الوقت المزيد من البذل والجهد.

ذلك أن الإيمان عند رسول الله ﷺ ليس خاتمة مَطاف.. بل هو ميثاق العمل وفق مَرضاة الله.

ووجود الإيمان يعنى عند الرسول وجود العمل الذى يقتضيه هذا الإيمان.

فمثلاً يقول عليه السلام.

"مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه..

ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فَلْيصل رحمه..

ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت".

هكذا، يستعمل الرسول هذا التعبير كثيراً، فيجعل الخير والهدى والصلاح براهين الإيمان وبيِّنات وجوده.

إن الإيمان بالله يعنى التعرف عليه فى الرخاء، والصبر على الحق والخير مهما يتطلَّبا من عناء.

وها هو ذا - عليه السلام - يقول:

"تعرَّف إلى الله فى الرخاء، يعرفك فى الشدة..

واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك..

واعلم أن النصر مع الصبر..

وأن الفَرَج مع الكرب..

وأن مع العسر يسرًا.."

أجل.. تعرَّف إلى الله فى الرخاء؛ يعرفك فى الشدة. أروع تعبير يقال فى هذا المقام ليجعل حمل تبعات الرشد نقطة البدء فى السير إلى الله.. وجوهر التوكل على الله.

فالخطوة الأولى عليك..

واعلم - كما قال الرسول ﷺ - أن النصر مع الصبر، فكل انتصار على أنفسنا وعلى مُوبقات الحياة ليس مفاجأة تضعها الأقدار تحت وسائدنا.. بل هو ثمرة الصبر.. وثمرة العمل..

"مَن يستعفف، يُعفَّه الله..

ومن يَستَغْنِ يُغْنه الله"

بيد أن الخطوة الأولى التي هي متروكة لنا، والعمل الذى يبلغنا غرضنا، لا يتهيأ لهما النجاح والسداد والبّر إذا انفصلا عن الله، وعن الإيمان الذى يستدر عون الله ورحمته وعطاءه.

كما أنهما لا يدركان القصد إذا أساء صاحبهما فهم حقيقة الإيمان وما يتطلبه من مُثابَرة.

وهنا يقول الرسول ﷺ:

".. والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله".

* * *

والإيمان بالله، وتعلق الرجاء الإنسانى بقدرته ليسا مجرد عَزاء يقدمه الرسول للمؤمنين.. بل هما حقيقة حمل كل براهين صدقها العظيم.

وليس على الناس إلا أن يقتربوا بعملهم الصالح من دائرة هذه الرحمة الإلهية الجزيلة، هنالك يبصرون القوى المذخورة الهائلة التى يضعها الله فى خدمتهم والتى يصورها الرسول أبدع تصوير فى حديث قُدْسىَ يحكيه عن ربنا سبحانه:

"إذا تقرّب العبد إلىّ شبرًا، تقربت إليه ذراعًا..

وإذا تقرب إلىّ ذراعًا، تقربت منه باعًا..

وإذا أتانى يمشى، أتيته هَرْوَلة"..!!

ويُتم الرسول الصورة فى حديث آخر عن الله تعالى أيضًا فيقول عن الذى يتقرب إلى الله حتى يحبه الله:

"..فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبَصرَهُ الذى يُبصر به"..

أرأيت..؟

إذا ذهبت إلى الله ماشيًا.. بادر الطريق إليك مُهرولاً

إن الله ليس فى مكان فيمشى إليه فيه.. وهو سبحانه لا يهرول ولكنها لوحة باهرة فذّة يُظهر الرسول فيها الحقيقة التى يؤمن بها، حقيقة أنَّ وَصلَ الإرادة الإنسانية بالله عن طريق الإيمان الحق به، هو الوسيلة الناجحة التى تجعل من الإنسان ربانيًا، وصدِّيقًا.

وعلى الرغم من أن الإيمان قوةُ وحده، إلا أنه ينمو بالعمل الصالح، ويزداد فاعليّة وبركة عندما تناط الحياة بغرض خَيِّر وعظيم.

وحين يرتبط العمل بالإيمان فى تعاليم الرسول ونهجه. نجده يُبادر فيصون الإيمان من الغرور الذى قد يَبْتَعِثُه العمل الصالح فى نفس صاحبه، وذلك بأن يغرس الرسول فى الأفئدة المؤمنة الحقيقة التى تؤكد أن الهدى هُدى الله، وأن الخير كله بيده، وأن عبادة العابدين وتقوى المتقين، وخير الأبرار الخيِّرين لا يزيد الله شيئًا، وإنما ترسلْ نعمة الهدى غَدَقَها على المهتدين.

وأمام هذا الحديث المفيض الذى يحكيه الرسول على لسان ربه الكبير يأخذنا انبهار سعيد:

"يا عبادى، إنى حرمت الظلم نفسى وجعلتهُ بينكم محرَّمًا، فلا تظالموا"..

"يا عبادى، كلكم ضالُ إلا من هَديته، فاستهدونى أهدكم"..

"يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم"..

"يا عبادى، كلكم عَارٍ إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم"..

"يا عبادى، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفرونى أغفر لكم"..

"يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى.. ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى".

"يا عبادى، لو أن أوَّلكم، وآخركم، وإنسكم وجنُكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا"..

"يا عبادى، لو أن أولكم، وآخركم وإنسكم وجنَكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكى شيئًا"..

"يا عبادى، لو أن أوَّلكم، وآخركم، وإنسكم، وجنَكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أدخل البحر"..

"يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم أياها.. فمن وجد

خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه".

* * *

أجل.. لن يبلغ العباد نفع الله حتى ينفعوه.. ولن يبلغوا ضره حتى يضرُّوه..

ولو أنهم جميعًا صاروا فى العبادة رهبانًا وقدِّيسين فأنفسهم أفادوا، وما زادوا بطاعتهم فى ملك الله ذرَّة..

وإن الهُدى لنعمة الله وحده أفاءها عليهم حين يسَّر لهم أسبابه.

ثم هو بعد هذا ورغم هذا لا يظلمهم شيئًا، لأنه سبحانه وتعالى حرَّم الظلم على نفسه..

وإنما هى أعمالهم يُحصيها، ثم يُوفيها حقها.

إن الإنسان حين يدرك عن بينة أن عمله الصالح نعمة من الله عليه، وتوفيق منه له، فإن هذا الإدراك الصحيح يدرأ عن إيمانه وعمله خطر الغرور والزهو، وينجيه من إثم التألِّى على ذوى التراث..

والرسول عليه السلام يعلم أن الإيمان الوثيق والعمل الصالح ينموان بعيدًا عن تزكية النفس والدَّلِّ بطاعتها.

وإنه ليرفع صوته عاليًا بهذا الحديث:

"ثلاث مهلكات:

شُحٌّ مُطاع..

وهَوًى مُتَّبع..

وإعجاب المرء بنفسه."

ويقول الرسول لأصحابه يومًا:

"لن ينجو أحد بعمله.

قالوا: ولا أنت يا رسول الله..؟

قال: ولا أنا، إلاَّ أن يتغمدنى الله برحمته".

وعلى الرغم من اصطفاء الله له وحياته التى تضاهى كل لحظة منها عمرًا كاملاً فى طاعة الله، فطالما كان يقول:

"إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة".

عندما يُزامل الإيمان بالله، عملٌ صالح من هذا الطراز يبقى للإيمان صفاؤه ويقينه، ويبقى للعمل تقواه وإيمانه.

ولا سبيل لأن يظل العمل الصالح قرين الإيمان الصادق، إلا بأن يستمدُّ العمل جوهره من الإيمان.. أن يكون الإيمان بالله ضمير هذه الأعمال الصالحات، وآية ذلك ألاَّ يصحبها غرور الطاعة، لأنه مادام التوفيق للخير نعمة الله وحده، فإن نعم الله تُشكر بالتواضع والعرفان والمزيد من الضّراعة والخشية.. وبهذا يصير العمل نفسه إيمانًا..

وتتسع دائرة الإيمان - عند الرسول - حتى تشمل فى حقيقتها وفى مثوبتها ما يحسبه الناس أشياء يسيرة وعابرة..

وهنا يقول الرسول عليه السلام:

"الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان"..

* * *

وللعمل الصالح عند الرسول جدّيته وأهميته، ومن ثم فهو ينظم شعائره ومناهجه تنظيمًا هندسيًا، فلكل عبادة فرائضها ثم نوافِلُها..

الوضوء - مثلاً - له فرائضه ثم له سُننه، ونوافله.. وللصلاة فرائضها، ثم سُننها ونَوفِلُها.. وللزكاة والصوم، والحج.. فرائضها.. ثم لها سُننها ونوافلُها.

فإذا غادرنا العبادة إلى العمل الاجتماعى فى الحياة العامة، ألفينا الرسول يعطيه نفس المكانة من الجدّية والأهمية، فتصير لكل من نماذج هذا العمل فرائضه ونوافله..

والفرائض عند الرسول، سواء فى أعمال العبادة أو أعمال الحياة - تمثل ذلك القدر من الالتزام، الذى يجعل الإنسان أهلاً للمسئولية.

أما النوافل، فتمثل الانطلاقة التى تجعل الإنسان مُحبًا للمسئولية وعاشقًا لها..

وهذا أروع تقديس للعمل الذى يكون الإيمان ضميره ونورَه..

إذ بينما نوافل الأعمال عند كل الناس تمثل هَونًا من النشاط وهونًا من الثواب..

إذ الرسول يراها، وكأنها ذروة بين الذُّرى مرتفعة لألاءَة.

ومن ثم نراه يقول حاكيًا عن الله سبحانه:

".. ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه.. فإذا أحْبَبْتُه كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به".

وعندما يخلو العمل من الإيمان، فإنه لا يعدو أن يكون غرضًا من أغراض الأنانية والسلبية والانتهازية..

أما العمل المُترع بالإيمان، النابض به ـ لا سيما الإيمان بالله العلى الأعلى؛ فإنه الطراز الوحيد من العمل الذى يواجه مسئوليات الحياة فى غبطة وشجاعة.

إن الإيمان هو الشىء الوحيد الذى يجعل من العمل ـ أى عمل ـ رسالة، ومبدأ، وقيمة، وراية..

ومن هنا فالمؤمن عند الرسول عليه الصلاة والسلام ليس هو من يعمل الخير فحسب.. بل ومن يساعد الآخرين على فعل الخير.

لنسمع قوله عليه السلام:

"من دعا إلى هُدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا"..

وهو يقول:

"لأن يَهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لكَ من حُمر النَّعَم".

ويربط الرسول هذه الإيجابية الخيرة النبيلة فى حمل مسئوليات الحياة.. يربطها بالإيمان ربطًا مُباشرًا فيقول:

"لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه".

أتعرفون للإيمان تصويرًا أعظم من هذا التصوير..؟

لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يحمل تبعاته تجاه الناس بنفس الشوق وبنفس الجهد اللَّذين يحمل بهما تبعاته تجاه نفسه..

ولم يقل الرسول فى حديثه الكريم حتى "يرجو" لأخيه ما يرجو لنفسه، أو حتى "يتمنَّى" لأخيه ما يتمنى لنفسه.. بل قال حتى "يحب" لأن الحب هو أقوى دوافع النفس، ومنه تنبثق أعمق حاجاتها ورغائبها..

فليس يكفيك لكى تكون مؤمنًا أن ترغب لأخيك أو تتمنى لأخيك.. بل يجب أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

هنا، وفى هذا الحديث يرتفع الإيمان، ويرتفع العمل الذى ضميره الإيمان إلى

مستوى أسمى تبعات الوجود والحياة..!

وفى هذا المجال أيضًا يقول الرسول:

"الدَّالُّ على الخير كفاعله".

فما دامت تُحب الخير لنفسك، فالإيمان يفرض عليك أن تحبه لغيرك.. وحتى حين تعجز عن فعل ما هو خير وصالح فإن الإيمان يفرض عليك أن تدُل الآخرين على هذا الخير وتناديهم إلى هذا الصلاح، فلعلَّ فيهم من يكون أقدر مِنك على ما فعل ما أعجزك إدراكه.

وهنا يقول الرسول:

"فُربَّ مبلَّغ أوعَى من سامع"..

"ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه"..

"ومن دَلَّ على خير فله مِثلُ أجر فاعله"..

إن تبعات الرُشد التى يفرضها الإيمان بالله كثيرة ـ فإذا عجز إنسان عن إدراك بعضها، فإن ذلك لا يبرِّر له حضَّ الآخرين على أن يحذُوا حَذْوَه ويضعفوا ضعفه.. بل عليه أن يكون أمينًا على حقيقة الرُّشد، وعليه ألا يكتمها عن الناس، ويقدم إليهم بدلاً منها فلسفة عجزه وهواه، فإن فعل فقد أضاف إلى ضعف بُنيانه خيانة إيمانه..

هذا رسول الله يقول:

".. ومن أشار على أخيه بأمر علم أن الرشد فى غيره فقد خانه".

ويبلغ الإيمان ذروة مجده فى وعى الرسول حين تتبدَّى حقيقته.

وحقيقته أنه ليس تكليفًا للإنسان بقدر ما هو تكريم.

ومن عجب أن ذلك المعنى يكشف عنه ذلك الجانب الذى نحسبه نحن نقطة الضعف فى قضية الإيمان ـ ذلك هو الإيمان بالغيب.

فالإيمان بالله يتطلب عند الرسول الإيمان بالغيب، وهو عليه السلام يشخص ذلك الغيب فى الملائكة، والكتب المنزلة، والرسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

* .. "قال: فأخبرنى عن الإيمان..

قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكُتبه، ورُسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره".

أفى الإيمان بهذا، ما يضعف قضية الإيمان..؟

أنى، وكيف..؟

إن الذى يؤمن بالله لا يجد أية صعوبة فى الإيمان ببقية الأركان فالله ذاته غيب بالنسبة لوجودنا الحسىّ كله، بل هو سبحانه أكبر حقائق ذلك الغيب الرحيب.

فإذا آمنت بالله، وهو غيب، يصير من اليسير أن تؤمن ببقية الغُيوب..

وإن خير ما يحدد حاجة الناس إلى عقيدة دينية، هو الكشف عن مضمونها الإنسانى.

وأمام عقيدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث وبالقدر، نجد مضمونها الإنسانى تقدميًا إلى أقصى حدود التقدم.

* فالملائكة هم قوى الخير غير المنظورة.

* والكتب والرسل، هى قوى الخير المنظورة التى أدت دورها على أرضنا وبين صفوفنا.. أى هى التراث الإنسانى الحى النابض فى الأرض بكلمة السماء..

* واليوم الآخر، هو البعث بعد الموت.. وهو يعنى أن الإنسان أجَلُّ خطرًا، وأبقى ذكرًا من أن ينتهى بتلك الغيبوبة العميقة التى تأتيه فجأة فتنتزعه من وجوده؛ إنه أعظم شأنًا من أن ينتهى هكذا كالشهاب.. بل إن له لبقاء وخلودًا.

* والقدر يعنى أن الحياة لا تتخبطها العشوائية ولا الصدفة المبهمة.. بل يحكمها قدرٌ حكيم عليم لا حصر لقوانينه وشرايينه.

ويعنى عند الرسول حقيقة أخرى لها أهميتها التى لا تُضاهى، وهى أنه لا يوجد فى العالم كله، ولا فى الكون كله قوة تستطيع أن تقف فى طريق المشيئة الإلهية، أو أن تعرقل إرادة الله.

وهذا بدوره يعنى أن الإنسان الذى يمسك الله بمقاديره إنما يأوى إلى ركن شديد، وإنما تُسانده فى حياته قدرة لا تحدُّ ولا تُغلب.. وان كل خير يناله، وكل ضر يُصيبه، فإنه لا ينبغى أن يكون مثار زهوه، ولا مثار جزعه.

بل عليه أن يوطد إيمانه، ويُرعرع وجوده باحترام مشيئة الله والتسليم بحكمته فى نفس الوقت الذى يمارس فيه تبعاته، ويحمل أمانته وفق الأسباب والقوانين التى دُعِينا للسير معها وفى صُحبتها.

فالمضمون الإنسانى لهذا الإيمان يعنى أن الإنسان موضع تكريم عظيم..

* لأن الذى توضع على طريق تقدمه قوى الخير المنظورة كالمرسلين، وغير المنظورة كالملائكة، تهديه وتشد أزره..

والذى لم يُخلق ليفنى كما تفنى الهوام، بل خلق ليبقى، ويستأنف حياته فى خلود أبدى لايؤذن أبداً بانتهاء.. لا يمكن أن يكون إيمانه بهذا مدعاة لتخلفه وتقهقره.. بل هو يحفزه إلى ملء حياته الدنيا بالخير والتفوق حتى يؤهله ذلك لاستئناف حياته بعد الموت فى مُستوى رضىً وعظيم..

وهكذا يبدو الإيمان بالله، وبالغيب قوة تقود آمال البشرية نحو مصيرها الأفضل والأمثل.

وهكذا يرى الرسول فى هذا الإيمان مصدر تكريم وتمجيد للإنسان.

* * *

والإيمان والعمل عند الرسول مسئولية عَيْن، لا مسئولية كفاية.. أى أنهما تبعة الوجود لكل فرد بذاته.. لايغنى أحد عن أحد بإيمانه وعمله.

"يا معشر قريش، لا يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، تقولون: يا محمد.. يا محمد.. فأقول هكذا"..!!

وأشار بيده إشارة معناها فأعرض عنكم..!!

ولقد أكرمه عمه أبو طالب إكرامًا عظيمًا، ودافع عنه ما كان حيًا دفاعًا مجيداً، وامتدح دينه جهرة فى شعر تحدى به كفار قريش.

وكان بود الرسول لو يستطيع أن يشفع له عند ربه، لكن الله نهاه.

وإيمان الرسول الذى يكفى عالمًا بأسره، لم يُغن عمَه الأثير لديه شيئًا.

وهكذا، وقف الرسول يعلن فى أسف:

"يا عم النبى محمد، لا أغنى عنك من الله شيئًا"..!!

* * *

ألا إن أروع ما تتلقى الحياة البشرية من دروس، لهو هذا الدرس.

* الإيمان الحق، والعمل الصالح تبعة الوجود ـ كل وجود ـ

* لا مُحاباة فى موازين الله.

"يا فاطمة بنت محمد..

"يا صفية بنت عبد المطلب، وعمة رسول الله

"اعملا لأنفسكما، فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئًا"..!

ذلك لأن الإيمان فطرة.

والفطرة هى إرهاصُ الحقيقة فى كل نفس وقلب.

والفطرة لابد أن تعمل لكى تعطى بناءها الروحى تكامُله واستمراره.

وكما ينتهى الجسد، وينزل به الموت إذا كفَّ القلب عمله.. كذلك ينزل العطب بالروح إذا كفت الفطرة عن عملها.

وهذه الفطرة لا يراها الرسول أسطورة، أو رمزًا مُبهمًا.. بل هى البصيرة التى أودعها الله أفئدة عباده، وهى بالتالى حجة الله على خَلْقه.

من أجل ذلك فهى فطرة ذكية وعليمة، وهى لا تستمد منطقها وحجتها من وراء الحِسّ.. بل من قلب الكون تستمدُّهما.. ومن نماذج الحس والمادة تستنبطهما.. من الزهرة.. من الصخرة.. من القطرة.. من الأنملة والبنان.. من السحاب والرعد والبرق.. من اختلاف الليل والنهار.. من الحياة.. من النمو.. من الموت والبلى.. من القول والصمت.. من الناس، والدوابُ والشجر، والأنعام.. من الشمس، والقمر، والنجوم..!!

من هذا الكون الذى لابد أن يكون له خالق تستمد الفطرة منطق إيمانها بالله.

وهى لا تلجأ إلى معرفة الله عن طريق شخصه، فليس لله سبحانه شهادة ميلاد ولا بطاقة شخصية..!! إنما تعرفه جل وعلا عن طريق آثار رحمته وقدرته وعظمته.

وهكذا نرى الرسول يقول:

"تفكَّروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى الله فتضلُوا".

إن الإيمان بالله لا يعرف عند الرسول طريقة الفضول والتطُّلع فى البحث عن حقيقته.

وحين تنتفض فى النفس نوازع الفضول الضالّ لتسأل عن الله ما هو؟ ومن أين..؟ وكيف..؟ ومتى.. فإن الرسول لا يدعو ضحايا هذه النوازع لأكثر من أن يُديروا حِدقَ أبصارهم وبصائرهم شطر آثار القدرة الإلهية.. شطر هذا الكون المذْهِل، حيث يرون الله

فى كل معجزات الكون.. وفى كل ذرا ته..!!

وعندئذ سيهتفون مع الرسول:

"اللهم أنت السلام..

ومنك السلام..

تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام"..!!

"لا إله إلا الله..

ولا نعبد إلا إياه..

له النّعمة..

وله الفضل..

وله الثناء الحسن..

"لا إله إلا الله..

مُخلصين له الدين

ولو كَرِه الكافرون.."

* * *

ولما كان الإيمان بالله فطرة..

ولما كانت الفطرة تُنمِّى نفسها وتُربى يقينها بالله عن طريق المعرفة والتأمل..

من أجل ذلك لم تكن الشكوك المناوئة للإيمان تشكل عند الرسول إثمًا ولا خطرًا..

وهذه من أعظم نظرات النبوة حصافة وبرًا، فالشكوك التى تُراود العقل أو الوجدان فى إلحاح.. والتى تزحَمُ النفس بعلامات استفهام حائرة.. والتى تحاول أن تُجلِى الإيمان عن مكانه فى أفئدة المؤمنين.. هذه الشكوك لا يراها الرسول إلا دليلاً على حيوية الإيمان وشبابه.

يروى ابن مسعود رضى الله عنه هذا النبأ عن بعض أصحاب رسول الله فيقول:

"قالوا يا رسول الله، إن أحدنا ليجدُ فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حُممه أو أن يخرَّ من السماء إلى الأرض، أحب إليه من أن يتكلم به.. فأجابهم الرسول قائلاً: ذلك مَحْض الإيمان"..

وفى رواية أخرى للحديث قال الرسول:

"أوَقدْ وجدتموه ـ يعنى حديث النفس المنطوى على الشك ـ أوَقدْ وجدتموه..؟ ذلك صريحُ الإيمان"..!!

وفى رواية ثالثة يقول الرسول:

"الحمد لله الذى ردَّ كيد الشيطان إلى الوسوسة"..

فهذه الشكوك ليست إلا وسوسة لا تصيب من الإيمان مقتلاً، بل تشحذ قوى الحياة فيه وتملأ شرايينه يقظة وعافية..!!

وهذا الموقف من الرسول عليه السلام تجاه الشك، يمثل أعظم خدمة تؤدَّى لقضية الإيمان، إذ أراح النفس البشرية من معاناة هذه الشكوك التى لابد منها.. وبدلا من أن يجعل منها خصمًا عنيدًا يستنفدُ الإيمانُ طاقته فى مقاومتها ـ جعلها عليه السلام جزءًا من عملية الإيمان ذاتها.

"ذلك مَحْض الإيمان"..

وبذلك يخسر الشك المعركة فى لحظة واحدة، وإلى الأبد.

كما أن هذا الموقف يمثل الإيمان الراسخ للرسول.. بأن الإيمان بالله فطرة، وأن هذه الفطرة المؤمنة لا تتجرع الإيمان وإنما تحياه فى بداهة لتطمس أمامها كل محاولات الزيغ والضلال.



الفصل الثالث

عن أزمة الإنسان



للوجود الإنسانى أزمة.. نشأت معه، وتطوّرت، ولا تزال تصاحبه وتُواكِبه.

وهذه الأزمة تتناول الوجود الإنسانى كله عند الفلسفة، وتتناول بعضه عند الدين.

فالإيمان بالله، الذى يشكّل لدى الفلسفة جزءًا هامًا من أزمة الإنسان، ليس عند الدين وعند المرسلين إلا مفتاحًا للأزمة الإنسانية كلها، وعلاجًا شافيًا منها.

من أجل ذلك، وحين نتتبع أحاديث الرسول التى تعرضت لأزمة الإنسان، لا نقف عند أزمة الإيمان بالله، لأنها لا وجود لها كأزمة فى هذا المجال.

إن الإيمان ـ عند الرسول ـ هو كما قلنا فى الفصل السالف، فطرة تهدى لحقيقتها بنفسها.

وحتى حين تتعرض هذه الفطرة لإلحاحات الشك ـ وهو من وجهة نظر الدين ـ الموقف الوحيد الذى يمكن أن يجعل من قضية الإيمان أزمة إنسانية ـ نقول حتى حين يحدث ذلك، فإن علاج هذه الحالة عند الرسول هو أن تستأنف الفطرة نفسها، غير عابئة بهذا الشك، وغير واقفة عنده، ولا متلكّئة بجانبه.

ذلك لأن هذا الشك لا يمثل أزمة، ولا خصومة ـ إنما هو عند الرسول وكما ذكرنا من قبل، ردّ فعل لحركة الإيمان وحيويته.

وإذا حدث أن شكّل هذا الشك أزمة، فإن ذلك يكون من صنع الإنسان نفسه.. من صُنع العقل الذى استضاف هذا الوهم العابر، ومضى يُقيتُه ويُغذيه، حتى جعل منه فلسفة ومنهجًا وأزمة..!!

أما الرسول عليه السلام: فيدحَرُ ضراوة الشك تمامًا حين يجعله "صريح الإيمان" و "محض الإيمان".

وطبيعى أنه لا يجعل الشك ذاته محض الإيمان إنما يقصد شعورنا به.

فإذا انتهى شعورنا بالشكوك العارضة عند هذا الإدراك السديد بأنها لا تشكل أدنى

خطر على الإيمان، وأنها ليست موضع مؤاخذة عند الله، فإن هذا كفيل بأن يُلغى الشك كأزمة ويحيله إلى رصيد للإيمان.

إن كل فطرة فى ملكوت الله، وفى كونه المملوء بالأسرار المذهلة، لترتدّ إلى صاحبها حاملة إيمانًا فطريًا صادقًا بأن الصدفة لم تشد هذا البناء العظيم، وإنما لهذا الكون خالق، هو رب العالمين.

أما أزمة الإنسان مع الغَيب، فقائمة سواء كان هذا الغيب مصيره، وما بعد موته من عُقبى.. أم كان قدرًا سبق به الكتاب وأنيط بالإنسان إنجازه.

وأحسب أن أحاديث الرسول وهى تواجه مسائل المصير والقدر، كانت تُبصر وتُحس معاناة الإنسان هذا الجانب من الإيمان.

إن أحاديث الرسول فى هذا المجال تتحرك وكأنها تواجه أزمة، أزمة فكر وشعور، يُحسُّها الرسول عند الآخرين، ويسمع همسها داخل ضمائرهم، وتتبدّى فى حديث المؤمنين عنها، واسئلتهم حولها.

فكيف واجهت أحاديثُ الرسول وهديه أزمة الإنسان مع مصيره وأزمته مع قدره..؟؟

إن روعة المصير تتمثل عند الرسول فى البعث بعد الموت ولكن كيف يموت الناس وكيف يبعثون، ولماذا..؟

هنا فى يُسر فذ وبَدَاهَةٍ محكمة يجيب الرسول:

"لتموتنَّ كما تنامون..

ولَتُبعثن كما تستيقظون..

ولَتجزَوُن بالإحسان إحسانًا..

وبالسوء سوءًا"

هذه هى القضية فى غير تأزُّم أو تعقيد..

كما ننام، نموت.

وكما نستيقظ، نبعث.

وكأن النوم واليقظة تذكير يومى بالموت وبالبعث.. وتدريب يومى عليهما..!!

إننا حين ننام نغيب عن الحياة.. وحين نستيقظ نستأنف الحياة.

فالموت والبعث كذلك.

بيد أن الموت هنا غياب طويل، وانتقال إلى مستوى آخر من الحياة.

ولماذا ..؟

ليجد المحسن مَثوبة إحسانه.

وليجد المسيء عاقبة عدوانه.

وليستأنف الناس الحياة هناك - كل في المنزلة التي أعدها لنفسه أثناء مقامه في دنياه.

ولكن كيف يبعثون.. هؤلاء الذين تحولت أجسامهم إلى رماد..؟

يجيب الرسول عليه الصلاة والسلام حين وقف بين أصحابه ذات يوم خطيبًا فقال:

"يا أيها الناس.

إنكم تحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً، غُرلاً - كما بدأنا أول خلق نُعيده، وعدا علينا إنا كنا فاعلين".

أجل، هكذا أنبأه القرآن العظيم.

"كما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ".

و "ما خَلقكم ولا بعثُكُم إلاَّ كَنفسٍ واحدةٍ"

و "قال من يُحيى العظامَ وهى رَميمٌ.؟؟

قُل يُحييها الذى أنشأها أولَ مَرَّةٍ" ..!!

فالقضية عند الرسول في منتهى اليسر.

وإذا ما سئل:

- كيف يُبعث حيّ من حفنة رماد..؟!

يجيب سائلاً:

- وكيف يُخلق حيّ من قطرة مَنيّ..؟!

. إننا ندفن في الأرض بذرة جافة.. حبة ذرة مثلاً، أو حبة قمح، فإذا بها تنتفض حياة وتنبثق من تحت التراب شجرة تهتز خضرة وعنفوانًا.

هذا المشهد يمثل عند الرسول أصدق براهين البعث والحياة الأخرى.

سئل عليه السلام هذا السؤال:

"يا رسول الله: كيف يعيد الله الخلق..؟

فأجاب السائل قائلاً:

"أما مررت بوادى قومك جدبًا، ثم مررت به يهتزُّ خضرًا ..

"فتلك آية الله فى خلقه، وكذلك يُحى الله الموتى"!!

وليس شرط البعث أن يبعث الموتى بنفس جلودهم الأولى وأشعارهم وأظفارهم.. بل المهم فيه هو أن الفرد الإنسانى الذى جاء الحياة وعمل بها وعاش أيامها، لن يكون الموت ختام نشاطه ووجوده، بل إن له لبعثًا آخر فى حياة أخرى.

ذلك أن الرسول يؤمن بأن الإنسان روح وجسد..

والروح لا تفنى.. بل ولا تموت.

وهذا الروح هو جوهر الإنسان، وجوهر بعثه كذلك.

"إنما نَسمة المؤمن طير يَعلَقُ فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم بعثه". هكذا تحدث الرسول..

على أن أزمة المصير الإنسانى بالنسبة للفرد إنما تتركز مَهُولة ومخوفة فى الموت نفسه.. هذا الحادث البيولوجى الذى نهتز منه رُعبًا وفرقًا.

وعلى الرغم من أن شمول المأساة يخفف من وقعها، فالموت رغم شموله جميع الأحياء من بدء الحياة إلى مُنتهاها - لا يزال الهول الذى يبعث فى حياتنا الجزع والألم.

وكل محاولة لحل أزمة مصيرنا - تخفق لا محالة إذا هى عجزت عن تفسير الموت تفسيرًا يطمئننا ويجعل بيننا وبينه جوًا من الثقة.

ولقد واجهت أحاديثُ الرسول ظاهرة الموت على النهج الذى يزيل عنه ضراوته ويأسه.

فهو أولاً - ليس فناء مطلقًا لا يلتقى بعده الأهل والأحباب بل هو انتقال يتلوه لقاء وخلود.

وهو كحادث عضوى ليس محنة لروح الإنسان الطيب الصالح.

بل يحكى لنا الرسول صورة الموت للذين عاشوا حياة خيِّرة فيقول:

"إذا حُضِرَ المؤمن أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء.

فيقولون: اخرجى راضية مرضيًا عنك إلى روح وريحان.. ورب غير غضبان..

فتخرج كأطيب ريح المسك.."

ولقد قال له بعض أصحابه يومًا :

"يا رسول الله، إنا لنكره الموت".

فأجابهم عليه الصلاة والسلام:

"ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشّرَ برضوان الله وكرامته؛ فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامهُ فأحَبَّ لقاء الله، وأحبَّ الله لقاءه".

وإنه لمن الطبيعي أن تكون هذه الصورة المريحة للموت مثوبة المؤمنين والطائعين.. ومع ذلك، فإن الرسول عليه السلام يرجو نفس المصير الطيب لكل أولئك الذين يرجون رحمة الله ويخافون خطاياهم.

هذا "أنسٌ" صاحبُ رسول الله يقول:

"دخل النبى على شاب وهو فى الموت، فقال: كيف تجدُك..؟

فقال: أرجو الله، يا رسول الله وأخاف ذنوبى..

"فقال ﷺ : لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنهُ مما يخاف".

ويرسل الرسول رياح التفاؤل رُخاء مُطمئنة، ويبث الرجاء فى الله والأمل فى رحمته بثًا رحبًا فيقول:

"من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة".

فإذا عرفنا أن كل إنسان فى ساعة احتضاره يتطلع قلبه إلى عَون الله ورحمته، وأنه يتجه شعوريًا، ولا شعوريًا إلى الله مؤمنًا به، مبتهلاً إليه، شأنه فى ساعات عسرته كلها.

إذا عرفنا ذلك تصورنا الباب الذى يفتحه الرسول للأمل فى رحمة الله ساعة لقائه، وبعد لقائه.

هكذا تواجهُ أحاديث الرسول أزمة المصير مواجهة تبعث الأمن، وتهب السكينة، وتجعل الغيب صديقًا وأنيسًا..!

فكيف واجهت أزمة وجوده..؟ أزمته بين قدره واختياره..؟؟

* * *

إن القدر باعتباره السُّنن التى جعلها الله قيامًا للكون وللأشياء تنظم سيرها،

وتحكم نشاطها ، لا يسبب أية أزمة فى فكر الإنسان ولا فى شعوره..

ولكن القدر بوجهه الآخر، أى باعتباره قوة غيبية تتحكم فى خطوات الإنسان وسعيه، هو الذى يمثل جانبًا من أزمة الإنسان.

وهذا المفهوم للقدر ميراث إنسانى.. لا يذهب إليه ولا يتأثر به المتدينون وحدهم.. بل وكثيرون سواهم من غير ذوى الدِّين.

والذى يشكل أزمة فى هذا المفهوم، هو ـ أولاً ـ وضع النتيجة قبل السبب و ـ ثانيًا ـ إلغاء الاختيار الإنسانى..

ونبدأ فنقول: إن القدر بمفهومه هذا ، أى باعتباره حُكمًا مسبقًا على حياة الإنسان وسعيه ومصيره، قد اعترفت أحاديث الرسول بوجوده.

"لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه" .

ويروى "أنس" رضى الله عنه هذا النبأ:

"كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: يا مُقلب القلوب ثبت قلبى على دينك،

فقلنا : يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ..؟؟

"قال: نعم، إن القلب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء" .

ولكن إلى أى مدى يتعارض الإيمان بالقدر على هذه الصورة مع الاختيار الإنسانى الذى لابد من توفره لكى يصبح الإنسان مسئولاً..؟؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تكشف عن مكانة الاختيار فحسب، بل وتساعد على كشف المفهوم الإنسانى المتطور لعقيدة القدر.

وإنا لنلتقى بالإجابة عن السؤال فى أحاديث الرسول على مرحلتين:

أولاهما : تُطالب المؤمنين بألا يجعلوا من القدر موضوع جدل فلسفى تكثر فيه المزالق وتنمو معه ضراوة المراء.. فالقدر بصورته تلك نوع من الغيب، وأولى صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب..

وإيمانهم بالغيب ليس دليل تخلُّف.. بل سِمَة تفوُّق.. لأن كل تفكير متفوق مستنير لا يرضى لنفسه أن يحجر على المستقبل، ولا على ما لم يعلم بعد من أسرار الكون والحياة.

فلا تنازُع إذن حول القدر فى شِرْعَة الرسول..

"خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، كأنما فُقِئ فى وَجْنَتَيْه الرُمان، وقال أبهذا أمِرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم..؟

"إنما هَلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر، عَزَمْتُ عليكم ألا تنازعوا فيه".

أما المرحلة الثانية: وهى امتداد للمرحلة الأولى، فهى تشرح المفهوم الإنسانى والواقعى للقدر. وفيها يطالب الإنسان بالعمل، وحمل مسئوليات حياته كلها، ليس ذلك فحسب ـ بل والإيمان بالسبب والنتيجة باعتبار العلاقة الحتمية بينهما صورة من صور القدر ذاته:

سأل الصحابة رسول الله يومًا:

"يا رسول الله. أرأيت أشياء نتداوى بها.. هل تردُّ من قدر الله شيئًا..؟

فأجاب عليه السلام: هى من قدر الله.."

إن العلاقة بين النتائج وأسبابها، والتى تمثل أهم قوانين الحياة الإنسانية، تأخذ مكانها إذن لا كشىء خارج عن القدر، بل كوجه من وجُوهه.

ويحكم الرسول الربط بين الأسباب والنتائج حين يجعل الحجر الطبى ـ مثلاً ـ واجبًا فيقول عليه السلام:

"إذا سمعتم بالطاعون بأرض، فلا تدخلوها.. وإذا وقع بأرض وأنتم فيها، فلا تخرجوا منها".

وحين نتتبَّع أحاديث الرسول وتوجيهاته، نجد المطالبة بالعمل وإقرار المسئولية الشخصية واضحين، يناديان الناس فى جهرة وبيان..

والمثوبات المترتبة على العمل الصالح، والعقوبات المترتبة على العمل السيىء.. كل ذلك ينطق به موكب طويل من أحاديث الرسول.

فهل تقرر هذه الأحاديث مسئولية الإنسان، فى الوقت الذى لا تؤمن فيه بوجود مبررات هذه المسئولية.؟؟

بداهة، لا..

إذن فكيف يحل هذا التناقض بين كون الإنسان منفذًا لأحكام قدر مكتوب،

ومختاراً في نفس الوقت لأعماله ثم مسئولاً عنها..؟

إننى أضع السؤال على هذا النحو، لأن المتحدثين فى مسألة القدر تعوّدوا أن يصوغوه كذلك.

لكنى أعترف بأن وضع السؤال هكذا، يبعدنا عن الفهم الصحيح للمسألة، ويُدنينا من الجدل العقيم الذى لعلّ الرسول كان يقصده حين نهى أصحابه عن التنازع فى القدر.

وأحسب أن المسألة توضع وضعًا سديداً وصحيحًا حين يُجعل السؤال عنها هكذا.

- ما دامت كل أحاديث الرسول تؤكد اختيار الإنسان ومسئوليته فما مغزى الإيمان بوجود قدر..؟

ونجيب في ضوء أحاديث القدر نفسها، بأن مستوى هذا الإيمان ووظيفته - شحذُ كل طاقات الإنسان، - وإنهاض قوى الاقتحام والمخاطرة لديه.

لأن الإيمان بالقدر لا يقول له: نَمْ، وانتظر قدرَك.. بل يقول له: قُم، واكتشف قدرَك..

أجل، فإذا كان قدر كل منا يرادف مستقبله المغيَّب المجهول أعنى إذا كان المستقبل المغيب قدراً مكتوبًا، فاكتشاف هذا المستقبل قدر أيضًا.

وإن الرسول ليربط ربطًا محكمًا بين عملنا كقدر، وغيبنا كقدر حين يقول:

"اعملوا، فكل مُيَسَّر لما خُلق له".

إن فى هذا الحديث مذاقًا آخر للقدر، فالقدر ليس ما يعتاقك عن العمل. بل هو قوة تُيَسِّرك للعمل وتيسِّر لك العمل.

إن الإيمان بالقدر يعنى أن تنهض قائمًا إذا أصابتك مصيبة، وألا تَجترّ مرارتها؛ لأنها قدر لم يكن من تلافيه بُد..

إن معنى إيمانك بأنه لم يكن من تلافيه بد، أنه لا فائدة من أن تستهلك أعصابك فى الندم واجترار الغُصص والمرارة، وإفناء عمرك فى: "لو أنى فعلت.. ويا ليتنى لمأافعل.."

إن الإيمان بالقدر يقول لك ساعتئذ.. قم.. انهض.. حذار أن تتحول إلى حُطام.

إن الله معكَ، وإذا كان أصابك هذا الضرُّ بما كسبت يداك، فعند الله مفاتحُ الغيب ومغانِمُ العوض..

لنسمع حديث الرسول هذا:

"المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خير..

احرص على ما ينفعك.. "واستعن بالله ولا تعجز..

"وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا، لكان كذا وكذا، ولكن قل:

قَدَّرَ الله، وما شاء فعل".

إن هذا الصوت المبارك الذى ينادى الإنسان قائلاً:

احرص على ما ينفعك

واستعن بالله، ولا تعجز

إن هذا الصوت ليشرق من خلال رنينه وكلماته أصدق معانى القدر وأجلُّ مرامى الإيمان به.

فالحرص على ما ينفعك، هو حرص على قدرك، وهو نقل هذا القدر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، والتطبيق.

إن الإيمان بالقدر.. هذا الإيمان الذى يتكامل بحتمية العمل واعتباره مساويًا فى الأهمية والوجوب للإيمان بالله.

الإيمان بالقدر على هذا الوضع - وهو وضعه الصحيح - لا يعنى إلا تزويد الإنسان بكل قوى الغَلب والتفوُّق.

إن يقينك بأن تحويلاً ماليًا ضخمًا ينتظرك فى البنك.. وأنك لن تناله إلا إذا انتقلت بنفسك دون نائب أو وكيل لتأخذه وتتلقاه..

هذا اليقين لن يجعلك تتثاقل عن الذهاب أو تنام قرير العين منتظرًا أن تطرق النقود بابك بل ستَحْفِزُك إلى الحركة المغتبطة والسعى المشتاق إلى حيث ينتظرك المال.

إن هذه صورة مُبسطة للموضوع، فإيمانك بأن قدرك لن يخطئك.. وأن سعيك وعملك لإدراك هذا القدر محتومان حتمية القدر نفسه، إيمانك هذا لن يثبط عزمك، بل سيملأ حركتك بالأمل، ومَسعاك بالشوق.

وهكذا تحل أحاديث الرسول أزمة الإنسان مع القدر.

احرص على ما ينفعك

واستعن بالله ولا تعجز

* * *

بعد ذلك تجيء ضمن أزمة الإنسان أفدح وأهم أنواعها - تلك هى أزمة سُلوكه..

ولسنا نعنى السلوك بمعناه الوعْظِى، ولا بمعناه الأخلاقى المدرسى.. إنا نعنى معناه الأعم والأرحب: نعنى معناه الإنسانى كله، الذى يمثل موقف الإنسان من كل علاقاته بنفسه، وبالحياة، وبالأحياء جميعًا:

فإذا كانت الحياة الإنسانية فى كل جملتها لا يستقيم لها أمر إلا إذا استقامت علاقاتها التى تربط بين قواها المختلفة ووحداتها المتباينة؛ فإن الفرد الإنسانى كذلك لا يستقيم لحياته أمر، ما لم يسر وفق دستور تلك العلاقات.

وعلى الرغم من أن العلاقات الإنسانية تمثل معراج التفوق الإنسانى فإنها فى نفس الوقت تمثل لُباب المعضلة وجوهر الأزمة ذلك أن كل زيف ينتابها يعكس نفسه فورًا على الحياة كلها وعلى من فيها..

وذلك ثانيًا، أنها من صُنع الناس. ومن ثم فهم يُضَمّنونها من أهوائهم ومكرهم ما يبعدها عن السَّداد والصدق، وصحيح أن الإرادة الخيِّرة للنوع الإنسانى تنتصر كثيرًا ولكنها مع الأسف ـ تنتصر أخيرًا، وبعد أن يكون الخطأ المتعمد قد أوقع أجيالاً كثيرة فى أخطبوط زائف يُطوق حياتهم.

إن نوع العلاقات الإنسانية، وحظها من الصدق الموضوعى أو الزيف المتطفل يُشكلان أخطر القوى العاملة فى حياة السلوك الإنسانى ـ رفعة وانحطاطًا.

والإنسان كنوع.. والإنسان كفرد.. كلاهما يشترك فى ذات المصير الذى تُفضى إليه تلك العلاقات؛ لأن كليهما يسير بنفس النهج وعلى نفس الطريق.

والعلاقات الإنسانية مُتنوعة ومتجددة، وإن كانت القيم التى تبثها هى دائمًا ثابتة وواحدة.

وكثيرًا ما تمد التقاليد فى عمر نوع من العلاقات استنفد حق وجوده.. وعندئذ يتعرض السلوك الإنسانى لبَلْبلة تبدِّدُ الكثير من رويَّته وسكينته ورشده.

من أجل ذلك، فإن واجب كل رسالة كبرى يجىء لتصحح أوضاع الحياة؛ ولتضع القافلة البشرية على طريق الهدى والخيرـ إنما يبدأ باحترام ضرورة التغيُّر والتطور..

وهكذا رأينا القرآن يشن حملات دائمة على الذين كانوا يُخلدون إلى الأرض، ويرفضون رُؤية الجديد ويقولون:

"إنَّا وَجَدنا آباءنا على أمَّة، وإنَّا على آثارهم مُقتدون"

ولقد كان أقسى ما عاناه الرسول من تمرُّد قريش راجعًا إلى عَضِّها بالنواجذ على

علاقات زائفة تربطها بعقائد وأصنام وتقاليد لم تعد لها فى حياة الرشد مكان.

وقف الرسول عليه السلام يقول للمؤمنين:

"أبغض الناس إلى الله تعالى ثلاثة:

* مُلحد فى الحرَم..

* ومُبْتَغ فى الإسلام سنة الجاهلية..

* ومُطَّلِبُ دم امرىء بغير حق ليُهريق دمه..

إن الإسلام جاء ليعلن إنهاء الجاهلية وبزوغ مرحلة جديدة تستأنف بها قوة الهدى والخير والتقدم طريقها.

فكل مبْتغ فى الإسلام سنة الجاهلية، إنما يزيف العلاقات الجديدة ويُزورها.

وإنها للفتة تناهت فى الذكاء والعظمة أن يضع الرسول هذا الذى يُحاول أن يُفرغ فى الإسلام ظُلمات الجاهلية وتقاليدها مع الملحد فى الحرم والمطارد حياة بريئة ليزهقها.

فالشَّبهُ بين الثلاثة تام ومتكامل.

فالتشبث بإقحام تقاليد ضالة على منهج الهدى والرشد، يشبه الإلحاد فى الحرم، وأيضًا تتمثل فيه جريمة المطاردة الظالمة لأجيال بريئة بُغية إزهاق حقها فى حياة جديدة وهُدى جديد..

ويقول عليه السلام:

"من سكن البادية جفا.. ومن اتبَع الصيد غفل".

فحتى من الناحية الشكلية، ينبغى أن تكون البيئة فى المستوى الحضارى لتقدم الإنسان تحت لواء القيم الفاضلة التى تهدى خطاه.

* * *

إن علاقاتنا بالأشياء يجب أن تكون دائمًا صادقة وصحيحة وهذه هى الخطوة الأولى فى حل أزمة السلوك الإنسانى وتناقضاته.

ومهما يكن من أمر تنوعها وتجددها فإن ثمة معيارًا لا يخطئ يجب أن تناط دائمًا إليه ـ ذلك هو الخير..

إن تحقيق الخير العام ينبغى أن يكون غاية السعى البشرى.

وكل فرد يصوغ أعماله وفق الخير، ويملأ نفسه بحب الخير، فذلك هو صاحب

العلاقات الصادقة الصحيحة .

وهنا نسمع الرسول يقول سائلاً أحد أصحابه:

كيف أصبحت يا زيد..؟

فيجيبه:

"أصبحت أحبُّ الخير وأهله، وإن قدرت عليه بادرت إليه، وإن فاتنى حزنت عليه، وحننت إليه..

فيقول الرسول عليه السلام:

"تلك علامة الله فيمن يريد..

أجل، إن هذا الطراز من الناس هو ما يحبه الله.

- الذين يحبون الخير وأهله.

فإذا أسعفتهم قدرتهم سارعوا إليه.

وإذا قعد بهم ضعفهم حزنوا عليه، واشتاقوا إليه.

هذه أصدق سمات ذوى العلاقات الرشيدة بالحياة.

وإن طريق كل فرد إنسانى يريد الغلب على أزمة سلوكه ليبدأ من هنا..

جعل الخير قبلة أعماله.

وحتى إذا انتابه القصور والتقصير، فإن الولاء المنطوى عليه قلبه للخير سيجعله دائمًا قريبًا من السداد وعافية الضمير.

ويضرب الرسول أمثالاً كثيرة لنماذج الخير كاشفًا بها عن النبض الإنسانى النبيل الذى يجعل العمل خيراً .

فلنأخذ منها هذا المثال:

"بينما رجل يمشى بطريق. اشتدَّ عليه العطش فوجدَبئراً ، فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث.. يأكل الثَّرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى، فنزل البئر، فملأ خفَّه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له، وغفر له" ..!!

وهناك رواية أخرى للحديث تجعل بطل القصة بغيًا .

فما هذا العمل الذى استأهل شكر الله ومغفرته..؟

إنه عمل يسير وهين.. ولكنه خير..

وفى هذا المثال الذى يضربه الرسول للخير نجد كل خصـائص الخـير.. فيـه روح النجدة التى لا تسأل: مَن..؟ ولا ما الثمن.. وإنما تلبى نداء الواجب الذى لا يتمثـل فـى كونه جليلاً، أو يسيراً، وإنما يتمثل فى كونه واجبًا لا غير..

حين يضع الناس علاقاتهم ببعضهم وبما حولهم على طريق الخير، فـإن حـظ هـذه العلاقات من الصدق والصواب يظل وافيًا.

إننا نعيش داخل حياة تعج بالضرورات وبالمغريات.

فهناك الثروة، والمنصب، والجاه..

هناك الفراغ.. وهناك العمل.

هناك الصحة.. وهناك المرض..

هناك الناس.. والأشياء..

هناك النظم.. والتقاليد.. والقوانين..

ثم هناك النفس برغباتها التى لا تقف عند حد.

وهناك العقل والغريزة فى سباقهما الأبدى.

وإن علاقاتنا بكل هذه الأشياء هى التى تحدد نوع سلوكنا ونوع حياتنا.

وهنا نلتقى برسول الله يقول:

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ".

هذا أول إخفاق وأخطره يواجه الإنسان فى علاقاته بالحياة.. ألا يحسـن استثمار صحته؛ واستثمار فراغه.. أن يغبن نفسه، فيبعثر صحته فى غير نفع.. ويبعثر فراغه فـى غير خير، فتتحول حياته إلى صفقة خاسرة..!!

من أجل ذلك يوصى الرسول فيقول:

خذ من شبابك لهرمك..

ومن غناك لفقرك..

ومن صحتك لسُقْمك.."

فنوع علاقاتنا وارتباطنا بالصحة وبالفراغ، بداية هامة لبناء الحياة.

وإن الوقت عند رسول الله ليتحول إلى صفقة رابحة إذا هـو مُلـئ بـأى عمـل نـافع لصاحبه وللناس ـ من أكثر الأعمال جلالاً وخطـراً، إلـى إماطـة الأذى عـن الطريـق، أو

التبسم فى وجه صديق.

والعمل الإنسانى عند الرسول يتمثل فى جهاد دائم بالنفس وبالمال فى سبيل الحق والخير.. فإن لم تكن ثمة قدرة على فعل الخير، فلا أقل من تجنب الشرّ.

سأله أعرابى يومًا:

"يا رسول الله، أىُ الناس خير..؟

فقال عليه السلام:

"رجل جاهد بنفسه وماله..

"ورجل فى شِعب من الشعب يعبد ربه ويدَعُ الناس من شَرِّه".

فعلاقتنا بالناس يجب أن تهدف دائمًا إلى إسداء الخير المستطاع لهم، وتجنيبهم كل شر من جانبنا.

وتنمو هذه العلاقة إذا مَارست دورها فى غير شعور بالاستعلاء على الآخرين الذين هم أقل توفيقًا وهُدى.

ذلك لأن العلاقة إذا انتابها هذا الشعور تحولت من غير أن يشعر صاحبها إلى شماتة وتعيير، وهما الحالقتان اللتان تحلقان كل عمل صالح، كما تحلق الموسى الشعر..

وهنا نسمع الرسول يقول:

"من عَيّر أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله".

ويقول:

"لا تظهر الشماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك".

إن تقدير الظروف التى تعمل فى الآخرين وتسبِّب ضعفهم ليست دلالة على فقه صاحبها وفطنته فحسب..

بل ودلالة على أنه يحمل قلبًا قد تفوّق على الزيغ والقساوة.

وتنمو هذه العلاقة بين الإنسان والناس، بنتيجة الفضول عنها..

هذا رسول الله يتحدث:ـ

"إن من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

ويروى "أنس" رضى الله عنه هذه الواقعة فيقول:

"توفى رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة..

فقال له الرسول: "وما يدريك..؟ لعله تكلم فيما لا يعينه، أو بخل بما لا ينقصه"..!!

إن الرسول لا يرفض هنا رجاء البشرى لإنسان ميت، ولكنه ينتهز هذا الموقف الحاسم ليلقى هذا التحذير الشديد من كل فضول شرير.

على أن ترك المرء ما لا يعنيه، لا يعنى أن يتخلى عن واجبه تجاه أخطاء الآخرين التى يستطيع تصحيحها.

فمن عناصر العلاقات الرشيدة بالناس وبالجماعة، التواصى بالحق.

يقول عبادة بن الصامت:

"بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم".

إن الرسول ليرى فى هذا التواصى شعيرة من شعائر الله وركنا تنهض فوقه الحياة.

"والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم".

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أحد مظاهر التواصى بالحق وبالخير:

وجدوى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليست ماثلة فى تقويم السلوك الإنسانى وحسب.. بل هى ماثلة بصورة أهم وأجل فى أنهما ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ خير وسيلة للمحافظة على قيم الحياة نفسها وإبعاد الزيف والتحريف عنها.

من أجل ذلك كان تعظيم المعروف، واستهجان المنكر فرض عين على كل فرد إنسانى ـ حتى هذا الذى يعجز أحيانا عن فعل معروف.. ويعجز أحيانا عن تجنب إثم ـ عليه أن يرفع صوته دائما بتحية الفضيلة، واستهجان الإثم.. لأن هذا سبيل محتوم لكى يبقى للقيم الفاضلة سلطانها وصدقها.

وكل صنوف العلاقات، إنما يحدد مصيرها علاقة المرء بنفسه.

هذه نقطة البدء تماما.

وإنا لنلتقى بكثرة من أحاديث الرسول تقول للإنسان:

"عليك نفسك"

"ابدأ بنفسك"

ولكن ليست أزمة الإنسان فى علاقته بنفسه أن يبدأ بها أو لا يبدأ.. فكل إنسان يعرف أنه لابد أن يبدأ بنفسه.. إنما الأزمة هى نفسه ذاتها.

وأحاديث الرسول عليه السلام فى هذا المجال تحدد لنا معالم الأزمة السلوكية للنفس الإنسانية.. حيث تتمثل فى:

* الخواء الذى يوحشها عندما تفقد إيمانها..

*اليأس الذى ينهشها عندما تفقد سلطانها على نزعاتها.

* التردى الذى يحيق بها عندما تبالغ فى الفعل، أو تبالغ فى الترك. أى عندما تكون مفرطة فى الخير.. أو مفرطة فيه.

* الحرب الأهلية التى تعانيها حين يفقد العقل والغريزة السلام والتفاهم، وتتحول النفس بينهما إلى أرض قتال..!!

* * *

فأما الخواء والفراغ، فقد عولجت أزمة النفس الإنسانية منهما بالإيمان.

هذا الإيمان الذى يراه الرسول فطرة مستقرة فى ضمير كل إنسان يولد.. والذى يملأ النفس بحلاوته أمنا ورجاء وقوة.

* * *

أما اليأس والقنوط، فلا ينجبهما شيء مثل ما ينجبهما استحواذ الخطأ والرغبات الآثمة على النفس.

هنالك تفقد النفس سلطانها على أمرها، وثقتها بقوتها.. ثم يضعف أو يزول أملها فى النجاة، وآنئذ تصاب بشر ما يمزقها.

والرسول عليه الصلاة والسلام، يدرك تمام الإدراك أى خطر ماحق يلده اليأس ويدمر به الأنفس.

وإن أحاديثه وتوجيهاته لتدحض كل استسلام لهذا الموقف.

وسبيله لهذا أن يذكر النفس بأن الأمر كله لله.. وأن أبواب رحمته وفضله لا توصد أبدا !!

فلنصغ إلى حديثه هذا:

"يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد.. ومن جاء

بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر".

ثم يحدث أحاديث مفيضة عن مغفرة الله ورحمته فيذكر الناس دائما بأنها أوسع من ذنوبهم وأكبر من خطاياهم.

فذات يوم يبصر الرسول ومعه أصحابه، أما قد ضمت طفلها إلى صدرها في رفق وحب ورحمة.. فيسأل أصحابه:

"أترون هذه طارحة ولدها في النار..؟

فيجيبون: لا، والله.

"فيقول عليه السلام: الله أرحم بعباده من هذه بولدها".

ويمعن الرسول في إقناع النفس برحمة الله الواسعة.. ويضرب لها مثلا حسابيا فيقول:

إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة ـ بين الجن والإنس، والبهائم، والهوام ـ فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة".

هذا هو المثل البليغ الذي يصور به الرسول رحمة الله سبحانه.

فلو افترضنا أن رحمة الله مائة جزء فإن كل مظاهر الرحمة في الأرض إنما هي جزء واحد.. وثمة تسعة وتسعون جزءا يرحم الله بها عباده، ويضمد بها جراحهم..

وهذه لوحة أخرى يضمنها الرسول صورة عذبة باهرة لرحمة الله.

"يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا.؟

أتعرف ذنب كذا..؟ فيقول: رب أعرف، فيقول الله له: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ويعطى صحيفة حسناته".

* * *

في واحة من الأحاديث، رحبة مزهرة كورود الربيع ـ صور الرسول رحمة ربه وأفاض في وصفها، قائلا للنفس البشرية لا تقنطي من رحمة الله. ولا تفقدي أبدا يقينك بقدرته

على انتشالك من الوحل، وتطهيرك من الإثم، وإلباسك لباس التقوى. وتتويجك بالرحمة والمغفرة والمثوبة.

وصحيح أن الرسول خوف النفس الآثمة من عذاب الله.

وكان لابد أن يفعل.. فليست أزمة النفس ولا مأزق الحياة فى أن للشر عقابا.. بل تكون الأزمة والمأزق لو لم يكن ثمة طريق للعودة إلى الخير وإلى الرحمة مفتوح على أوسعه أمام النفس.

وإن الرسول ليؤكد وجود هذا الطريق.. يؤكد أن الله أكثر شوقا إلى عباده الذين أبعدتهم الخطيئة عن رحابه وأنه يبسط إليهم يمينه - وكلتا يديه يمين - ويدعوهم إليه.

"إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل".

صورة حلوة لحنان الله وحرصه على عباده.

ويحكى الرسول عن الله عز وجل هذا الحديث:

"يقول الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى"..

فمن حيث علاقة النفس بالله حين يغلبها على أمرها أى خطأ أخلاقى، يفسح الرسول دائرة الأمل فى الخلاص فيخبر أن العثرات والأخطاء ليست الحساب الختامى لرصيد سلوكنا.. بل إن المستقبل مليء بفرص الخير.. وليست العبرة بالبدايات وحدها.. بل وبالنهايات قبلا.

وهنا يقول عليه السلام:

"إنما الأعمال بخواتيمها".

* * *

بيد أن الرسول لا يكتفى بهذا فى طمأنة النفس ودعم ثقتها بذاتها ومعاونتها على تخطى اليأس الناجم عن تورطها فى الخطأ، بل إنه ليسلك لهذه الغاية الكريمة سبيلا أخرى.

وسبيله هذه المرة أن يضع الأخطاء الأخلاقية فى مكانها الصحيح.. فهى ليست

القوى المارقة التى تصرع الإنسان نهائيا.. بل هى إفراز طبيعى للنشاط النفسى.. يشبه تماما الإفراز الطبيعى لنشاطنا الفسيولوجى.

وكل إنسان عرضة لأن يأثم ويخطئ.

والذين لا يأثمون ولا يخطئون قط هم الموتى وحدهم، لسبب يسير، هو أنهم لا يتحركون.

ويوضح الرسول هذا المعنى ويؤكده توكيدا يكشف عن إدراكه للأهمية القصوى التى يرتبها على اقتناع الناس به.

فيقول عليه السلام:

"والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم"..

بداهة، وأكثر من البداهة، أن الرسول لا يرد أن يحض الناس بهذا على أن يجعلوا الذنوب ضمن هواياتهم..!!

إنما هو يكشف عن حقيقة حية، هى أن الناس لا ينبغى أن يضيفوا إلى أخطائهم، اليأس من محو الأخطاء.. ولا اليأس من رحمة الله وقدرته على تبديل سيئاتهم حسنات.

ويزيد الرسول الأمر وضوحا حينما ينظر إلى الخطأ، كفرصة يتيح لصاحبه إذا هو تفوق عليه، تجربة غنية بالموعظة والنفع، فيقول عليه السلام فى حكمة بالغة ومشرقة:

"لا حليم إلا ذو عثرة.. ولا حكيم إلا ذو تجربة".

بهذا تحل نصف الأزمة.. أزمة النفس فى مجال السلوك الإنسانى.

وبهذا يهيئها الرسول عليه السلام للعمل الصالح، وهنا يجئ دور الآفتين: الثالثة والرابعة اللتين أشرنا إليهما من قريب.

وهما المبالغة فى العمل.. أو المبالغة فى ترك العمل.. والصراع بين العقل والغريزة صراعا يشعل فى النفس حربا أهلية.

وهاتان الآفتان وثيقتا الصلة، حتى لكأنهما آفة واحدة، وهما يشكلان نصف الأزمة.. وما كان الرسول عنهما غافلا.

فهو - عليه السلام - فى ضوء تقديره للطبيعة الإنسانية ولضعفها يدرك أن الاعتدال فى الطاعة لا يقل أهمية عن الطاعة نفسها.

وهو يعاون النفس البشرية على تخطى أزمتها، فيدعها لـترك التطرف فـى العمـل، حتى حين يكون هذا العمل عبادة.

* "إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق؛

* فإن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى".

"إن هذا الدين يسر..

ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه.. فسددوا، وقاربوا، وأبشروا.."

إن الإيغال فى العبادة ذاتها فى غير أناة وقصد قد يبعث فى النفس الملل.

والعمل حين يشوبه الملل يفقد الكثير من بهائه ونشاطه.

من أجل هذا يقول، عليه السلام:

"عليكم من الأعمال ما تطيقون: فإن الله لا يمل حتى تملوا".

والتطرف فى العمل يملأ النفس بالإرهاق الذى يجعل العمل يضطـرب بيـن يديـها ويتلعثم، ويأتى على غير وجهه السديد.

وهنا، ومن أجل هذا يزجر الرسول عن التطرف وينهى، حتى لو يكون العمل صلاة.

"إذا نعس أحدكم وهو يصلى، فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فـإن أحدكـم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه".

وحين يرى رجلا قد صام وهو مسافر يأمره أن يفطر ويقول:

"إنه ليس من البر أن تصوموا فى السفر، وعليكم برخصة الله عز وجل التـى رخص لكم فاقبلوها".

لعل أحدا، لا يتصور أن يذود رسـول عـن العبـادة إذا أوغلـوا فيـها ويـالغوا فـى المزيد منها.

بيـد أن الرسـول محمـدا عليـه السـلام خبير - وأى خبير - بالطبيعـة البشـرية وباحتياجاتها، وبحقها الكامل فى الروح والراحة.

وهكذا نسمعه يقول:

"إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا".

وهو لايرسل هذه التوجيهات إرسالا عابرا.. بل هو يعنيـها، ويعنـى أن يصـوغ بـها ومنها قانون العمل والعبادة.

ولا يتسامح مع أى عابد أو عامل يجعل المبالغة أسلوب عمله وعبادته.

ولنصغ إلى "أنس" رضى الله عنه يروى هذا النبأ.

"جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبى ﷺ يسألون عن عبادته.

"فلما أخبروا، كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبى ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

"قال أحدهم: أما أنا، فأصلى الليل أبدا..

"وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر..

"وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا..

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا، وكذا..

"أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد.. وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى".

* * *

إن العقل والغريزة. بل إن الطبيعة الإنسانية، بكل احتياجاتها وخصائصها لتبلغ فى هذه التعاليم الرشيدة تكاملها.

وإن الرسول ليوفق بين كل مطالب النفس توفيقا عادلا وحصيفا..

وطالما كان يقول لأصحابه:

"ساعة .. وساعة"..!!

أى أعطوا أنفسكم حقها فى العمل وحقها فى المرح.

اعملوا فى غير مشقة، وامرحوا فى غير تبذل.

والرسول عليه السلام يعلم أن الإنسان روح وجسد.. نور وطين.. وتلك هى أزمة الإنسان الكبرى ـ اصطراع الخير والشر، فى داخله، والسباق العاصف بين قوى الروح وقوى الجسد.

يرسم الرسول لهذا الصراع صورة، هذا معناها:

"ما منكم أحد يصبح إلا ومعه ملك يناديه: يا عبد الله هلم إلى الخير.. وشيطان يناديه: بل هلم إلى الشر".

وإن التركيب النفسى والجسدى للإنسان ليجعل الخطأ الأخلاقى إفرازا حتميا لا مهرب منه ولا مفر.

إن الاستقامة الكاملة المطلقة ليست من حظ البشر بحال.

وهكذا يقول الرسول:

"استقيموا، ولن تحصوا" ..

ولم يطمع الرسول أبدا، أن يتجنب الناس الخطأ بصورة تامة..

إنما أراد ألا يصروا على الخطأ.

فالإصرار على الخطأ، وليس الخطأ ذاته، هو آفة الإنسان.

ويرى الرسول أن قوى الروح غالبة مهما يكن تمرد النفس وثورة الجسد.

يقول "أنس" :-

"كنت عند النبى ﷺ، فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله، إنى أصبت حدا، فأقمه على، ولم يسأله، وحضرت الصلاة فصلى النبى ﷺ، فلما قضى النبى الصلاة، قام إليه الرجل، فقال: يا رسول الله: إنى أصبت حدا، فأقم فى كتاب الله تعالى، فسأله الرسول: أليس قد صليت معنا؟ قال: نعم.. قال: اذهب فإن الله قد غفر لك ذنبك".

فى هذا الأسلوب من معالجة النفس ومقاومة الإثم، يشير الرسول إلى عامل هام من عوامل التفوق الخلقى، هو ألا نقضى العمر فى اجترار الندم الذى يولد اليأس، بل علينا أن نضاعف من حسناتنا وأن ننمى فضائلنا ثم ندعها هى حين تنمو وتتكاثر تغطى أخطاءنا، وتلاشيها.

ليس الإنسان المستقيم عند رسول الله، من لا خسائر له..

بل هو الذى تفوق أرباحه خسائره..

هو الذى ترجح فضائله أخطاءه..

وإن هذه النظرة لتتشكل وتتجسد فى الميزان الذى يحدث عنه الرسول كأداة لفحص الأعمال وتقسيمها..

فطالما كان عليه السلام يذكر الناس بأن نجاتهم معقودة برجحان حسناتهم على سيئاتهم..

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها..

"قعد رجل بين يدى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى مملوكين يكذبوننى، ويخونوننى، ويعصوننى - وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم..؟

"فقال له الرسول: يحسب ما خانوك، وعصوك وكذبوك ويحسب عقابك إياهم.. فإن كان بقدر ذنوبهم كان كفافا، لا لك ولا عليك.. وإن كان دون ذنوبهم كان فضلا لك.. وإن كان فوق ذنوبهم اقتص لهم منك..

"قالت عائشة: فتنحى الرجل فجعل يبكى ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: أما تقرأ كتاب الله تعالى: "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا. وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين".

"فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لى ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار"..

إن التحليل النهائى لفكرة الميزان وصورته، ترسم الموقف الممتلئ فطنة ورحمة وسموا الذى وقفه الرسول من الطبيعة الإنسانية مقدرا تناقضاتها الهائلة، وداعيا الناس كما أسلفنا ألا يبنوا تفوقهم الأخلاقى على أنقاض معركة خاسرة يحاولون بها محو طبائعهم.

بل أن يجعلوا سبيلهم لهذا التفوق تنمية ما معهم من فضائل، حتى تكون حسناتهم أربى من سيئاتهم ونفعهم أكثر من إثمهم، وحتى تكون بواعث التفوق لديهم أسبق وأشد من نوازع التخلف والهبوط.. على أن تسير إلى جانب هذا محاولاتهم المعتدلة للجنوح عن الإثم.

وهنا يقول الرسول:

"وأتبع السيئة الحسنة تمحها".

* * *

وفى توجيهات الرسول بشأن أزمة السلوك هذه.. نجده عليه السلام يعطى أهمية بالغة لمبدأ - الوقاية خير من العلاج - وكلمة الوقاية، هى فى الاصطلاح الدينى التقوى.

ويرى الرسول عليه السلام أن الوقاية، أو التقوى خير سبيل لتفادى كل أزمات السلوك ومآزقه.

ولكن كيف تكون هذه الوقاية، أو هذه التقوى..؟ هنا نجد الرسول يقول:

"لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذرا مما به بأس".

إذا كانت أولى مراحل التقوى والوقاية، تبدأ من ترك ما به بأس.. فإن تمام هذه التقوى وقمتها يتمثلان في ترك ما لا بأس به، إذا كان ثمة احتمال مظنة إفضائه إلى ما به بأس..

أي أن يترك الإنسان أحيانا ما أحل له فعله، حذرا مما حرم عليه فعله.

والرسول عليه السلام يبني قاعدته هذه في التقوى على مبدأ "سيكلوجي" سليم فيقول:

من حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه.

ويزيد المعنى وضوحا فيقول:

الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم، أوشك أن يواقع ما استبان.

"ألا وإن حمى الله ما حرم، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه..

فأخذ زمام النفس - ولكن في غير قسر - بعيدا عن مزالق الطريق خير سبيل لنجاتها.

ولكن كيف نتبين ما ليس به بأس، مما به بأس..؟

هنا يضع الرسول قاعدة عامة ومعيارا لا يخطئ، فيقول:

البر ما اطمأنت إليه النفس.

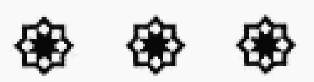
والإثم ما حاك في صدرك، وخشيت أن يطلع عليه الناس.

وبعد.. فنستطيع الآن أن نبصر خطوات تربية النفس وتجنيبها أزمة السلوك ملخصة في هذا الحديث.

اتق الله حيثما كنت..

وأتبع السيئة الحسنة تمحها..

وخالق الناس بخلق حسن..



الفصل الرابع

عن فضائل الحياة



عن فضائل الحياة، تحدث "ابن عبد الله" أروع حديث..

والحياة عنده ـ عليه السلام ـ لا تنفصل عن الاحياء فهى منهم وإليهم..

وللحياة الإنسانية قواعدها وفضائلها التى إذا أخذت فرصتها ساعدت البشر على أن يكونوا صالحين، خيّرين، سعداء.

ولفضائل الحياة قداستها التى توازى أهميتها البالغة.

ورعاية هذه الفضائل وتنميتها من أعظم أعمال الإنسان وأحقها بالمثوبة.

كما أن الإساءة إليها إساءة إلى الحياة كلها.

وكل محاولة لتزيف هذه الفضائل، جناية ترتكب لا ضدً جيل، أو جيلين، او ثلاثة.. بل ضد الحياة فى مداها البعيد.

من أجل هذا يبدأ الرسول فيضع هذه القاعدة:

"مَن سَنّ سُنّة حسنَة، فله أجرُها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة..

"ومن سَنّ سُنّة سيئة، فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"..

إن هذا الحديث نَصّ مُباشر فى وجوب رعاية فضائل الحياة وفى التحذير من تحريفها.

وهذا طبيعى من رسولٍ جاء يسمو بالحياة، كما أنه إدراك سديد لقيمة الحياة ودورها.

لقد وُجدت الحياة قبل الإنسان، فهو ضيف طارئ عليها.. وهى أبقى منه، فليس من حقه أن يسيء إليها.. بل إن واجبه ألا تظلّ كيوم جاءها ووفد عليها.. بل لا بد من أن يضيف إليها الكثير من الخير والجمال.. فهذا هو دوره، ومن أجل ذلك جاء..

وإن ما يُسمى بالحياة الإنسانية، ليمثل الطور الأرقى فى مسيرة الحياة على الأرض، فكل إساءة لفضائل الحياة الإنسانية، هدم لروح الرقىّ فى الحياة كلها.

من أجل ذلك، ليس من حق إنسان ما قعد به ضعفه عن اللحاق ببعض تلك الفضائل

أن يُهون من شأنها، وأن يعطي للناس مبرّرات تركها والتخلي عنها، حتى يصبحوا وإياه سواء، وحتى لا يُضحي عجزه عن إدراكها مأخذًا عليه. بل إنَّ واجبه ألا يُضيف إلى خطيئة عجزه خطيئة جحوده. واجبه أن يرفع الصوت عاليًا بقيمة هذه الفضائل وحتْميتها وتقديسها، وإن خانه التوفيق في إدراك بعضها.

ذلك أن فضائل الحياة ليست ـ كما قلنا ـ ملكًا لجيل، بل هي ملك للحياة جميعها.

حتى لو قصَّر جيل بأسره في تحقيق هذه الفضائل أو بعضها، فإن بقاء احترامه لها وشعوره بقداستها، يُبقي لها أهميتها اللازمة للأجيال المقبلة.

ولنضرب لهذا مثلاً.

إن سكان الأرض اليوم يقاربون ثلاثة آلاف مليون نسمة إلا قليلاً.

أرأيتم هذه الأعداد الهائلة..؟ ثلاثة آلاف مليون نسمة تقريبًا..؟!

بعد مائة عام لا غير.. لن يكون على ظهر الأرض أحد من هذه الثلاثة آلاف مليون..!! سيكون الموت قد طواهم جميعًا..!!

وخلال مائة سنة تالية ستعيش ثلاثة أو أربعة آلاف مليون أخرى، وعند منتهى تلك المائة الثانية.. ستكون تلك الأعداد الهائلة قد اختفت هي الأخرى.. وهكذا يقوم الزحام وينفضّ.. بينما الحياة ماضية باقية..!! فكلما بقيت لها فضائلها ونَمَتْ، كان ذلك خيراً للأحياء الوافدين جميعًا..!!

وكل دَعْم لفضائل الحياة ليس دعمًا لها في زمان بعينه، ولا في جيل بذاته.. بل هو دَعْم لها ما بقيت الحياة على وجه الأرض.. ومثوبة هذا الدَعم تُلاحق صاحبها ما بقيت الحياة على وجه الأرض.

والآن، لنقرأ حديث الرسول مرة أخرى.

"مَن سَنَّ سُنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"

"ومَن سَنَّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"..!!

وحديث آخر يُصور أبلغ تصوير إيمان الرسول عليه السلام بمسئولية كل فرد عن قوانين الحياة وفضائلها:

"ليس من نفس تُقْتَل ظُلمًا إلا كان على ابن آدَمَ الأوَل كِفْلٌ من دَمِها؛ لأنه كان أول من سَنَّ القتل".

ولقد تعلم الرسول هذا الدرس العظيم من القرآن حين قال له:

"مَن قَتل نفسًا بغير نفس، أو فساد فى الأرض. فكأنَّما قَتَلَ الناس جَميعًا..

"ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا".

إن فضائل الحياة مثل أحيائها تمامًا.. فمن زيَّف فضيلة من فضائلها فكأنما زيف الحياة جميعًا.

* * *

وقول الرسول عليه السلام "من سن سنة حسنة فلهُ أجرها" إلى آخر الحديث.. قوله هذا يشير إلى أن تنمية فضائل الحياة.. جزء هام من عملية رعايتها وتطبيقها.. شريطة أن تكون هذه التنمية امتدادًا وانتشارًا لخصائص الفضائل ذاتها.

وهذه هى ما عبر الرسول عنها بأنها "سنة حسنة"..

فإذا كانت التنمية مَسْخًا لخصائص الفضائل وانحرافًا عن جوهرها فتلك هى "السنة السيئة"..

ولئِن كانت فضائل الحياة تصان بالعمل الذى يعطى القدوة.. فإنها كذلك تصان بالقول الذى يحفظ الحُرْمَة..

فواجب كل إنسان أن يدعو - كما ذكرنا من قبل - إلى احترام فضائل الحياة حتى حين يتخلف عن بعضها.

وهنا نسمع الرسول يقول:

"بلغوا عنى ولو آية.. فرُب مُبَلَغ هو أوْعَى من سامع، ورُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه".

إن العمل فى سبيل إدراك الفضائل سيتفاوت حتمًا بين الناس.

ولكن إطراء هذه الفضائل يجب أن يجىء بالإجماع؛ ليبقى للحياة الإنسانية ضميرها ورُوحها.

وإن الرسول ﷺ يشجعنا على انتهاج هذا المسلك بكل صدْقه ومُبشِّراته فذات يوم سأله أحد أصحابه فى أسًى قائلاً:-

"يا رسول الله: الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم..؟؟

"فأجابه الرسول - عليه السلام - قائلاً:

"المرءُ مع من أحبَّ"..

أجل، إن المرء مع من يُحب، ومع ما يُحب.. فحبك الخير، وحبك الفضائل.. حتى في حالات ضعفك يجعل لك في القافلة المباركة مكانًا.

ويضرب الرسول ﷺ لهذا الحقيقة مثلاً باهرًا فيصور لنا جماعة جلسوا في مسجد يعبدون الله، ويذكرونه..

وهناك في أقصى المسجد، قعد رجل وحده، لم يأخذ مكانه بينهم عابدًا وذاكرًا..

وتمر ملائكة الرحمة بهذه الجماعة العابدَة، فتباركها.. ثم تلقى نظرة على ذلك الجالس بعيدًا.. ثم يقول بعض الملائكة لبعض فلنباركه أيضًا، فهؤلاء القوم لا يشقى جليسهم، أو حسب نَصُّ الحديث النبوي.

"هم القوم، لا يَشْقَى جليسهم"...!!!

إنها صورة رائعة تبين أن لعلاقتنا النفسية بالخير وبالفضيلة قدرها وثوابها.

* * *

وفضائل الحياة ـ كما يراها الرسول ﷺ ـ تتمثل في كل قيم الخير والحق والجمال.. تتمثل في كل ما أمر الله به أن يوصل..

وسيكون حسبنا أن نعرض نموذجًا لأمهات هذه الفضائل التي تشكّلُ روح الحياة وضميرها.

وأول ما نلقاه في هذا النموذج ـ الحب..

* الحب

إنه ليقف على رأس فضائل الحياة ويعبد الطريق أمام كل قوى الخير فيها ـ وفي حَضُّ الرسول ﷺ على الحب، وتوصياته بشأنه يبدأ بتطهير منابعه ـ وذلك بأن ينحّى عنه كل دواعي الوصولية والغرض.. أجل ليس الحب عند الرسول ﷺ "اتفاقًا تجاريًا" بين تاجرين.. بل "ميثاقًا" بين روحين.. ولكي يأتي الحب من منابعه الطاهرة.. ثم لكي يبقى وينتصر على معوقاته لا بد أن يتجرَّد من كل غرض زائل، ومنفعة رخيصة.. وذلك بأن يكون خالصًا صافيًا متفوقًا.. وذلك ـ مرة أخرى ـ بأن يكون لله رب العالمين.

الحب بهذه المثابة يقف في المكان الأول من صف فضائل الحياة جميعها.

ها هو ذا الرسول ﷺ يتحدث:

"أفضلُ الأعمال: الحبُّ في الله، والبغض في الله"..

ويقول أيضًا عليه السلام:

"يقول الله تبارك وتعالى: وَجبت محبَّتى للمتحابِّين فىَّ، والمتجالسين فىَّ، والمتزاورين فىَّ.."

ويرتفع الحب إلى مستوى أصبح به طريقًا إلى الإيمان وذلك حين يقول الرسول ﷺ:

"والذى نفسى بيده. لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا.. ولا تؤمنوا حتى تحَابُوا.."

وإذا كانت الصلاة والصيام يمثلان عند الرسول أهم وأجلّ أركان الدين؛ فإنه ليرفع إلى مستواهما كل عمل من شأنه أن يُرعرع فرص الحب، ويضيق شقة الخلاف بين الناس. فيقول عليه السلام:

"ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام، والصدقة..؟؟

"قالوا: بلى يا رسول الله..

"قال: إصلاحُ ذات البيْن.."

* * *

وإيمان الرسول ﷺ بالحب، جعله يتتبع كل عمل يسهم فى إيناعه وإنمائه فيجعل منه شعيرة وعبادة وقربى ـ مهما يكن هذا العمل يسيرًا وعابرًا.

فالرسول ﷺ يريد للحب أن يعلن عن نفسه، وألا يظل مخبوءًا تحت الجوانح.

يقول عليه السلام:

"إذا أحبَّ أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه".

والرسول ﷺ يريد للحب أن يدعم وجُوده، فلا يقوم بين الناس من بعيد..

"إذا آخى الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإنه أوصَلُ للمودة"..

وإذا كانت كل علاقة بين اثنين عرضة للتغييرات الطارئة والخلافات العابرة، فإن الرسول عليه السلام لا يريد أن يسمح لهذه الخلافات بمجاوزة قَدْرها.. لا يسمح لها بأن تتحول قط إلى خصومة وقطيعة ـ من أجل ذلك نجده يَحرمها عامل الزمن الذى تسعى الخلافات للإفادة منه فى دَعْم نفسها فيجعل الرسول ﷺ الأيام الثلاثة أقصى أمدٍ مسموح به لبقاء الخلاف.

"لا يحلُّ لمسلم أن يهجُر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان؛ فيعرض هذا، ويعرض هذا ـ وخيرهما الذى يبدأ بالسلام".

أجَل.. لا ينبغى أن يزيد الهجر ـ إن وقع ـ عن ثلاث؛ حتى لا تتعرض العلاقات الحبيبة للصدأ، فإذا هى استطاعت، فالإثم كبير.

يقول عيله السلام:

"من هجرَ أخاه سَنة، فهو كسَفْكِ دَمِه"..!!

ولكى تبقى المحبة ريَّانة نامية، يُعنَى الرسول بتنحية كل أسباب السُّوء عنها، فسوء الظن، والتطفل والحسد ـ وكل هذه الآفات تعوق نمو المحبة وتتحدَّى بهاءها، وإذن فليزْجر عنها الرسول ﷺ زجرًا شديدًا.

"إياكم والظن؛ فإن الظن أكْذب الحديث.."

"ولا تحسّسوا.."

"ولا تجسسُوا.."

"ولا تنافسوا.."

"ولا تحاسَدوا.."

"ولا تباغضوا.."

"ولا تدابَروا.."

"وكونوا عباد الله إخوانًا".

وإنه عليه السلام ليزدرى كل وشاية تَنال من حُب امرئ لأخيه.

ولقد كان يضرب بنفسه المثل والقدوة. فيقول للناس:

"لا تُبلغونى عن أصحابى شيئًا فإنى أحب أن أخرج إليكم منشرح الصدر"..!!

وهو يصون الحب الذى يجب أن يكون جوهر العلاقات الإنسانية كلها، من الفُضول الشَّديد الذى يُؤذى الناس ويدمر رُوح الثقة: ها هو ذا يقول:

"يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه، لا تُؤذُوا المسلمين، ولا تُعيِّروهم، ولا تتبعوا عَورا تهم؛ فإن من تتبع عورة أخيه تتبَّع الله عورته ومَن يَتتَبَّع الله عورته يفضحه ولو فى جَوْف رَحْله"..

ويقول عليه السلام:

"إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدتَ تفسدهم" ..

إن الرسول ﷺ ليدفع بعيداً، بعيداً، كل مَظانْ الإساءة إلى رابطة الصداقة والحب.

فلنقرأ هذا الحديث الذى لا يحتاج إلى تعليق:

"إذا كانوا ثلاثة، فلا يتناجَى اثنان دون الثالث؛ فإن ذلك يحزنه" ..!!

ويتتبع الرسول ﷺ هذه الدقائق فى فطنة عظيمة فيقول:

"لا يحلُ لرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما".

ويقول:

"تصافحوا، يذهب الغل.. وتهادوا، تحابوا وتذهب الشَّحْناء" ..

وهو لا يدع أى فراغ ينفذ منه الهجر أو السَّأم إلى هذه الرابطة الجليلة بين الناس، ولا يترك الأخوة والمحبة عرضة للذبول.. بل يجعلها دائمًا مَصبًا للاهتمامات الإنسانية النبيلة..

حتى عطاس الإنسان يتخذ الرسول ﷺ منه فرصة طيبة لإنعاش عاطفة الإخاء وإرْواء فضيلة الحُب..!!

"إذا عطس أحدكم فحمد لله فشمْتوه، وقولوا يرحمك الله".

واللقاء العابر فى الطريق فرصة للشدّ على اليدين.. فرصة للمصافحة التى تنقل عن طريق الرَّاحة.. المصَافِحة حنان القلب وولاء الروح.

وإن الرسول ليجعل المصافحة هذه شعيرة وعبادة.

"ما من مُسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يتفرقا".

وزيارة المعافَى وعيادة المريض من الفرص الخيِّرة التى تتيح لمسئوليات الحُب أن ترتفع إلى مستواه.

وهنا يقول الرسول ﷺ:

"من عاد مريضًا، أو أخًا له فى الله تعالى، ناداه منادٍ أن طِبْتَ وطاب مَمشاك، وتبوأت، من الجنة منزلاً" ..

ولكى يكون الحب طبيعيًا وسويًا، فإنه لا ينبغى له أن يتخطى حقوق الأهل والجيرة فيه.. بل لا بد أن يبدأ بهؤلاء، فيعطيهم حقهم كاملاً غير منقوص.

"خيرُكم خيرُكم لأهله. وأنا خيرُكم لأهلي".

خير الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبه.. وخيرهم عند الله خيرهم لجاره".

"ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره".

* * *

والحب لدى الرسول ﷺ، أسمى من أن يكون وسيلة للمحاباة.

فليس معنى الحب أن تحابى من تحب مُحاباة يدفع العدل والحق ثمنها.. فآنئذ يتحول الحب إلى أنانية وجور.

وحين نواجه هذه الحقيقة فى تعاليم الرسول عليه السلام فإننا نلقاها فى قدوته وسلوكه العظيم.

ولنقرأ هذا النبأ أولاً.. وهو نبأ يحكيه الإمام على كرَّم الله وجهه محدثًا به أحد الصحابة:

"ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكانت من أحب أهله إليه..؟

"قلت بلى..

"قال: إنها جرَت بالرَّحى، حتى أثرت فى يدها.. واستقتْ بالقربة، حتى أثرت فى نحرها.. وكنست البيت، حتى اغبرَّت ثيابها.. "فَأُتِيَ النبى ﷺ بخدم، فقلت لها: لو أتيت أباك فسألته خادمًا..؟ فأتته، فوجدت عنده شغلاً فرجعت، فأتاها من الغد، فقال: ما كان حاجتك..؟ فسكتت.. فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله: إنها جرَت بالرَّحى، حتى أثرت فى يدها.. وحملت بالقربة، حتى أثرت فى نحرها..

"فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك تستخدمك خادمًا يقيها حرّ ما هى فيه..

"فقال الرسول ﷺ لابنته: اتقى الله يا فاطمة، وأدِّى فريضة ربك، واعملى عمل أهلك.."..!!

هنا كانت المحاباة حقًا لا جورًا.. بل هى حق وليست محاباة أبدًا.

ففاطمة رضى الله عنها ـ لم تطلب لنفسها بدعًا من دون الناس.. وإنما طلبت ما هو حق للناس جميعًا.

وفاطمة ـ كانت ملء قلب أبيها، فلم يحب الرسول ﷺ أحدًا من البشر كما أحب ابنته العظيمة فاطمة عليها السلام.

وعلى الرغم من أن فاطمة طالبت بحق، إلا أن الرسول ﷺ كان قد انتهج لنفسه ولأهل بيته مبدأ فحواه أن يكون وآلُ بيته آخرَ من يظفرون بعطايا الدنيا حين تجود الدنيا على المسلمين ببعض عطاياها.. وأن يكون وأهلُ بيته، أولَ الجياع إذا جاع الناس.. وآخر من يشبع إذا شبع الناس..!!

فلما ذهبت أحب الناس إليه ترجو خادمًا كان لا يزال فى ضعاف الناس من لم يظفر بعدُ بخادم.

وإذن فإن دَوْر فاطمة لم يأت بعد.. وقد لا يجىء أبدًا..!!

وحين الْتقى وجهًا لوجه ـ حبه ومبدؤه، لم يصطدما، بل حلّقا معًا كجناحى مَلاك حاملين شرف المسئولية إلى ذروة التفوق اللائق بإنسان فى مستوى محمد بن عبد الله..!!

إذا أردنا أن نبصر أعظم تكريم للحب، وأروع ولاء له، فمن مثل هذا النهج، وهذه التعاليم فليس المهم أن نحب.. ولكن المهم أن يكون حبنا صادقًا وأمينًا، وبعبارة واحدة أن يكون حبُّنا حُبًّا..

* * *

ومن فضائل الحياة التى يوصى بها الرسول ﷺ، ويعرف لها قدرها.

ـ التفاؤل:

إنه الربيع الذى تنتعش فيه الملكاتُ والقدراتُ الإنسانية فتعمل فى غبطة وابتهاج.

وإذْ كانت الحياة عند رسول الله ﷺ مجال العمل الصالح النافع فإن التهلل والرجاء يصيران عبادة يثابُ عليها صاحبها.

أجل، إن التفاؤل ليرتفع فى وعى الرسول ﷺ وشِرْعَته إلى منزلة العبادة والقُربات وإنه ليخبرنا أن الله سبحانه لا يريد عباده إلا متفائلين دائمًا.. ذلك أن التفاؤل يعنى حسن الظن بالله، واتساع الرجاء فى رحمته وبرّه.

يقول الرسول عليه السلام:

"قال الله عز وجل: أنا عند ظنِّ عبدى بى، إن ظنَّ خيرًا فله، وإن ظنَّ شرًا فله" ..

ويوصى الرسول ﷺ قائلاً:

"لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل"

وجوهر التفاؤل عند الرسول ﷺ ، يتمثل فى الارتباط الوثيق والصالح والمتهلل بكل مسئوليات الحياة.

هذا جوهر التفاؤل، وتلك غايته:

وهنا يقول الرسول عليه السلام:

"إذا قامت الساعة، وفى يد أحدكم فَسيلةٌ فليغرسها".

عن هذا الحديث العظيم يمثل التعبير النهائى لقضية التفاؤل كلها.

فمن الذى كان ينتظر عن رسول تحدث طويلاً عن أهوال الساعة أن يطلق هذه الصيحة الفتيَّة الخلاَّقة..؟؟

إن هذا الحديث يشبه تمامًا أن نقول:

"إذا جاءك الموت وفى يدك عملٌ فأتمه"..!

إن التفاؤل يجد فى حديث الرسول هذا، أقوى نصير، وأرحب أمل.

فحتى أهوال القيامة التى لا تشبهها أهوال، لا ينبغى أن تسلب المرء تفاؤل روحه، وسكينة نفسه، وإقبال المغتبط على العمل..!!

إن مشاق الحياة لكثيرة، وكثيرًا ما يهرب الناس منها إلى اليأس قائلين إن اليأس إحدى الراحتين..

وإن الحياة الإنسانية لتزخر بأولئك الذين يتمنون الموت ليخلصهم من متاعبهم.

إن مجرد هذه الزفرة التى يُطلقها الناس تحت ضربات الزمن وضَراوة العيش، لا يقبلها الرسول ﷺ ، بل هو يرفضها ويدحضها؛ لأنها تضعف التفاؤل.

وضعف التفاؤل عند الرسول ﷺ يعنى ضعف الإيمان بالله، وضَحالة الثقة فى فضله.

وهنا نسمعه عليه السلام يقول:

"لا يتمنين أحدكم الموت.. إمَّا محسنًا، فلعله يزداد.. وإما مسيئًا فلعله يستعتب" ..

منطق رائع..!!

إن الإنسان فى حياته كلها بين فوز يطمع منه فى مزيد.. أو إخفاق يرجو أن يجاوزه ويتفوق عليه.

من أجل ذلك، لا يرى الرسول ﷺ مبررًا لليأس..

وفيمَ ييأس الإنسان..؟؟

وفيمَ يتمنى الخلاص من الحياة..؟؟

إنه إما أن يكون محسنًا، فالحياة فرصته ليزداد إحسانًا..

وإما أن يكون مسيئًا، فالحياة فرصته ليقاوم ضعفه ويحوّل سيئاته إلى حسنات.

ولنصغ لهذا الحديث أيضًا:

"لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً، فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى.. وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى"..

إنه حين يستبدُّ اليأس بالإنسان ويغلبه على أمر، يرده عليه السلام إلى من بيده المقاليد وإليه المصير.

إنه إبقاءً على نضرة التفاؤل وحيويته يقول لمن عَمّى عليه اليأسُ السبيل، إن الحياة والموت بيد الله.. فادعه أن يختار لك منهما أسعد ميقات..!!

* * *

والرسول بما معه من بصيرة، ينفذ دومًا إلى أعماق القضايا والمشكلات.

فهو بنور بصيرته يدرك العلاقة الوثقى بين اليأس والطمع..

أجل، إن الذين لا يعرفون الاعتدال وهم يحددون مطالبهم من الدنيا، يعيشون فى همٍّ مقيم..

وهمومهم تلك، تقودهم إلى اليأس والضياع.

وإن أكثر الناس قدرة على التهلُّل والتفاؤل. هم أكثرهم قدرة على القناعة، وعلى الاعتدال فيما يطلبون.

أولئك هم السعداء حقًا.

وما أعذب وأصدق محمدًا وهو يقول:

"من أصبح منكم آمنًا فى سربه.. معافى فى جسده.. عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"..

إن الذى يعنينا فى عبارة "عنده قوتُ يومه" هو مَدلولها الضِّمْنى، لا الحرْفى..

فالرسول لا ينهى الناس عن الادّخار المشروع، بل هو يدعوهم أن يتخذوا من غِناهم لفقرهم.

وإنما تعنى هذه العبارة مثلا يضربُ للقناعة التى يجب أن يتسربل بها الناس وهم يخوضون غمار الحياة.

فالثراء الزائد عن الحاجة ليس سبيلاً إلى السعادة بقدر ما هو طريق إلى الشقاء.

يقول عليه السلام:

"تَعِسَ عَبْد الدرهم والدينار".

وإن تحديد مطالبنا فى الحياة، وعدم التوسُّع فيها توسعًا يمليه الشره والطمع، لخير طريق لكى نربح أنفسنا، ونربح الحياة.

وغنى النفس أبقى للتفاؤل وأصْونُ للغبطة والسكينة من غنى المال.

"ليس الغِنى عن كثرة العَرَض"

"ولكنَّ الغنى غنى النفس"

هكذا يقول الرسول:

ويقول أيضًا:

"إن هذا المال خَضِرٌ حُلو.

"فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه..

"ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه..

"وكان كالذى يأكل ولا يشبع..

إن معنى "سخاوة نفس"، القناعة والاعتدال ونبذ التهافت.

ومعنى "إشراف نفس"، التهالُك والطمع.

وفى هذا الحديث يرفع الرسول من قدْر المال إذا توسلنا إليه بأنفس مترفعة مطمئنة.

ويحذر من شرِّه، إذا انساقت وراءه الأنفس لاهثةً، طامعة، مسعورة..

* * *

إن الربط بين الترفع عن الطمع، والتفاؤل ليكشف عن جوهر التفاؤل وحقيقته.

فحقيقة التفاؤل أنه الحالة التى لا تقع فيها النفس تحت ثقل الفزع ووطأته.

وقد يفزع الإنسان من عدو مرير - بيد أن العدو سيختفى من حياته يومًا.

وقد يفزع من مرض منغص - بيد أن المرض يومًا سيزول.

أما حين تكون دواعى الفزع مقيمة فى نفسه. لا طارئة عليها..

حين تصير جزءًا من ذات نفسه، فهذا هو الفزع الذى ترزح النفس تحت وطأته ثم ترزح، حتى تفقد كل أمل فى التفاؤل والغبطة..

وإن الطمع ليصنع ذلك كله.

إن الطمع أقدر الرذائل جميعًا على تحويل طاقة الإنسان إلى "غُدد نفسية" إن صحَّ هذا التعبير تفرز على الدوام مزيدًا من الطمع..

وتفرز بالتالى مزيدًا من الكآبة، واليأس، والفزع.

إن الطمع والقلق تَوْأمان.

ولا يذهب الطمع إلى نفس، إلا ويقول له القلق خُذنى معك..

والطامع لا يربح الحياة ولا يحياها، إنما يخسرها ويعانيها.

من أجل هذا عرف "ابن عبد الله" العظيم كيف يُؤمِّن التفاؤل ويحميه حين كشف عن الطَّمع كآفة مُهلكة، وخَصْم وبيل.

* * *

والرسول - عليه السلام - لا يكتفى بإعطاء التفاؤل مضمونه الحق. وقيمته الكبرى على النحو الذى رأينا فحسب.

بل إنه ليحبِّبه فى كل مظاهره وأشكاله حتى اليسير منها والمألوف. فهو مثلاً - يُحب التيامُن ويوصى به.

فيقول:

"ابدأوا بميامنكم".

وتقول عائشة رضى الله عنها:

"كان رسول الله ﷺ يحب التَّيمُّن فى شأنه كله"..

وهو أيضًا، يحب الأسماء الحسنة التى توحى بالبشر، ويشجع على التسَمِّى بها..

وهو ينهى الناس عن التطيُّر والتشاؤم ويوصيهم إذا خرج أحدهم من داره فرأى، أو سمع ما يكره ألاَّ يستسلم لتشاؤمه وينصرف عن عزمه بل عليه أن يمضى قدمًا وأن يهزم هواجس نفسه وتشاؤمه بهذا الدعاء.

"اللهم لا طيْرَ إلا طيْرُك..

"ولا خَيْر إلاَ خيركُ..

"ولا إله غيرُك..

"اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت..

ولا يذهب بالسيئات إلا أنت..

* * *

وتمثّل التفاؤل عند الرسول قوة من قوى المجتمع، يجب تنميتها وإرْباؤها.

ولا ينبغى سلب الأنفس سكينتها، وتفاؤلها، حتى لو يكون ذلك فى سبيل ترويضها على الفضيلة والخير.

ذلك أن الخير لا يأتى به الشر.

وإن إغراء النفس بالتشاؤم لشر يُفضى إلى شرور.

من أجل هذا يقول الرسول ﷺ:

"إذا رأيت الرجل يقول: هَلك الناس، فهو أهلكُهم"..

إن الوعاظ والمصلحين، هم أحق الناس بتدبُر هذا الحديث.

فهم من كثرة ما يتحدثون، وأيضًا من طول ما يُعانون، يحلو لهم أن يقولوا: فسَد الناس.

بيد أنَّ إصدار الأحكام اليائسة على الناس بهذا الأسلوب قد يصلح أن يكون ثأرًا من الفشل، ولكنه عند الرسول ليس الأسلوب القويم فى هداية الناس وبعث قواهم النفسية نحو الهدف الصالح، قريبًا كان أم بعيدًا.

وذلك لأن الأنفس تحيا بالتفاؤل وبَثّ الأمل.

وهنا يقول الرسول:

"بشروا، ولا تُنفِّروا".

ويقول:

"من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله".

إن الرسول عليه السلام إذ يوصى بالتفاؤل، وإذْ يوضح لنا مفهومه وحقيقته على النحو الذى رأينا..

إنه إذ يفعل ذلك ليتركنا نفهم العلاقة الوُثقى بين الحياة الصالحة الناجحة، والتفاؤل المتهلل.

ذلك أن الحياة تلقى على الناس مسئوليات لا تنتهى، وتجابهُهم بالكثير من المواقف والمصاعب والمشكلات.

وما لم يكونوا مُسلحين دومًا بروح الغبطة وذكاء القلب، وتهلل النفس، فإن الصعوبات تقهرهم من أول الطريق.

والإنسان ـ كما يراه الرسول ـ لم يخلق للهزيمة، إنما خلق للفوز المتمثل فى إنجاز الدور الذى من أجله برأه الله.

ومن ثم أعطى الرسول فضيلة التفاؤل، بل ضرورة التفاؤل كل هذا الحظ من الاهتمام.

* * *

ومن بين فضائل الحياة، وقف الرسول طويلاً عند هذه الفضيلة:

الرحمة:

إن الرحمة من فضائل الحياة، بل من قيمها التى أفقدها الاستعمال اللفظى كثيرًا من معناها الحقّ..

فالرحمة اليوم كثيرًا ما تَعنى عند الناس مجرد موقف نفسى يتَّسمُ بالأريحية التى تتصدق بها على الآخرين.

هى موقف رثاء لآلام الناس، أو موقف عَوْن لهم.. بيد أنَّه فى كلتا الحالتين نوع من أنواع التَّصدق والتفضل.

لكن الرحمة.. عند رسول الله لها مفهوم آخر، هو مفهومها الحق العظيم..

ـ فهى ضريبة الوجود الإنسانى وأولى تبعاته، والذى لا يُعطيها لا يستحقها..

يقول عليه السلام:

"مَن لا يَرحَمْ لا يُرحم"..

"لا يرحمُ الله، من لا يرحَمُ الناس"..

ـ وهى آية التكامل الإنسانى أيضًا.

يقول عليه السلام:

"لا تُنْزعُ الرحمةُ إلا من شَقِىّ"..

ـ وهى ـ ثالثا ـ عَصَبُ التكافُل الإنسانى.

"مثلُ المؤمنين فى تَوادِّهم، وتراحُمهم؛ وتعاطفهم مثلُ الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى".

هذه هى الرحمة عند الرسول:

ضريبة الوجود..

وآية التكامل..

وحقُّ التَّكافُل..

* * *

إن الرُشد الإنسانى لا يُفصحُ عن نفسه بسمة ما، مثلما يفصح عن نفسه بالرُحمة.

فالرحمة قوة نفسية لا يمتلكها إلا أهل العزم العظيم.

وإن من اليسير على أى امرئ أن يكون قاسيًا؛ لأن القسوة زفير الغرائز، تزفره فى غير تكلف أو مشقة.

لكن ليس كل إنسان قادرًا على أن يكون رحيمًا.. أى أن تكون الرحمة طابع حياته، وجوهر علاقاته.

ذلك أن الرحمة بمفهومها الذى أسلفناه تتطلب من قوة النفس وعظمة الروح ما يجعل صوتها العاقل الودُود أعلى رنينًا وأنفذ حُكمًا.

ولقد كان الرسول يُعلم الناس هذه الحقيقة ويجعل الرحمة عنصرًا مُسيطرًا فى كل شىء..

حتى التبعات والتكاليف ـ لا بد أن يُمارسها الناسُ فى رحمة..

حتى قواعد الحياة وقوانينها لا بد أن تتوخَّى الرحمة فى وضعها وتنفيذها.

يقول عليه السلام:

"إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرمًا؛ من سأل عن أشياء لم تكن محرَّمة عليهم، فحُرِّمَتْ بسبب مسألته"..

إلى هذا المدى، كان الرسول يكره أن تتسعَ حول الناس دائرة التحريم والحَظر، فتضيق بسبب ذلك دائرة حركتهم الحرَّة واختيارهم الحرّ، فتعظم المشقَّة، وتتضاءل الرحمة..!!

ولطالما كان الرسول يُؤكد هذا المعنى لأصحابه، فيقول:

"إنما بُعثتم ميسرين، ولم تُبعَثوا مُعسرين".

وكان إذا أرسل واليًا على قوم زَوَّدَه بهذه الوصية العظيمة:

"بشروا، ولا تنفروا"

"ويسروا، ولا تُعسروا".

وإنه عليه السلام ليقول:

"من نفَّس عن مسلم كُرْبَة من كُرب الدنيا، نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة.

"ومَن يَسَّرَ على معْسِرٍ في الدنيا، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة..

ومن ستر على مسلم في الدنيا، ستَر الله عليه في الدنيا والآخرة..

والله في عَوْن العبد، ما دام العبدُ في عَون أخيه..

* * *

ولأن الرحمة مسئولية، لا نافلة.. وواجب، لا صَدَقة..

أقول: لأنها كذلك، فإن الرسول لم ينظر إليها كصَفقة مُتبادلة بين اثنين.. ولا كمودَّة دافئة يبذلها القريب لقريبه، والصديق لصديقه لا غير.

لا.. بل هي حق الناس كافة.. وواجبُ الناس كافة.. الجميع يبذلونها، والجميع ينالونها.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"لن تُؤمنوا حتى تراحموا.

قالوا يا رسول الله: كلُّنا رحيم

قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه.. ولكنها رحمة العامة"..!!

* * *

هكذا الرحمة عنده.. لا تتجزَّأ، ولا تحتكر، بل تُبذل لكل الناس بذل السَّماح.

ومَرَّة أخرى نقول: إنها لا تُبذلُ كصدقة.. بل تُبذلُ كحق وفريضة..

"أعط الأجير أجره، قبل أن يجفَّ عرقُه".

هكذا قال الرسول:

وهو فى الحديث البليغ يجعل الرحمة أكثر من واجب..

إنه يجعلها ضمير كل واجب.. وضمير كل عَدَالة..

فإذا كان الواجب والبَذْل يتطلَّبان إعطاء الأجير أجره؛ فإن الرحمة التى هى ضمير هذا الواجب وهذا العدل، تتطلَّب أن يكون العطاء فى أوانه حتى يكون سماحًا، ووفاءً، ونجدة .

أجَلْ..

"قبل أن يَجفَّ عَرَقُه"...!!!

كذلك يقول عليه السلام وهو يتحدث عن حق نوع آخر من الأجراء - أولئك الذين يعملون فى خدمة المنازل.

"إخوانكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده، فليُطعمه مما يَطعَم.. وليُلبسه مما يَلْبسَ.. ولا يُكلفه ما يَغْلبه.. فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه" .

فهنا أيضًا - إذا كان الواجب والعدل يتطلبان منك أن تطعم خادمك وتكسوه، فإن الرحمة التى هى ضمير هذا الواجب وذاك العدل تدعوك لأن تطعمه من نفس طعامك، وتُلبسه من مثل لباسك وكسائك، وأن تعينه على العمل إذا شق عليه العمل..!!

وعلى هذا النّسق تمضى القاعدة على الدوام.. قاعدةُ أن الرحمة يجب أن تكون ضمير كل عمل.. ضمير كل واجب.. ضمير كل قانون..

فحتى فى العقوبات المشروعة التى لا يملك الرسول نفسه حق التصرُّف فيها، نجده يهتف بالرحمة، ويجعلها ضمير القانون وضمير العدالة..

ها هو ذا عليه السلام يقول:

"ادرأوا الحدود بالشبهات" .

ويقول، وما أبَره حين يقول:

"إن الإمام إن يُخطئ فى العفو، خير من أن يخطئ فى العقوبة"..

ويقول عليه السلام:

"إن الله يعذب الذين يعذّبون الناس فى الدنيا" .

* * *

إن الرحمة عند ابن عبد الله ليست نافلة، ولا صدقة..

إنما هى رُوح العَدْل، وربيعُ الحياة، وضمير الحق والواجب وإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليُقدسها ويقدّس الرِّفقَ الذى هو مظهرها.

فلنصغ إلى حديثه الوَدُود:

"إن الله رَفيق، يُحبُّ الرفق، ويُعطى على الرِّفق ما لا يعطى على سواه".

ويقول:

"من يُحرَم الرفق؛ يُحرَم الخيرَ كلَّه".

ويقول: ـ اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فشَقَّ عليهم، فاشقُق عليه:

ومن ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به".

إن الرسول عليه الصلاة والسلام، يريد من كل الناس أن يكونوا رُحَماء.

ذلك أنه يعلم الظروف العسيرة التى يعمل البشر داخلها، ويعلم أن فى الحياة الدنيا من الشُّواظ والألم ما لا يحتاج إلى قساوَة تزيده.. بل إلى رحمة تكسر حدَّة الألم، وتجعل الحياة مُحتَملة وطيبة.

وإذا كانت الرحمة عند الرسول لا تتجزأ بالنسبة للناس، فهى أيضًا لا تتجزأ بالنسبة لحقيقتها. وبالنسبة لكل ذى حق فيها..

ومن هُم أصحاب الحق فيها..؟

إنهم عند الرسول ليسوا البشر وحدهم، بل وكل كائن حىّ.. الحيوان، والطير، والهوامّ..

انظروا..

"دَخَلَت امرأة النار فى هرَّة حَبَستْها، فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خَشاش الأرض"..

وانظروا أيضًا هذا الحديث:

".. والشَّاة إن رحمتها، رحمك الله"..!!

ويبصر عليه الصلاة والسلام، بعيرًا ضامرًا ومجهَدًا، فيقول لصحابه:

"أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها"؟

وحتى حين يذبح الناس الحيوان ليأكلوه، يجعل الرسول الرحمة واجبًا وضميرًا

وحتى حين يذبح الناس الحيوان ليأكلوه، يجعل الرسول الرحمة واجبًا وضميرًا فيقول:

"إذا ذَبحتم، فأحسنوا الذبحة.. وليُحدَّ أحدُكم شفرته.. وليُرح ذبيحته".

* * *

وبعد.. فإن الرسول ليُعطى التعبير النهائى لإجلاله الرحمة وتقديسه إيَّاها، حين يجعلها العنوان الأوحد لدوره كله.. ولرسالته كلها.. بل وحين يجعلها جوهر هذا الدور، وهذه الرسالة فيقول عليه السلام:

"إنَّما أنا رَحمةٌ مُهداة"..!!

* * *

ومن فضائل الحياة الجليلة حدثنا الرسول عن:

ـ الوفاء..

وحين يتحدث "ابن عبد الله" عن الوفاء، فلا يُنبئك به مثلُ خبير..!!

إن أحاديثه ـ عليه السلام ـ عن الوفاء، كأحاديثه عن كل شىء تبدو وكأنها تُشكِّل قانونًا، وترسمُ منهجًا..!!

والوفاء فى أحاديث الرسول حق، وواجب.

حق لك عند الآخرين..

وواجب عليك تجاههم.

وإن الرسول عليه السلام ليَضعُ يده على نقطة البدء الصحيحة فى واجب الوفاء وفضيلته.

تلك هى: الوفاء لأبويك ولعشيرتك الأقربين.

فما نُسمِّيه "بر الوالدين" و "صلة الرَّحم" ليس إلا أوليات الوفاء، وبدء مسيره وعمله، فإذا كان الوفاء يعنى حفظ حقوق الصُّحبة والعشرة وإجلال ذكراهما دوما، فأيَّة صحبة أحق بالرعاية والإجلال من صُحبة الوالدة والوالد..؟؟

إن الرسول يتحدث عن هذه البداية، حين جاءه سائل يسأله عن أحقِّ الناس بحُسن صحابته، فإذا هو يجيب قائلاً:

"أمك.. ثم أمك.. ثم أمك.. ثم أبوك.. ثم أدناك، فأدناك"..

ويجيب سائلاً آخر فيقول:

"... أمك، وأبوك.

وأختك، وأخوك

ومولاك ـ أى قريبك ـ الذى يلى ذاك.. حق واجب، ورحمٌ موصولة" ..

ولأن الوفاء جوهر برِّ الوالدين، نجد الرسول يضع على رأس البرِّ كله، احتفاظ الإنسان بالمودة الدافئة لكل ذكرى تحمل عبيرها:

"إن أبر البر، صلةُ الولد أهل ودِّ أبيه" ..

ولقد جاءه رجل ذات يوم يسأله:

ـ يا رسول الله، هل بقى من بر أبوىَّ شىء أبرُّهما به بعد موتهما؟؟

فأجابه الرسول:

"نعم، الصلاة عليهما.. والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدهما.. وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما.. وإكرام صديقهما.. "

وفى تعاليم الرسول وأحاديثه نرى الوفاء للوالدين يكاد يزحم الولاء لأكثر فروض الدين وأركانه..

فذات يوم ذهب شاب إلى الرسول، حيث جرى بينهما هذا الحوار العظيم:

قال الفتى:

"يا رسول الله، أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله تعالى:

"فقال الرسول: هل من والديك، أحد حى..؟؟

قال: نعم كلاهما حى..

"قال الرسول: وتبتغى الأجر من الله تعالى..؟؟

قال: نعم..

"قال الرسول: فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما" ..

* * *

ويلى الوالدين فى حق الوفاء، الأقارب، والجيران.. فالوفاء للرحم عند الرسول شرط الإيمان..

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليصل رحمه"

ولما كان الناس قد يهربون من صلة الرحم مخافة تكاليفها المادية، فقد أنبأهم

الرسول أن مخاوفهم تلك باطلة.. وأن صلة رحم لا تفقر صاحبها، بل هي باب من أبواب الرزق، وسبب من أسباب الندى والخير.

"من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في عمره فليصل رحمه"..

ووفاء كل من الزوجين لصاحبه، له عند الرسول مكانته وقداسته..

ولا منتهى هنالك لوفاء هذين اللذين امتزجت حياتهما، وصارا كنفس واحدة - يقول عليه السلام:

"لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها"..!!

ويوصي الأزواج بمثل ذلك فيقول:

"استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عوان عندكم"..

* * *

وينتقل حق الوفاء بعد هذا للجار..

واهتمام الرسول بحق الجوار والوفاء للجار يصور إدراكه لا ريب - عليه السلام - لفحوى العلاقات الإنسانية وحقوقها.

فجارك، هو أقرب الناس إليك، ومن ثم فإن عينك قريبة من دخائله وأسراره.. من مشاكله وآلامه..

فجحود حقوقه عليك، وأنت تصبحه وتمسيه يعنى أنك ستكون أكثر جحودا لحقوق الآخرين الذين لا يقعون منك بهذا القرب. ولا يرتبطون بك هذا الإرتباط..

وأهم حقوق الوفاء للجار، ألا يأتيه من جاره مساءة، أو مخافة أو مكروه.

وإن الرسول عليه السلام ليجعل هذا الحق توأم الإيمان، فيقول:

والله لا يؤمن .

والله لا يؤمن..

والله لا يؤمن..

قيل من، يا رسول الله.؟

"قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه.

كذلك يدعو الرسول إلى أن تكون الحسنى والمودة سبيل التعامل بين

الجار وجاره.

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره".

ويقول عليه السلام:

"خير الأصحاب عند الله، خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله، خيرهم لجاره"..

وتمتد ذراعا الوفاء، حتى تؤديا التحية لكل ذى يد ومعروف.

يقول عليه السلام:

"من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به، فادعوا الله له"..

وللودعاء الطيبين من ذوى المنازل والمكانة حقهم من الوفاء والتوقير.

"ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا"..

كما يقول عليه السلام:

"أنزلوا الناس منازلهم"..

والوفاء للأصدقاء يمثل فى تعاليم الرسول، وفى سلكه مكانا عليا.

والوفاء للصداقة يعنى عند الرسول شيئا أعظم من المجاملة..

إنه حمل كل مسئوليات الصحبة فى غبطة وأمانة..

"انصر أخاك ظالما، أو مظلوما..

"قيل أنصره مظلوما.. فكيف أنصره ظالما..؟؟

"قال: تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره"..

إن الوفاء للصديق يعنى عند رسول الله الارتفاع بمستوى الصداقة إلى ذروة كمالها الميسور، وجعلها على الدوام علاقة طاهرة ونظيفة.. وذلك بالتناصح الأمين.

"إن أحدكم مرآة أخيه.. فإن رأى به أذى، فليمطه عنه"..

إن وفاء الصديق لصديقه يعنى فى تعاليم الرسول ألا يسلمه، أو يظلمه، أو يخذله، أو يكذبه.

وبعبارة واحدة قالها الرسول:

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

لكن إجلال الرسول للوفاء، وإجلاله الصداقة دفعه إلى التحوط في اختيار الصديق.

إن وفاء القاتل لقاتل مثله، لن يكون له من ثمرة إلا زيادة عدد ضحاياهما.

ووفاء لص للص مثله، أو غاش لغاش مثله، أو مرتش لمرتش مثله، لن يثمر إلا مزيدا من الإثم والسوء.

ووفاء مثل هذا، لا يلوث فضيلة الوفاء فحسب.. بل ويلحق بحقوق الناس وأمنهم الأذى والروع.

من أجل ذلك، يتحوط الرسول في اختيار الأصدقاء حتى إذا التقى اثنان على حب ووفاء، كان في لقائهما الخير، لنفسيهما وللناس.

يقول عليه السلام:

"الرجل على دين خليله.. فلينظر أحدكم من يخالل"..

إن صديقك، هو الامتداد الطبيعي لك، ومزية الصداقة أنها تعوضك عن طريق الصديق، المزايا التي تنقصك.

فإذا اختار أحدنا أصدقاءه من بين الوصوليين، والمنافقين، والكذابين، والخونة، والمرتشين..

إذا اختار أصدقاءه من بين الذين لا يرون الحياة إلا سيجارا وكأسا.. وإلا مكرا أو غدرا.. وإلا نفعية وأنانية.. فإنه بذلك يعرض حياته لأفدح خسران يحيق بها..

وكل وفاء يشد هذه الصداقات بعضها إلى بعض لا يراه الرسول إلا تخريبا لفضيلة الوفاء ذاتها، وإلا تعاونا على الإثم والعدوان.

وإن الرسول عليه السلام ليضرب مثلا لكلا الفريقين.. الفريق الجدير بالصحبة، والوفاء.. والفريق الذي ليس له في الصحبة ولا في الوفاء نصيب، فيقول:

"إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء. كحامل المسك، ونافخ الكير.

"فحامل المسك إما أن يحذيك - أي يعطيك - وإما أن تبتاع منه..

وإما أن تجد ريحا طيبة..

"ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك.. وإما أن تجد منه ريحا خبيثة"..

ويزيد الرسول هذا المعنى وضوحا وحسما إذ يقول:

"من أعان ظالما سلط عليه".

والصداقة عون، والوفاء لها عون وأى عون.

من أجل ذلك حرص الرسول وهو يتحدث عن الوفاء، وعن الصداقة أن يحذرنا من سوء الاختيار حين نتعجل أو نسيء اصطفاء الأصدقاء..

* * *

ولا يقف الوفاء فى منهاج الرسول عند هذه الدوائر وحدها، بل إنه لينداح، ويتراحب حتى يسع الناس جميعا.

فالوفاء الحق، هو الذى يبذل نفسه لكل الناس.

فهذه الصفوف الهائلة من مواطنيك، ثم من البشر جميعا، إنما يعملون من أجلك أشياء كثيرة، ويسدون إليك منافع شتى فلا بد أن تكون وفيا لكل الناس من تعرف، ومن لا تعرف.

ووفاؤك للناس يعنى أن تؤدى دورك فى الحياة فى أمانة وصدق؛ حتى تكون نافعا لهم جميعا.

- إن جميع الناس إخوة.

- وكل فرد مطالب بأن يرجو للآخرين ما يرجوه لنفسه من خير.

هذه بإيجاز هى قضية الوفاء للبشر لدى الرسول وفى تعاليمه.

فهو عليه السلام يقول - أولا:

"كونوا عباد الله إخوانا".

ثم يرسم - ثانيا حق هذا الإخاء فى قوله:

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

* * *

والآن ننتقل إلى فضيلة أخرى من أجل فضائل الحياة.. تلك هى:

- الأمانة

إن أحاديث الرسول عن الأمانة لكثيرة.

وإنها لتصور فى توفيق عظيم المكانة الجليلة للأمانة، والدور العظيم الذى تؤديه فى تماسك الحياة الإنسانية وترشيد الجنس البشرى.

وعندما يتحدث الرسول عن الأمانة لا يتحدث عنها كمجرد فضيلة بل تبدو فى

تعاليمه وكأنها جوهر الفطرة الإنسانية كلها.

اقرأوا هذا الحديث:

"إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة.."

فقبل أن يجىء للناس رسالات الهدى من ربهم كان معهم الجوهر فى قلوبهم.. كان معهم الأمانة..!

ومعنى أن الأمانة فى جذر القلوب أنها كما ذكرنا جوهر الفطرة، فإذا ضاعت الأمانة من أحد، فقد ضاعت منه فطرته.. وآدميته..

أى تقديس للأمانة أبلغ من هذا التقديس..؟؟!!

ورسول الله لايتحدث عن الأمانة ذلك الحديث العابر السريع الذى يصورها فى صورها العادية كحفظ الودائع مثلا..!!

كلا.. إنه ليراها عماد الأمر كله.. أمر الحياة والأحياء وإنه ليتحدث عنها فى شمول فطن عظيم.

فكل مسئولية أمانة.

والمسئوليات من أعلاها إلى أدناها ليست سوى مستويات متكررة للأمانة ـ من أجل ذلك، فالرسول عليه السلام وهو يتحدث عن الأمانة، إنما يتحدث عن مسئوليات الحياة كلها، والأحياء جميعا.

وإن أحاديثه الكريمة السديدة لتتسلسل فى الأمر بها والحض عليها من بدء مستوياتها إلى منتهاها.

انظروا..

"إذا حدث الرجل أخاه بحديث ثم التفت، فهو أمانة"..!

إن التفاتة الذى يتحدث مع آخر، تنبئ عن رغبته فى ألا يكون هناك ثالث يسمع حديثه.

إن مجرد هذه الرغبة، واللفتة العابرة، تجعل الحديث عند الرسول ﷺ أمانة يجب أن تصان وتحفظ..

وانظروا أيضا..

"إن من أعظم الخيانة عند الله يوم القيامة ـ الرجل يفضى إلى امرأته،

والمرأة تُفضى إلى زوجها، ثم ينشر أحدهما سرّ صاحبه"..!

فلحظات النَّجوى بين الرجل وزوجته، لها كل هذه الحُرمة حُرمة الأمانة، وحق الأمانة.

على هذا النَّسق تَتَبع الأحاديث المُباركة مُستويات الأمانة كلها حتى تصل بنا إلى أمانة المال، وأمانة الحُكم..

أما المال، فالأمانة فيه أن يُؤخذ طيبًا حلالاً، في غير خيانة أو إثم.

"إن الله طيب، لا يقبل إلا طيبًا".

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:

﴿ يا أيُّهَا الرُّسُلُ كُلوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعمَلوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعمَلونَ عَلِيم ﴾.

"وقال: **﴿ يا أيُّهَا الذِينَ آمَنوا كُلوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم ﴾** ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث.. أغبر.. يمدُّ يديه إلى السماء! يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِى بالحرام، فأنَّى يُستجابُ له"..؟؟

ويسأله سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أن يدعُو الله له ليكون مستجاب الدَّعوة، فيجيبه الرسول:

"يا سعد..

أطب مطعمك، تكن مُستجاب الدعوة".

* * *

وإن كل الذين تدور أيديهم في اقتصاديات الناس وأموالهم لتعظم مسئوليتهم عن الأمانة.

فالتجار ذوو مسئولية كبيرة يرفعهم أداؤها إلى درجات عالية

"التاجر الصدُوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين..".

وأىُّ غشى يقترفه التاجر، يلقى به بعيداً من صفوف المؤمنين.

"مَن غشّنا، فليس منا"..

وأما الذين يصلهم بأموال الناس وظيفة ومنصب، فإن مسئوليتهم عن الأمانة تفوق كل وصف.

إن الذى يرى الرسول وهو يواجه خيانة من مال الأمانة أو سفها فى إنفاقه، ليرى أمرا عجيبا..

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذى طالما التمس المعذرة ورجا رحمة الله للخطائين.. يقف أمام الخيانة، وكأنه لا حيلة له أبدا.. ولأول مرة نراه يخجل أن يسأل الله المغفرة لآثم ـ ذلك لأن الآثم هذه المرة، خائن.. خان مال الأمة، وهو عند الله إثم مبين..

لنقرأ هذا النبأ:

أهدى رفاعة بن زيد للرسول خادما..

وفى غزوة وادى القرى أصابه سهم وهو يحط رحل رسول الله ﷺ .

فأقبل الصحابة على الرسول يعزونه، ويقولون: هنيئا له يا رسول الله، لقد ذهب شهيدا.

فأجابهم الرسول قائلا:

"وما يدريكم..؟ إن الشملة التى أخذها من المغانم يوم خيبر، لتشتعل عليه نارا"..!!

شملة..؟؟

شملة تساوى درهما، أو حتى بضعة دراهم، يطارد إثمها صاحبها حتى بعد أن مات شهيدا.. وبين يدى رسول الله..

إنه لولاء للأمانة ليس له نظير..!!

* * *

إن كل قرش يناله موظف خلسة أو جهرة دون أن يؤذن له فى أخذه بحق، فهو غلول وخيانة.

وفى هذا يقول الرسول:

"من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقا.. فما أخذ بعد ذلك فهو غلول"..!!

إن الرابطة بين الوظيفة والأمانة تبلغ فى تعاليم الرسول وشريعته مبلغا من التقديس عجيبا..

فهو ـ مثلا ـ يرفض رفضا مطلقا أن يقبل الموظف هدية ـ مهما تكن ـ جزاء عمل

أداه يدخل فى نطاق واجبات وظيفته.

إن هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة والتفريط فى الحقوق العامة.

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم فقال:

"أما بعد..

فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله، فيأتى فيقول: هذا لكم.. وهذا أهدى إلى.."

"أفلا جلس فى بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا..؟؟

"والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة..

"اللهم هل بلغت.."!!

* * *

وعن "أمانة الحكم، تحدث الرسول باهتمام عظيم، وألقى تعاليمه الهادية إلى الحكام، والولاة، والقضاة، وإلى كل من يحمل مسئولية ذات بال فى الأمة.

فهذا الحكم بكل ألوانه أمانة عظمى.

يقول عليه السلام عن الولاية:

"إنها أمانة.. وإنها يوم القيامة خزى وندامة، أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها".

- ولأن الحكم مسئولية وأمانة، فإن الرسول عليه السلام لم يكن يطمئن إلى الذين يتهالكون عليه.

وإنه ليضع فى هذا مبدأ يقول:

"إنا والله لا نولى هذا الأمر أحدا يسأله، أو أحدا يحرص عليه".

ويوصى عبد الرحمن بن سمرة قائلا:

"يا عبد الرحمن. لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها.

"وإن أعطيتها من غير مسألة، أعنت عليها".

- وتحقق أمانة الحكم نفسها عند رسول الله بتحرى القسط والمعدلة.

"إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون فى حكمهم، وما ولوا".

ـ كقولك تحقق نفسها بالثقة وبالحب المتبادلين بين الناس وحكامهم.

"خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم".

ـ واختيار الحاكم أعوانه من بين الذين يخلصون للحق، شرط محتوم لتحقيق أمانة الحكم.

وهنا يقول الرسول:

"إذا أراد الله بالأمير خيرا، جعل له وزير صدق:

إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه..

"وإذا أراد الله به غير ذلك، جعل له وزير سوء:

إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه".

وتعني أمانة الحكم عند رسول الله ﷺ الإخلاص الكامل للناس، وتحرى الصواب المحض في كل ما يتصل بمصايرهم.

وهنا يقول الرسول محذرا.

"ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة".

ويقول أيضا:

"ما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئا. لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة".

ـ وتتطلب أمانة الحكم عند الرسول نزاهة مطلقة.

"لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم".

ويقول:

"من استعملناه على عمل فكتمنا مخيطا فما فوقه

"كان غلولا يأتي به يوم القيامة".

ـ وتتطلب أمانة الحكم عملا دائبا لخير الناس وتلبية مستمرة لحقوقهم. وأبوابا مفتوحة لآلامهم وآمالهم.

يقول عليه السلام:

"ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته، وحاجته ومسكنته".

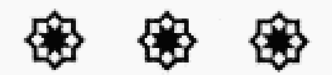
ـ وتتطلب قبل هذا وبعد هذا، الرفق والأناة.

ولقد ابتهل الرسول كثيرا إلى ربه راجيا رحمته وتوفيقه لكل ذى حكم رفيق ـ فقال عليه السلام:

"اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به".

وبعد..

فهكذا تحدث الرسول عن فضائل الحياة. وإنا لنسميها فضائل تجوزا فى التعبير. أما هى، فأكثر من فضائل.. إنها قيم الضمير الإنسانى وقوانينه وواضح أننا لم نتحدث عنها جميعا. بل جئنا بنموذج يومئ إلى بقية تلك الفضائل، ويدل عليها.



الفصل الخامس

[عن العلاقات العلوية]

الإنسان، وربه...

تقوم علاقة الإنسان بربه على رأس المهامّ التى من أجلها جاء الأنبياء والمرسلون، وفى سبيل تبيانها وإجلالها كرَّسوا حياتهم أجمعين ـ عليهم صلاة الله وسلامه.

وإذ كان الرسول "محمد" ﷺ الخاتم لمسيرة إخوانه المباركين، والمتلقى آخر كلمات الوحى إلى البشر، فقد راح يعطى اهتماماته العميمة والراسخة لتلك العلاقة الروحية والسلوكية التى تصل الإنسان بربه الكبير المتعال، والتى ترفع بدورها مستوى الحياة الإنسانية إلى أعلى مستويات الكمال الميسور لبنى الإنسان.

ولقد كان أمام الرسول ﷺ طريقة واحدة لإنشاء هذه العلاقة ـ تلك التى علمه إياها القرآن الحكيم.

﴿ بَلَى، مَن أَسْلَمَ وَجهَه لله وهُو مُحْسِنٌ، فَلَه أَجْرُه عِندَ رَبِّه، وَلا خَوْفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحْزَنُونَ ﴾.

فإسلام الوجه إلى الله سبحانه فى إحسانٍ لطاعته وعبادته، وهو جوهر العلاقة العلوية والروحية التى تصل العبد بربه، والتى تجعل منه "ربَّانيًا" له عند الله منزلة ومقام.

ولكن؛ لكى يسلم الإنسان وجهه إلى الله، ويسعى إليه بالعمل الصالح والحياة الطيبة، لا بد ـ أولاً وبداهة ـ أن يكون قد عرفه، وآمن به.

إن أولى تبعات وجودك، أن تؤمن بالله الذى منحك هذا الوجود وحين تؤمن به الإيمان الصحيح الصادق، فسيقتضيك هذا الإيمان أن تعبده وتطيعه.

فطرَةَ الله.. ولكى تعرف الله.

"استَفْتِ قلبَك"

أجل.. ففى أعماق كل فرد إنسانى يقين كامن وكامل بوجود الله. يقول عليه السلام:

"كل فرد مولود يُولدُ على الفطرة"

مشيرًا إلى قول الله سبحانه فى قرآنه الكريم:

﴿ فطرةَ اللهِ التى فطر النّاسَ عَلَيها ﴾ .

الناس.. لا المسلمون، ولا اليهود، ولا النصارى.. بل الناس جميع الناس معهم فطرة الله، وفى أعماقهم المستَتِرةُ برهان وجوده وآية ألوهيته ووحدانيته، وإذا كنا نُراكم فوق هذه الفطرة الصدأ، وظلام نفوسنا وأعمالنا، فإنها رغم ذلك كامنة هناك، وتعبِّر عن نفسها بشتى الرُؤى والمشاهد والتجارب، بيْدَ أننا عنها من الغافلين..

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يبدأ معنا بدعوتنا إلى نفض الغبار والصدأ والظلام عن فطرة الله الثاوية فى أعماقنا.. ثم الإصغاء لنجواها وصوتها.. عندئذ سنجد الإيمان بالله، بل سنجد الله سبحانه ملء رُوعنا، وقلوبنا..

فإذا تم لنا ذلك، فسيكون علينا أن نؤمن برسله وكتبه لكى نعيش ونحيا فى نور رسالاته، وهدى كلماته.. ولسوف يحدثنا المرسلون عليهم صلاة الله وسلامه عن الغيب العظيم بكل ما يحفل به من أسرار تبهر الألباب وحقائق تتحدى الجحود، وسيكون علينا أن نؤمن بكل ذلك الغيب، وسيكون هذا الإيمان تحريرًا لنا من غرورنا.. وفى نفس الوقت سيكون مِسبارًا لإيماننا بالله.. وحاديًا لأشواقنا إلى ما وراء عالمنا المنظور، ودنيانا المحدودة.

فالإيمان ـ كما يعلمنا الرسول ﷺ.

"أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره".

إن علاقة الإنسان بربه، تفقد وجودها إذا نكص عن هذا الإيمان أو إذا آمن ببعضه وكفر ببعض.

* * *

فأما عن الإيمان بالله، فما هو بحاجة إلى دليل.. إن كل ما فى بداهة الكون العظيم ـ من قطرة الماء إلى الشموس والمجرات شاهدة على وجوده. هاتفة بألوهيته.

وكل ما فى الآفاق، وما فى أنفسنا دليل وبرهان..

وإنما نعمى عن الله سبحانه، لأننا نريد أن نراه وكأنه واحد من الناس أو شىء من الأشياء، تتسع لرؤيته حِدَقُنا الصغيرة، وتلمسه حواسنا الكليلة..

كذلك تعجز البراهين التى نحاول التعرف إليه عن طريقها، لأنها نفس البراهين التى نحاول أن نستدل بها على وجود نهر، أو بحر، أو حفريات..!!

لا، إننا لا نستطيع أن نرى الله جَهْرة، كما نرى أشياء الدنيا، وهذا من رحمته بنا..

يقول عليه السلام:

"حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره"..!!

ولقد سئل عليه السلام:

"كيف رأيت ربك..؟"

"فأجاب: نورٌ أنّى أراه"..

إننا نعرفه ـ سبحانه ـ بآثار قدرته ورحمته التى لم يقل أحد منذ وعى الإنسان نفسه: إنه يشترك مع الله فى خلق السماوات والأرض والإنسان. أجل ـ هو وحده الذى قال لنا:

﴿ أنا ربُكُم . فَاعْبُدون ﴾

ومحاولة معرفته بنفس الأسلوب الذى نعرف به المخلوقات، سذاجة مضحكة.

من أجل هذا يقول الرسول:

"تَفكَّروا فى خلق الله، ولا تَفكَّروا فى الله؛ فتضلوا"..

إن هذا الحائر الصغير الذى نسميه "العقل" عاجز عن فهم أشياء كثيرة تحفل بها دنيانا، بل عاجز حتى اليوم عن معرفة كُنه أو حقيقة أشياء اكتشفها واخترعها كالكهرباء مثلاً، فأنى له أن يعرف بوسائله المادية القاصرة من "ليس كمثله شىء وهو السميع البصير"..؟!

"يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد".

هكذا يعلمنا الرسول عليه السلام.. وإن الناس فى كل عصر وجيل ليؤمنون بأن أباهم واحد، فلماذا يستريب مستريبهم فى أن لنا ربًا.. وأنه واحد..؟؟

إن كل كشوف العلم تزيد ـ حتى أصحابها العلماء أنفسهم ـ انبهارًا بالنظام المذهل والحكمة المعجزة القائمين وراء كل حركة ووراء كل ذرة فى هذا الكون العظيم.

والإيمان بالله يعنى أنه قد قام "ميثاق" بين العبد وربه..

وها هو ذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يتلو علينا بعض بنود هذا الميثاق:

"احفظ الله، يَحْفَظك..

"احفظ الله، تجده تِجاهَك..

"تعرَّف إلى الله فى الرخاء، يَعرفك فى الشدَّة..

"إذا سألتَ، فاسأل الله..

"وإذا استعنت، فاستعن بالله..

"واعلم أن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك..

"ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك"..

"جَفَّت الأقلام، وطُويت الصحف"..

وهكذا نرى الإيمان فى حقيقته، فإذا هو "طاقة" جبارة لا يتخلَّى عن امتلاكها والعضّ عليها بالنواجذ سوى تعس ومخبول..!

وسيسأل سائل: من الذى لا يتمنى أن يمتلك هذه الطاقة..؟ وبالتالى، فمن الذى لا يتمنى أن يلقى جسده المجهد، وأثقاله المبهظة على مرفأ الإيمان..؟

ولكن أين السبيل إليه إذا تاه عنه العقل فى زحام الشكوك والضلالات..؟

ألا إن السبيل إليه ليسير.. بل إنه لا يكاد يكون له سبيل؛ لأنه معك، وإنه لأقرب من يدك ولسانك وبنانك..

إن كل ما يُطلب منا حتى نجد الإيمان ملء قلوبنا، هو أن نوقظ فطرة الله فينا.. لا أن نخلقها أو نوجدها.. فهى - كما قلنا من قبل - ثاوية فى أعماقنا.. يقول عليه السلام، وهو يحدثنا عن الله عز وجل..

"إنى خلقت عبادى حُنفاء كلهم، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا".

فأنت إذن خُلقت مؤمنًا بالله الواحد الأحد الذى لا شريك له ولا مثيل..

فلماذا تنسى أنك مؤمن..؟

ولماذا تذهب فى حيرة تعسة، وعصبية مضحكة لتبحث عن إيمان.؟ أو عن دليل يُفيء عليك الإيمان.؟ ولماذا تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض.؟ وتؤمن ببعض الرسل، وتكفر ببعض..؟؟!

لماذا تُشوه الإيمان الذى منح الله كلاً منا فطرته وهاتفه ودليله.؟ ولماذا تتوهم غيابه عنك وانفلاته منك..؟ ليس عليك سوى أن تحرك فطرتك وألا تطمرها تحت تراب الغفلة والإعراض.. وهذه آية صدق الإيمان وضرورته وتلقائيته.. فهو لا يحتاج إلى معاناة عقلية ليدلك على وجود الله. بل على العكس، نرى نفى الله هو الذى يحتاج إلى دُهور من المعاناة والتفكير، ثم لا يجد المستريبون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً..!!

إنه فى داخلك، وهو جزء من صميمك.. تمامًا مثل قلبك وكبدك ورئتيك.!

ولكن لأنه الجزء النورانى فيك، فهو لا يُدرك ولا يعمل إلا بالتفات الروح إليه..

أجل.. إن مجرد لفتة صادقة من الروح إلى الفطرة التى أودعها الله إيانا كافية لتفجير طاقة الإيمان وإضاءة أنواره جميعًا..

وحين تؤمن بالله.. أعنى حين تتألق فطرتك بنور ما أودعها الله..فآنئذ ستؤمن برسله الذين اصطفاهم ليهدونا إليه وإلى ما يريده لنا من خير وصلاح.

وستؤمن بملائكته ـ هذا العالم الجليل غير المنظور، والحافل بعبادٍ لله مكرمين، منهم من يحفظنا بأمر الله..

وستؤمن بكتب الله المنزلة لتضيء لنا الطريق..

وستؤمن بالقدر إيمانًا يقول لك.

"اعقلها ، وتوكَّل".

ليس على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تحول بينك وبين خير ساقه الله إليك.. أو تدفع عنك سوءًاصنعه لنفسك وخلَّى الله بينه وبينك.

وستؤمن بخلود الروح، وبالبعث بعد الموت، لأن رسل الله أخبرونا بذلك كله

صادقين.. ولأن البداهة ترى فى ذلك تفسير حكمة الخلق وحكمة الحياة..

وصدق القرآن إذ يقول:

﴿ الذِى خَلَقَ المَوتَ وَالحَيَاةَ لِيَبلُوكَم أَيُكم أَحسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُور ﴾.

* * *

المُرسلون.. لقد حدثنا الرسول "محمد" ﷺ عن الكتب التى سبقت القرآن، وعن الرسل الذين خُتموا به.. وضرب لمسيرتهم المثل الجميل بقصر كبير رحيب ووارف، قد اكتمل بناؤه إلا موضع لبنة لم تأخذ مكانها فى البناء بعد، ويُشكل فراغها ثغرة فيه، ثم يقول عليه السلام فى تواضع عظيم:

"فأنا تلك اللَّبنَة"..!!

من أجل هذا كان معنى اشتراط الإيمان برسالته أن هذا الإيمان يتضمن ـ فى نفس اللحظة ولنفس السبب ـ الإيمان بجميع إخوانه الذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين.. ولقد أمره القرآن الكريم أن يقول هو وأصحابه والمسلمون معه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ آمنا بالله.. وَمَا أُنْزِلَ إلينا، وَمَا أُنزِلَ إِلى إبرَاهِيمَ وَإِسمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ وَالأَسبَاطَ.. وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَبِيُونَ مِن رَبِّهِم، لا نُفرِّقُ بَينَ أحدٍ مِنهُم، وَنَحنُ لَه مُسلِمُون ﴾.

وحدثنا ـ عليه السلام ـ عن الملائكة مؤكدًا وجودهم ومحتمًا الإيمان بهم، وهل كان "جبريل" الذى تنزَّل على الرسول بالقرآن كله، ولَبثَ مع النبى ثلاثة وعشرين عامًا يُسدِّد خُطاه، وينقل إليه نعمة الله.. هل كان إلا ملكًا كريمًا..؟

ولقد رأى الرسول الملائكة كثيرًا، فهم قادرون على التجسد عندما يشاءون.

خرج عليه السلام يومًا وراء جنازة أحد المسلمين وكان مُجهَدًا، فجيء له بدابة يركبها فأبى.. ولما سئل فيما بعد عن سبب رفضه الركوب قال:

إن الملائكة كانت تمشى؛ فلم أكن لأركب وهم يمشون".

ولقد قاتل معه الملائكة يوم بدر فاتحة معارك الإسلام، وأكد القرآن هذا المشهد فى آياته..

ولقد رأى "جبريل" عليه السلام أكثر من مرة، وفى أكثر من تجسد وصورة.

ويبدو أن بعض الأرواح الخيرة الطاهرة من البشر المؤمنين، تتحول فى البرزخ وعند الله سبحانه إلى شىء شبيه بالملائكة، أو يُؤذن لها أن تشارك الملائكة بعض نشاطهم وتساميهم.

يقول عليه السلام عن الشهيد العظيم "جعفر بن أبى طالب" رضى الله عنه:

ـ "رأيت جعفر بن أبى طالب ملكًا يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين"..!!!

وإن كثيرًا من ملائكة الله ليعملون بأمره سبحانه فى حفظ المؤمنين على الأرض، وفى تزكية نفوسهم، ومباركة جهودهم، وتسديد أفكارهم وخطاهم.. عن طريق المشاركة غير المنظورة والإلهام الحكيم..

كذلك حدثنا الرسول عن البعث بعد الموت، وجعل الإيمان به حتمًا وفرضًا.

إن عظمة الإيمان ماثلة فى إيمانك بالغيب الذى أخبرك به المرسلون.. ففى الإيمان بالغيب اعتراف نبيل وجليل بقدرة الله ويعظمته وبصدق كلماته.. على أن الرسول عليه السلام حين طُلبَ إليه أن يقيم دليلاً مُقْنِعًا على البعث، اختار الدليل بديهة من البدائه الرائعة والباهرة، سأله سائل يومًا:

ـ "كيف يبعث الله الموتى؟ وما آية ذلك..؟".

فقال الرسول للسائل:

"أما مَرْرتَ بوادى قومك جَدْبًا".؟

"ثم مررت به يهتز خَضرًا"..؟

فتلك آية الله فى خلقه، وكذلك يبعث الله الموتى"..!!!

إنه يريد أن يقول له ولنا: هل رأيت مثلاً بذرة ما؟ حبة ذرة مثلاً.. أو حبة قمح.. ما هى وما شكلها..؟ إنه جزء صغير تافه من جماد لا حركة فيه ولا حياة.. ومع ذلك، فإنها لا تلبث بعد دفنها فى الأرض المجدبة حتى تشق الأرض شقًا وتبزغ من تحت ترابها وطينها نباتة خضراء تتألق حياة، ثم ساقًا أو عودًا يحمل، لا الحبة الواحدة التى ألقيت فى الأرض.. بل يحمل مئات الحبات فى نضدٍ عظيم..!!

إن الذى بعث الحبة الجافة اليابسة الميتة فى هذا الخلق العجيب قادر على أن يحيى الموتى.. ويبدو أن الرسول عليه السلام، لا يضرب بَعْث الحبة مثلاً لبعث الإنسان بأسلوب مجازى يبتغى به تقريب الواقع أو تسديد الاقتناع فحسب.. بل يضربه كصورة

مطابقة لما سيحدث للإنسان عند بعثه ونشوره.

فكما أن شجرة المانجو لن تتسامق عالية مثمرة إلا منبعثة من بعض بقاياها القديمة، وهى بذرة المانجو.. وكما أن عود القمح بسنابله لا يرده إلى الحياة إلا حبة واحدة تطويها الأرض تحت ثراها.. فكذلك الإنسان ـ كل إنسان.. كل فرد إنسانى ـ لابد أن يبقى من جسده "بذرة" ينبعث منها خلقه الجديد يوم يبعث الله من فى القبور..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن فى الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يُركَّب الخلق يوم القيامة.

"قالوا: أى عظم هو، يا رسول الله..؟

"قال: عَجْب الذَّنَب".

ويزيد المعنى توضيحًا فى حديث آخر:

"يأكل التراب كل شىء من الإنسان، إلا عَجْب ذَنَبه".

"قيل: وما هو يا رسول الله..؟

"قال: مثل حبة خردل.. منه تنشأون.."

و"عَجْب الذنب، هو عظمة فى أدنى الصُلب، وعند منتهى العمود الفقرى..

وهكذا يضعنا الرسول أمام واقع، أو على الأقل أمام مثال فى قوة الحقيقة والواقع.

فهنا حبة قمح جافة ميتة، يبعث الله منها كائنًا يهتز خُضرة وبهجة وحياة..!!

وهنا "عَجْبُ ذَنَب" عظمة جافة ميتة يبعث الله منها إنسانًا يتفجر حياة..!!

ثم لماذا نستبعد بعث الإنسان على الله.. ولا نستبعد خلقه.. مع أن الغرابة والإعجاز فى الأمرين واحد..؟ فمن قطرة ماء خلقك أول مرة.. ومن عظمة صماء يبعثك مرة أخرى..!!

إن الأمر فى منتهى اليسر عندما يشاء الله..

وإنا لنشهد عمليتى الموت والبعث كل يوم. ولكننا عنهما غافلون فليذكّرنا الرسول إذن فيقول:

"والذى نفسى بيده، لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون..

"ولتجزون بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا".

كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نُبعث.. ومن كان فى شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم؛ وبلا استيقاظ.

* * *

وفى ختام حديثه عن الإيمان، حدثنا عليه الصلاة والسلام عن القدر..

".. وتؤمن بالقدر ـ خيره،وشره".

والإيمان بالقدر موصول العُرى بالإيمان الحق بوجود الله وبألوهته وحده، وبقدرته الكاملة على كل شىء.

وصدق سبحانه إذ يقول:

﴿ إنما أمْرُنا لِشَىءٍ إذا أرَدْنَاهُ، أن نَقُولَ له كُن فَيَكُون .﴾

وهذا الإيمان ليس مَدْعاةَ تثبيط وتواكُل. بل إنه لَيُفىء على صاحبه قوة عارمة لا تبقى على صعب إلا ذللته.. ولا مستحيل إلا قهرته.

ذلك أنك حين تؤمن كما قال الرسول:

"أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك"..

فإنك آنئذ تستطيع ـ ما دمت ماضيًا على الطريق المستقيم ـ أن تعمل بطاقة قوية.. ولم لا..؟ وأنت ساعتها إنما تستمد ثقتك وعزمك واقتدارك من مالك القوة جميعها، رب الأرض والسماء..؟

* * *

إن من يتم له هذا الإيمان بالله، وبملائكته، وبرسله، وبكتبه، وباليوم الآخر، وبالقدر.. سيكون علاقته بالله، وبالغيب العظيم كله قد وجدت عافيتها ونورها.. وسيكون عليه آنئذ أن يتهيأ لأعظم هجرة فى وجودنا الإنسانى بأسره.. وهى ليست هجرة من مكان إلى مكان ـ بلْ هجرة إلى الله..!!

إلى رحابه.. إلى الملأ الأعلى من أحبابه.. مع خاتم رسله الداعى إليه بخاتم الكتب ـ القرآن .. وبخاتم الأديان ـ الإسلام..

"إن الإسلام بنى على خمس.

"شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان".

يقول عليه السلام:

"المهاجر من هَجر ما نهى الله عنه".

ويسأله سائل:

"يا رسول الله: أيُّ الهجرة أفضل..؟

"فيجيبه عليه السلام: أن تَهجر ما يكرهُ ربك".

فالهجرة إلى الله بالروح وبالإرادة، وبالعمل الصالح والقلب السليم - هى أولى ثمار الإيمان.. وفى نفس الوقت أولى ضمانات بقائه ونمائه..

ذلك أن فتن الحياة الدنيا لا تَفتأ تُغرى وتُضِلُّ.. وإنها دائمًا لفى مزيد..

يقول عليه السلام:

"إن من ورائكم أيامًا، الصبرُ فيهن - أى - على طاعة الله - كالقبض على الجمر.. للعامل فيهن - أى بطاعة الله - مثل أجر خمسين.

"قال بعض أصحابه: يا رسول الله: آجر خمسين منا أم منهم..؟

"قال: بل أجر خمسين منكم".

فهذا الواقع الذى يتراءى للرسول، مُصوراً تفَاقُم السوء وزحف المغريات، وتطاول أعناق الفتن - ينادى المؤمنين الراغبين فى أن يظلوا فى حِمىَ الله إلى الهجرة الدائمة إليه.

وكلما تكاثرت الفتن، واستشرت ضراوة الشهوات، كانت الدعوة إلى الهجرة أكثر إلحاحًا.

ومرة أخرى، ليست الهجرة هنا هجرة من مكان إلى مكان.. بل هجرة إلى الله بعمل صالح وقلب سليم.

يقول عليه السلام:

"الهجرة هجرتان: هجرة الحاضر، وهجرة البادى.

"فهجرة البادى - أى - ساكن البادية أو الريف - أن يُجيب إذا دُعى.. ويُطيع إذا أمر..

"وهجرة الحاضر - أى ساكن الحضر والمدينة - أعظمها بلية.. وأفضلها

أجرًا "..!!

إنه عليه صلاة الله وسلامه ـ يدرك ما يعانيه العائشون فى قلب المدن الزاخرة من تواثب المغريات والشهوات عليهم وعلى ما معهم من إيمان وتقوى.

من أجل هذا ، فحاجتهم إلى هجرة الروح أدعى وألزم، وذلك يكون بإسلام الوجه والقلب إلى الله فى عبادة خالصة ـ ليس شرطًا أن تكون كثيرة.. وإنما الشرط أن تكون دائمة وخالصة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن أحب الأعمال إلى الله أدومُها وإن قَلَ.."

فالهجرة إلى الله بالمعنى الذى أبانه الرسول عليه السلام، متوسلة بالإحسان فى عبادته ـ هو السبيل الذى يدعونا إليه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لنقيم مع ربنا وبارئنا أفضل العلاقات وأتقاها وأسماها..

ولقد دعانا إلى ذلك بأحاديثه وتوجيهاته.. وقبل الأحاديث والتوجيهات دعانا بالقدوة الحسنة التى تجلى فيها ولاؤه المطلق لله، والتى أعطى بها من المثل الأعلى ما لا نظير له ولا مزيد بعده..!

لقد أسلم وجهه لله، كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وجعل له سبحانه، صلاته ونسكه، ومحياه ومماته، وأتْرَع كل لحظات وجوده وحياته بذكره وحمده وتمجيده ـ فلم يكن يصبح أو يمسى.. يعقد أو يمشى.. ينام أو يصحو.. يتحرك أو يسكن..لم يكن فى ليله ونهاره، فى سره وعلانيته، فى جهاده ونسكه إلا قانتًا أوَّابًا يحيا بالله ومعه، لا يرنو لغير جلاله ولا تقع عينه إلا على آياته وآلائه، ولا يتألق فى خاطره إلا سنا بهائه ونور جلاله.

"اللهم ربنا لك الحمد..

"ملءَ السماوات، وملء الأرض..

"وملء ما بينهما..

"وملء ما شئت من شىء بعد..

"أهلَ الثناء والمجد..

"أحقُّ ما قال العبد، وكلنا لك عبد..

"لا مانع لما أعطيت..

"ولا مُعْطى لما منعت.."

"ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ؟؟."

في أي سماء عالية كانت علاقة الرسول بربه تُحلِّق.؟؟ وبأى هُيام كانت تغرد وتُمجِّد..؟؟

هو ذا، إمام المحبين، وإمام العارفين، يتأنق في ابتهالاته وضَراعاته تأنُّق المحبور المشتاق.

ألم يكن يكفيه أن يقول: "اللهم ربنا لك الحمد.. كل الحمد"، ثم يكررها كما يشاء..؟ بلى ـ كان يكفى؛ ولكن حبه الدافق.. الزاخر والفياض يأبى إلا التعبير عن فُيوضه بأقصى ما يملك المنطق الإنسانى من إيضاح وتفصيل.. وبأقصى ما يملك الحساب من عدد ومدد..!!

"اللهم ربنا لك الحمد"..

كم..؟ وأيَّان..؟

"ملءَ السماوات"

لكن السماوات لا تكفي روحه المأخوذة بجلال ربها وحبه، فهى تبغى المزيد..

"وملء الأرض"..

والأرض أيضًا لا تكفى.. فليكن المزيد!!

"وملء ما شئت من شيء بعد"..

إنه يريد أن يُعطر الكون كله، يملأه كله ـ ما هو كائن منه وما سوف يكون ـ بحمد الله وتمجيده؛ لأنه وحده:

"أهل الثناء والمجد"..!

ثم لا يكاد عليه السلام يقول: "أحقُّ ما قال العبد"، حتى يعقبها بتخصيص تذوب كلماته حبًّا وشوقًا وعبودية وإخباتًا، فيقول:

"وكُلُّنا لك عَبد"..!!

لقد كان عليه السلام يرفع إلى ربه هذا الحمد فى الصلاة، وبعد أن ينهض قائمًا من ركوعه الطويل الذى كان يستغرقه استغراقًا كليًّا وهو يسبح ربه ويقول "سبحان ربى

العظيم".

إنه يعرف الله حق معرفته.. ويعلم أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وإليه يرجع الأمر كله.

من أجل هذا، فهو إذ يمجده، وإذ يدعونا لتمجيده، إنما يريد تمجيداً بِسَعةِ هذا الكون، وعددِ ما فيه من خلق ربنا ونعمته.. ثم بعد هذا يقول ويأمرنا أن نقول لله عز وجل.

"لا نُحصى ثناءً عليك..

"أنت كما أثنيت على نفسك"!!

إنه - كما رأينا - يذكر الله ويثني عليه، ويريدنا أن نذكر الله ونثنى عليه بأقصى ما فى الحساب من أعداد وأمداد..

انظروا:

"سبحان الله، وبحمده..

عدد خلقه..

ورضا نفسه..

وزنة عرشه..

ومداد كلماته.."

إن هذا التخصيص بالنوع وبالعدد لا يصور المبالغة فى تمجيد الله. بل يصور العجز عن وجود الكلمات والأدوات التى يُمجَّدُ بها سبحانه كما ينبغى له أن يمجد.. وهى لا ترتل آيات حمده وحسب، بل وتَصْدَع فى إقرار مطلق بأنه صاحب الملك كله ذو الجلال والإكرام.

"اللهم إنى أصبحت أشهدك..

"وأشهد حملة عرشك.. وملائكتك.. وجميع خلقك.. أنك أنت الله وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك"..

هو وحده، ولا شريك له.

وتلك هى القضية.. وهذا أول نور ننسج منه علاقتنا الوثقى بربنا الذى لا شريك معه ولا كفء له.. فالرسول عليه السلام يريد لعلاقة المؤمن بربه أن تكون ممثلة لحقيقة إيمانه

ويقينه، وأن تكون قلبا مفعما بحضور الله، وروحا محبورة بالشوق إليه، وكيانا مسلما ذاته لله رب العالمين.. ها هو ذا يقول، ويعلمنا أن نقول:

"اللهم أسلمت نفسى إليك..
ووجهت وجهى إليك..
وألجأت ظهرى إليك..
رغبة ورهبة إليك..
لا ملجأ، ولا منجى منك إلا إليك..
آمنت بكتابك الذى أنزلت..
وبنبيك الذى أرسلت"..

إن إسلام النفس إليه، وتوجيه الوجه إليه - رغبة فى رضوانه ورهبة من سخطه مع الإيمان الواثق بأنه لا ملجأ منه إلا إليه - كل هذا يعنى حين يصدر من قلب خاشع صادق متبتل أن صاحبه قد عرف الله. وإذن فعليه أن يحمل تبعات الرشد التى تفيئها معرفة الله.

إن معرفة الله تعنى اليقين بأنه الإله الواحد الأحد الذى لا إله غيره.

وتعنى اليقين بأنه خالق كل شىء ومالك كل شىء..

وتعنى الرغبة المشتاقة، والحرص الوثيق على طاعته وعبادته والتماس رضاه..

وهذا كله يعنى من جديد توحيده..

والتوحيد الذى تقوم به علاقة الروح ببارئها لا يتمثل وحسب فى شهادة أن لا إله إلا الله..

إن هذه الشهادة بالقلب وعلى اللسان إنما تمثل وثيقة الانتماء إلى عالم الإيمان والمؤمنين.. هى (شهادة جنسية) تحدد نوع المواطنة بالنسبة لحاملها وصاحبها.. تحدد انتماءه لوطن ما.. لكنها لا تحدد وحدها مدى ولائه لهذا الوطن، ولا مدى حبه وأمانته وإخلاصه..

وهنا، ونحن نبحث فى كلمات الرسول وأحاديثه عما يزكى علاقتنا بالله ويصححها، ويهبها العافية والنور والتقى، تدرك فى يسر جوهر توحيد الله وحقيقته.

إنه ماثل فى كلمات الرسول هذه:

"أسلمت نفسي إليك

"ووجهت وجي إليك

"وألجأت ظهري إليك".

تجرد كامل لملاقاته والاتجاه إليه.. فليس ثمة ما يشغل عنه أبدا..

لا اختيار؛ لأنه أسلم نفسه إليه..

ولا مطمح؛ لأنه وجه وجهه إليه..

ولا مخافة؛ لأنه ألجأ ظهره إليه..

وإذن فالأعمال كلها والطاعات كلها إنما تتجه في استحياء وخشوع وتقوى إليه وحده.. لا تلفت ذات اليمين ولا ذات الشمال بحثا عن غيره يرغب؛ لأنه ليس هناك في بهائه وجلاله سواه.

ومن لم يملأ الله عينه ونفسه وروعه؛ فقد خسر نفسه.. ومن جعل بعض عمله له، وبعضه لغيره؛ فقد خسر عمله.. ومن كرس حياته له، ولغيره معه؛ فقد خسر حياته.. هكذا يعلمنا الرسول الأمين فيقول:

"يقول الله تعالى في حديث قدسي:

"أنا أغنى الشركاء عن الشرك".

عبارة وجيزة، لكنها فاصلة كالسيف المرهف.. فالله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك، فإذا لم يكفك وحده فاذهب إلى من شئت.. أما أن تجعل له شريكا من هوى تهواه.. أو أحدا من خلقه تخافه وترجوه؛ فذلك دنس يغلق في وجهك الأبواب.. وبهتان تسقط به دعوى إيمانك وتوحيدك.

إن التوحيد يتطلب منك أن تكون كل أعمالك وقرباتك خالصة لوجه ذي الجلال والإكرام.

فالإخلاص فيما تقوله لله.. وفيما تعمله من طاعة الله. وفي مشاعرك تجاه الله.. هو روح علاقتك بالله..!!

إذا رأيت نفسك، أو رأيت غيرك في عمل من شأنه أن يكون لله وحده؛ جاءك النداء الرهيب:

"أنا أغنى الشركاء عن الشرك".

إن علاقتك بالله، يجب أن تكون محررة لله رب العالمين.. وكل الطاعات والعبادات التى تنبع منها يجب أن تكون خالصة لوجه الله وجلاله. متجردة له..

إن هذا التجرد من كل الشوائب والتطلعات يجعل علاقتك بالله فى مستوى القبول والرعاية التى يمنحها سبحانه عباده المخلصين الأخيار، ويجعل منك عبدا "ربانيا"، ونورا يمشى بين الناس..!

يقول عليه الصلاة والسلام:

"طوبى للمخلصين.

"أولئك مصابيح الهدى، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء"

* * *

إنك حين ترسل بهدية إلى من تحب، أو إلى من ترجو نفعه وتخاف ضره، فإنك تتحراها من أجود وأنقى ما تملك وتستطيع وبقدر ما يتقبلها هو بالغبطة والشكر يكون حبورك وسعادتك.. أما إذا حدث لأمر ما أن رفضها فكم يكون جزعك صاعقا وأليما ؟؟

وإن الأعمال التى تتقرب بها إلى الله سواء كانت مناسك، أو أخلاقا، أو عطاء.. لتتبوأ عنده سبحانه مقاما كريما حتى حين يكون باعثها الخوف منه، ما دامت خالصة لوجهه الكريم، لكنها لا تجد هذا المقام ولا بعضا منه، إذا كانت لله ولغيره معه..

يقول الرسول الكريم:

"إن الله - عز وجل - لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا، وابتغى به وجهه".

فنوع العمل - لا عدده ولا كمه هو الذى يعطيه درجة التفوق والقبول.

ووجهة العمل هى التى تفتح له الباب، أو ترده خائبا مدحورا.

إن لربنا من الجلال ما يجعله يرفض الثنائية فى الاتجاه إليه، حتى حين يكون ذلك الثانى موضع حبه ورضاه.

يقول عليه السلام:

"يا أيها الناس..

"أخلصوا أعمالكم، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا

ما خلص له ..

"ولا تقولوا: هذه لله، وللرَّحِم؛ فإنها للرحم وليس لله منها شيء.

"ولا تقولوا: هذه لله، ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء" ..!!!

لكم أوصى الله بالرحم، وقدس حقوقها حتى قال فى حديث قدسى:

"أنا الرحمن.. خلقت الرحم، وشققتُ لها اسمًا من اسمى" ..

ومع هذا؛ فحتى هذا الذى اشتق له اسمًا من اسمه لا مكان له فى وجهة أى عمل نرفعه إلى الله..!

إن المسألة ليست مسألة الإخلاص فحسب - فمن الممكن وجود الإخلاص وراء عمل يُراد به وجه الله وخير الرحم.. إنما القضية قضية توحيد..

فهل نحن مُوحِّدون الله حقًّا..؟ وهل تقوم علاقتنا به سبحانه على توحيدٍ خالص له.؟ وتجرُّد كامل لهذا التوحيد..؟هذا هو ما يدعو إليه الرسول؛ لأن هذا ما يريده الله من عباده. وما ينادى به القرآن، ويهتف به الإسلام.

وحين تسطع فى القلب أنوار هذا التوحيد؛ فإن أى عمل للمؤمن حتى إزاحة حصاة من الطريق، لن يجد له اتجاهًا ولا قبلة سوى الله..!

والله سبحانه إذا كان يريد من أعمالنا وعبادتنا أن تجىء معبرة عن توحيده الحق، فليس ذلك لأنها تزيد فى جلاله أو فى ملكه شيئًا. بل لأنها تزيد فى إيماننا وترفع من مقدرتنا على السيادة الفاضلة على أنفسنا وعلى الحياة..

من أجل هذا، كان توحيد الله فيما نعمل ونعبد، أى كان الإخلاص لوجهه الكريم ضرورة أكثر من العمل ومن العبادة - لأن هذا الإخلاص هو الذى يغير أنفسنا إلى أفضل، وهو الذى يهب أرواحنا تلك السيادة المرجوة.

إن من المعلوم بَداهَةً أن الله غنى عن العالمين، وأنه جل جلاله وعز جاهه لا يناله عمل أو عبادة، وإنما كما ذكر القرآن الكريم:

﴿ يَنَالُه التقوى مِنكُم ﴾

وهو فَرِحٌ بتقوانا، لا لأنها رصيد له.. بل رَصيدٌ لنا.. ومعراج لتفوقنا الروحى الذى

يريده الله منا لصالحنا نحن ولحساب مصيرنا..

من أجل هذا، لم يكن يعنيه من العمل مهما عظم وضخم إلا روحه.. إلا هذا التيار الخفى والخَفىّ الذى يكشف عن مدى توحيدنا الله فيما نعمل وفيما نعبد.

ولهذا يخبرنا الرسول عليه السلام أن ثَمَّة أعمالاً صالحة لم يأتها الإنسان قط. ثم هو يجدها عند الله بكل ثوابها ونعمتها ـ كتلك الأعمال التى يتمناها الإنسان ابتغاء وجه ربه، لكن ظروفه لا تسعفه بإنجازها.

فهذا الذى يتمنَّى أن يصلح بين متخاصمين.. أو يدفع ظلمًا عن مظلوم، أو يفرج كربة مكروب، أو ينشىء للخير مؤسسة، أو ينجز أيًا من الأعمال النافعة والقربات المطلوبة، لا لشىء إلا ليقدم إلى الله هدية وتحية مخلصًا له الوجهة والنية والعمل.. ثم لا يجد لما يتمنى سبيلاً، يلقى الله وفى صحيفته كل هذا الذى وَدَّه وتنماه..

لماذا ..؟ لأنه بنواياه الطيبة وحَّد الله وعرف قدره وأخلص له وأسلم إليه أمره..

وفى هذا يقول عليه السلام:

"إنما الدنيا لأربعة نفر..

ـ "عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقى فيه ربه، ويَصِلُ فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل.."

ـ "وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان ـ فهو بنيته وأجرهما سواء.."

ـ "وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا فهو يخبط فى ماله بغير علم ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقًا ـ فهذا بأخبث المنازل..

ـ "وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول: لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان ـ فهو بنيته ووزرهما سواء.."

فهنا فريقان من الناس:

أولهما ـ تهفو إلى الخير نفسه، لكنه لا يجد إليه سبيلاً. فله من الأجر مثل الذين عملوا سواء بسواء..

وثانيهما - تهفو إلى السوء نفسه، ولا يجد إليه سبيلاً، فعليه بنواياه هذه لا عقابًا - فإن الله برحمته لا يعاقب على سريرة لم تتحول إلى ذنب - بل بوارًا تُصاب به علاقته بربه وتَخلّيًا من الله عنه.. وكَمْ في هذا وحده من عذاب وعقاب..!!!

لقد شرع الله العبادات والقربات لتكون الوسيلة لإحياء الإنسان وإمداد روحه بنضرة التوحيد ونوره، ومن ثم كانت المسافة بين نوايانا ورضوانه، أقرب من المسافة بين أعمالنا ورضوانه.. يقول النبى عليه السلام:

"يقول الله عز وجل لملائكته: إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها - أى سيئة واحدة.. وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة..

"وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة"..!!

إنه توحيد الله توحيداً يجرد بواعثنا وحوافزنا من الرغبة إلا إليه، ومن الرهبة إلا منه - هو الذى يسبر غور أعمالنا ويزن قيمتها.

فبمجرد أن تنوى الخير ابتغاء وجهه، يكتب لك ثواب الخير على الفور حتى وإن حيل بينك وبين فعله..!

ذلك لأن الغاية من الفعل قد أدركت، وهى رؤيتك الله وحده لا شريك له حين تبتّلت إليه قلبك وبنواياك، هنالك استقامت عقيدتك واستقام طريقك، وأدركتك التقوى التى يريدها الله لعباده.

* * *

وتوحيد الله على هذا النحو، يمنحنا مقدرة لا تنتهى.. لماذا ؟ لأن توحيده هذا يعنى اليقين بأنه لا مُعقّب لحكمه ولا رادّ لأمره.. يعنى أنه وحده واهب القوة ومانح التوفيق.. يعنى أنه وحده الضار والنافع.. وإذن فليس لمن وحّده وآمن به أن يخاف شيئًا، أو يُجفِلَ أمام خطر، أو يهرب من تبعة، أو يركن إلى قوته التى تخبو وتغيض.

إن تجريد أعمالنا، وتكريس حياتنا لله تصحح توحيدنا له وتؤكد لُجوءنا إليه، وتعنى تصميمنا المبارك الميمون على أن نجعل من أنفسنا أهلاً لحبه ورضاه.. وأهلاً

لعبادته ونعمته..

وعندئذ نجد الطريق إليه مفتوحًا رَحبًا تنادينا إليه الآية الكريمة:

﴿ إن الله يحب التوابِينَ، ويُحِبُ المُتَطَهِرِين ﴾.

* * *

أجل.. فبالتوبة الصادقة النصوح تجد علاقتنا بالله مفتاح الطريق، وبها تتلقى من الله العلى المجيد بُشرى الصلاح والقبول.

ويعلمنا الرسول ﷺ أن التوبة، عزم رشيد على خلع كل أوثان النفس والهوى والحياة.. وتطهُرٌ جميل من كل المعاصى وأدرانها، والآثام وأثقالها، والشهوات وأباطيلها..

"هى لُجوء إلى الله، واحتماء بحماه..

هى بُرْءٌ جميل وجليل من الإثم والفسوق والعصيان.. واتجاه بالروح وبالنفس وبالعمل إلى مغفرة الله ورضوانه..

ويلازم التوبة استغفار دائم إلى الله الغفور الرحيم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"طوبى لمن وُجدَ فى صحيفته استغفار كثير"..!!

ويُقسم عليه الصلاة والسلام ـ هو الذى لا يعرف له ذنب قط ـ فيقول:

"والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة".

ذلك أن الاستغفار، ليس فقط لتطهير النفس من الذنب.. بل ولتطهيرها من العُجب..

وحين لا يكون ثمة ذنب ولا عُجب، كما هو شأن الرسول الكريم يكون الاستغفار إقرارًا بجلال الرب وضراعة العبد. وهو مقام يجد فيه المرسلون والصدّيقون من حلاوة الرضا ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذُن سَمِعتْ ولا خطر على قلب بشر..!!

ثم إن الاستغفار كما يعلمنا الرسول عليه السلام يمثل دعاءً مستجابًا، حتى ولو لم يُضمّنه المرء حاجته.

يقول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم:

"من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرَجًا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه

من حيث لا يحتسب".

كما أنه الضمان أن يظل القلب كالمرآة المجلوّة تتألق على صفائه ونقائه رؤى الجلال والحق.

يقول عليه السلام:

"إن للقلوب صَدأ كصدإ النحاس، وجلاؤها الاستغفار"..

وعلاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التى تفرضها، وللسلوك الذى نحمل به هذه التبعات.

إننا فى حياتنا الدنيا، ومع الذين نحبهم أو نخافهم، نُراجع باستمرارٍ مع أنفسنا سلوكنا تجاههم، ولا نكاد ننتهى من لقاءٍ لنا معهم، حتى نستعيد الحديث الذى دار بيننا وبينهم باحثين عما عسانا نكون قد قارفناه من لحن أو خطأ..

فحديثك إلى الله، وسلوكك مع الله، وأفكارك عن الله، ومشاعرك تجاه الله - كل هذه التى تشكل علاقتك بالله سبحانه، لا بد أن تكون موضع تساؤل ومُراجعة، حتى لا ترين عليها أخطاء مقصودة، أو تشوبها أخطاء طارئة.

من أجل ذلك أوصى الرسول عليه السلام بالتوبة.. فالتوبة هى هذه المراجعة التى تكشف عوائق تقدمنا الروحى وأخطاء سلوكنا، فتدرك ذلك كله بالإنابة، والتصحيح والرجوع إلى الحق الذى يريده الله، والخير الذى يرضاه..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"اتق الله حيثما كنت..

"وأتبع السيئة الحسنة تَمحُها..

"وخالق الناس بخلق حسن".

فلنتأمل قوله عليه السلام:

"وأتبع السيئة الحسنة تُمحُها".

نعرف منها جوهر المراجعة التى يعطيها الرسول اسم "التوبة" وحقيقتها..

فهى ليست مراجعة نظرية، أو تأملا فلسفيًا.. إنما هى تصحيح سريع وفورى لكل خطأ.. ومُتابعة مُتساوقة متلاحقة لكل سيئة.

وهذه هى "التوبة" التى يأمر بها الرسول ويراها ضرورية لبقاء علاقتنا بالله

ناضرة وطاهرة.

إن حاجتنا إلى التوبة نابعة من طبيعتنا البشرية - فطبيعتنا قابلة للخطأ، بل صانعة له، وإن الأخطاء لتتفصد منها كما يتفصد العرق من مسام الجسد..

ويبدأ الرسول ترويض النفس بإنقاذها من الانسحاق تحت وطأة الذنب، وفي نفس الوقت بإنقاذها من الإصرار عليه.

يقول عليه السلام:

"كل بني آدم خطاء

وخير الخطائين التوابون".

فالمهم في موقفنا من الخطايا ألا ندعها تتراكم وتتغلق علينا حلقة بعد حلقة، ضاربة بكثرتها حصارا قاسيا ومميتا حولنا.. بل نعالجها أولا فأولا..

يقول عليه السلام:

"إذا أسأت فأحسن..

وأحدث لكل ذنب توبة".

يقول:

"إن مثل الذي يعمل السيئات، ثم يعمل الحسنات، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى، حتى تخرج إلى الأرض".

ولا يتأتى أن تكون الحسنة حسنة إلا إذا كانت تغييرا للسيئة التي ارتكبت فالذي يسرق - مثلا - ثم يتصدق ويحسن، لا تكون الصدقة الحسنة الماحية لجريمة السرقة، إنما يمحوها النزوع عنها ورد الحقوق إلى ذويها، ثم يضاعف محو آثارها بعد ذلك فعل الخير في شتى صوره وأشكاله، أما أن يبقى الإنسان سادرا مع ذنبه ممنيا نفسه بأن له حسنات أخرى ستحل وثاقه، فهنا الخطأ المميت..!!

صحيح أن الله سبحانه لن يبخسك حقك في حسنة واحدة تأتيها ولكن صحيح أيضا أنه لن يتسامح معك في إصرارك على خطيئة أو خطايا يمقتها ولا يرتضيها..

وعلى هذه الحقيقة يفتح الرسول أعيننا فيقول:

"إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كان نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب، ونزع، واستغفر، صقل منها.. وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه.. فذلك هو الران

الذى ذكره الله فى كتابه فقال: "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون".

فهنا لا بد - كما يذكر الرسول - من توبة، ونزوع، واستغفار.

ويجيء النزوع قبل الاستغفار، لأن التغيير الحقيقى هو جوهر التوبة والاستغفار.

أما حركة اللسان بكلمات الاستغفار مهما تكن كثرتها دون عمل جاد لمحق الخطيئة والإقلاع عنها - فعمل غير صالح، يقول عنه الرسول عليه السلام:

"المستغفر من الذنب، وهو يقيم عليه كالمستهزئ بربه.."

نعوذ بوجه ربنا الكريم وبسلطانه العظيم.

* * *

ويوصى الرسول أن يكون النزوع ظاهرا وباطنا.. نزوع عن الفعل، والهوى.. نزوع عن الذنب ذاته ونزوع عن مجرد الرغبة فيه..

وقد يجد الإنسان الإرادة القاهرة التى تحمله على تجنب إثم ما.. ولكن أنى له أن يمحوه من تلافيف النفس وقيعان الرغبة..؟؟

هنا يدلنا الرسول الكريم على الطريق..

إن اشتهاء الذنب، أو مجرد الرغبة فيه، أو لا مبالاة شعورنا بخطره - حالة نفسية، أى أنها تدور داخل النفس دون أن - تأخذ جوارحنا فيه دور التنفيذ والعمل.

وإذن، فعلاج هذا الموقف النفسى، يكون بموقف نفسى مثله.. فماذا يكون..؟

إنه الندم على ما كان، بصورة تجعل النفس تشمئز منه، وتود لو كان بينه وبينها بعد المشرقين..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"الندم توبة"

ويقول:

"النادم ينتظر من الله الرحمة".

بيد أن الرسول عليه السلام حين يعالج الذنوب بالندم، فإنما يريد من الندم ابتداره.. لا اجتراره..!!

أجل - إنه يريد الندم الذى نبادر به خطايانا فور وقوعها، وفور تذكرنا لها، وفور كل اشتهاء عارض من النفس إياها.. لكن لا يريده اجترارا مضنيا، ينسينا الرجاء فى رحمته والشوق إلى عافيته.

إنه لا بد من الندم كعلاج لِتطلُّعات النفس الأمارة بالسوء.. ولا بد - أيضًا - من استخدامه برفق وحكمة.

عندما نستخدم الكي بالنار كعلاج ضروري لبعض آفات البدن، فإننا نستخدمه كالومض الخاطف، أما إذا حسبنا أن الشفاء في الإكثار مجرد الإكثار، فإن ذلك كفيل بحرق البدن وقتل المريض..!!

فالندم بالحكمة في استخدامه، لا بالكثرة المميتة، علاج تطلعات النفس الأمارة.

وهو حين يتم بهذه الحكمة يكون نعمة لا نقمة، ورحمة لا عذابًا، وهذا معنى قول الرسول:

"النادم، ينتظر من الله الرحمة..

"والمعجب ينتظر المقت"..!!

ومع الندم، يوصي الرسول بالرجاء حتى يحقق مزيجها عافية النفس وتقاها:

وهذا الرجاء الذي تهبُّ نسائمه الحانية من أحاديث الرسول ليس أمنية عاطلة، بل وعدًا ناجزًا وحقيقة قائمة، وهو وعد من الله في آيات كتابه وعلى لسان رسوله بالعفو والمغفرة والعافية لمن يزكي علاقته بالله بتوبة خالصة يطرح بها أرضًا كل مُوبِقَه تُوبِقُه، وكل إثم يسحقه. يقول لنا حبيب الله ورسوله:

"التائب من الذنب، كمن لا ذنب له".

سبحان ربنا الحليم الكريم.. التائب من الذنب، يعود كما ولدته أمه طاهرًا، ناضرًا معافى..!!

ثم ماذا؟ يا رسول الله..؟؟

"إذا تاب العبد من ذنوبه، أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب"..!!

هذا مَحْوٌ كامل لآثار الجريمة والذنب.

إن القرآن الكريم يقول:

﴿ يَومَ تَشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيْدِيهم وأرْجلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلون ﴾.

أى أنه ليس هناك عمل سيئ نفلت من عقابه، بل ولا نقدر على إنكاره ـ فثَمَّ شهود منا علينا.. ألسنتنا.. أيدينا.. أرجلنا.. أبصارنا وأسماعنا.. كل جوارحنا يدعوها الرقيب الحسيب القادر المقتدر يوم القيامة أن تتقدم لتتكلم، فتشهد علينا بكل ما اجترحنا، حتى هذا الذى نسيناه.. جوارحنا لا تنساه ولا تخطئه.

يقول ربنا فى قرآنه الكريم.

﴿ أحصَاهُ الله، ونَسوه ﴾.

لكن التوبة كما يحدثنا القرآن، وكما رأينا فى الحديث السالف لرسول الله، كفيلة إذا كانت صادقة بأن تضع عنا شهادة هؤلاء الشهود العدول..

"أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه..

وأنسى ذلك جوارحه، ومعالمه من الأرض، حتى يلقى الله وليس عليه شاهد من الله بذنب".

وليس ذلك فحسب..

بل إن القرآن ليَغمرُنا بالبشرى حين يقول عن التوابين:

﴿ فأولئِكَ يُبَدِّلُ الله سيئاتهم حسنات ﴾.

* * *

ويحدثنا الرسول عن حب الله للتوبة وللتائبين حديثًا يجعل الأفئدة تطير هُيامًا بالتوبة وشوقًا إليها.

يقول عليه السلام:

"إن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار..

"ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مُسيءُ الليل.

بل أكثر من هذا يقول عليه صلاة الله وسلامه:

"والذى نفسى بيده، لو لم تُذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم".

إلى هذا المدى المذهل يحب الله أن يكون غفورًا، وأن يكون توابًا شكورًا..

فلماذا ؟ أهو يشبع بذلك حاجة فى نفسه..؟ حاشاه، فهو الغنى الحميد، وهو الكبير المتعال.

إنما يشبع حاجات فى أنفس عباده حين يخبرهم أن كل أبوابه مفتحة لهم حين يرجعون.. وكل رحمته سابغة عليهم حين يطلبون..

فإذا أقلقهم الخوف من عدله، طمأنهم الرجاء فى فضله.. ولا بأس أبدا مهما تكثر الذنوب وتعظم الخطايا ـ فإن التوبة الصادقة لا تهب التائب عفو الله وحسب ـ بل تهبه حبه أيضا:

"إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين".

بل وتهبه عطاء آخر ما كان يخطر للتائب ببال، ذلكم هو فرح الله وحبوره بعودة عبده الغائب التائب!!

أجل..فرحه وحبوره ـ لا لومه وتقريعه.. وإن الرسول ليضرب لهذا مثلا ـ برجل كان يسير فى صحراء موحشة، حتى إذا وجد شجرة جلس يتفيأ ظلها، وغلبه النوم، ثم استيقظ فلم يجد راحلته.. لقد ذهبت بما عليها من متاع..

واستبد به يأس قاتل، واستسلم للموت ينتظره حين يجىء فى أى من طوارق الصحراء والتيه، وفقدان الغذاء والماء..

وأسلمه اليأس لنوم عميق.. وفجأة استيقظ كالمأخوذ، وكاد يطير من الفرح، إذ رأى راحلته فوق رأسه من جديد.. ويقول الرسول عليه السلام:

"لله اشد فرحا بتوبة عبده المؤمن،

"من هذا براحلته"..!!

* * *

ولما كانت التوبة ندما على الإثم، ونزوعا عنه، وعزما وثيقا على عدم العودة إليه، اقتضى ذلك أن تجىء والحياة مقبلة، لتمثل نية صادقة من العبد على طاعة الله والتقرب إليه.

أما التوبة التى يلقيها صاحبها فى سكرة الموت، فجوابها الحق: هيهات هيهات..

يقول الرسول عليه السلام

"إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر".

أي ما لم يبلغ سكرات الموت ولحظات النهاية..

وهذا الحديث يكشف عن فضل الله الواسع، فهو يفتح أمام عبده أبواب رحمته وقبوله حتى النهاية.

وهو إذا كان يغلقها دون توبته ساعة الموت؛ فلأنها ليست توبة.. بل وقاحةً بما يمثله من كذب على الله وخداع له..

كذلك يكشف هذا الحديث الشريف عن الخطر الذى يتهددنا بتأجيل التوبة والتسويف فيها ـ فلا تدرى النفس متى تكون منيَّتَها وكم من أحياء يتفجَّرون عافية ويأسًا وحبورًا بالحياة يأتيهم الموت بغتة فإذا هم فى أكفانهم راقدون..

من أجل هذا يقول الرسول:

"هلك المسوِّفون" ..

ويقول واضعًا أعيننا على أخطر آفات التوبة.

".. واحذروا التسويف؛ فإن الموت يأتى بغتة..

"ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل؛ فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله..

"ثم قرأ: ﴿ فمن يعمل مِثقال ذَرَةٍ خيرًا يَرَه.. وَمَن يَعمَل مِثْقَالَ ذَرةٍ شَرًّا يَرَه ﴾

إن الرسول عليه الصلاة والسلام، يرى فى إرجاء التوبة والتكاسل عنها والتسويف فيها مقامرة خاسرة بمصير الإنسان، ومن ثم فهو يدعونا إلى المبادرة إليها، وإلى مداومة الأخذ بها..

إن هذا لا يدل على تقوى العبد وحسب. بل ويدل على حصافته وحِذْقه..

يقول عليه السلام:

"الكَيِّسُ من دان نفسه وعَمل لما بعد الموت..

"والعاجز من أتْبعَ نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأمانى".

أجل.. ذلك إنسان كَيِّسٌ وحَصيف، هذا الذى يُخضع نفسه لمراجعة التوبة أوَّلاً بأول.. وإنه بهذا لا يستنقذ حياته وروحه من الأخطار الماثلة وحدها.. بل ويحميها من مفاجآت الزمن ومعوقاته، ويربح السباق المحتوم الذى نجرى فيه نحن والأيام كفرسَىْ رهان..

وهذا ما كان يعنيه الرسول وهو يعلمنا ويقول:

"بادروا بالأعمال سبعا ..

ـ هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ..؟

ـ أو غنى مطغيا ..؟

ـ أو مرضا مفسدا ..؟

ـ أو هرما مفندا ..؟

ـ أو موتا مجهزا ..؟

ـ أو الدجال، فشر غائب ينتظر ..؟

ـ أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر" ..

إنه عليه السلام يحذرنا هجوم المهالك التى تنتظر على الطريق.

فالليالى من الزمان حبالى مثقلات، يلدن كل عجيبة

وهو يذكرنا منها بهذه السبع التى إذا لم نسبقها سبقتنا، وإذا لم نبادرها بالتوبة النصوح والعبادة الخالصة، جابهتنا هى بما يملأ نفوسنا حسرة على ضياع الفرصة، وفوات الأوان.

إن التوبة الصادقة، هى نضرة النعيم تترقرق فى حياة التائبين ووجوههم، وتجعل أفئدتهم رقيقة..

وصدق أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضى الله عنه إذ يقول:

"جالسوا التوابين، فإنهم أرق أفئدة" ..!!

* * *

وصدق التوبة ونجاحها ليسا مقرونين بنبذ الإثم والتفوق على إغرائه فحسب.. بل هما كذلك مقرونان بنبذ القنوط والتفوق على تثبيطه.

ذلك أن القنوط من رحمة الله خطيئة فادحة، لأنه يعنى تصور إله عاجز عن المغفرة أو بخيل بالرحمة ـ حاشا ربنا وسبحانه.. كما أنه ـ أعنى القنوط ـ أكبر عائق لانطلاق النفس من إسارها.

وإذا كانت قيمة التوبة أنها تحررك من أصفادك العائقة وأغلالك الموبقة ـ فالقنوط

لا ريب من أخطر هذه الأصفاد وتلك الأغلال.. ومن ثم كان خطيئة تحتاج إلى التوبة منها.

من أجل هذا يعلمنا الرسول عليه السلام أننا إذ نتوب إلى ربنا ونخلص له الدين، فإن علينا أن نحلق إليه بجناحين مباركين:

الرجاء والخوف..

الرجاء فى الله، والخوف من الله.

الرجاء فى رحمته ورضوانه.. والخوف من غضبه وخذلانه..

* * *

سمع الرسول عليه السلام ذات مرة أعرابيا حديث عهد بالإسلام يدعو ربه ويقول:

"اللهم ارحمنى ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا.."

فضحك الرسول عليه السلام لسذاجة الرجل وقال له:

"لقد ضيقت واسعا، يا أخا العرب"!!

لقد خاف الرجل ألا تتسع رحمة الله لكثيرين - فأراد أن يقصرها على نفسه.. أو عليها مع الرسول..!!

وإن كثيرين منا لتغشاهم نفس السذاجة وهم لا يشعرون.. كثيرون يدعون وهم من إجابة الله فى شك.. وكثيرون يسمحون لليأس أن يحجبهم عن رؤية الرحيم الكريم.. والمجيد الودود.

وعلاقة المؤمن بربه بحاجة إلى حظ كبير من الرجاء فى الله - وإلى حظ مماثل من الخوف منه.. بحاجة إلى محبته، وإلى توقيره.. وتستقيم هذه العلاقة بقدر التوازن الذى يتم من شعور المؤمن بالرجاء وشعوره بالخوف.. شعوره بالمحبة، وبالتوقير..

إن الذين يستسلمون للخوف من مساءلة الله وحسابه دون أن تهب عليهم نسمات الرجاء الحانية يجنحون بعيدا عن المرفأ وهم لا يشعرون ومثلهم الذين يستسلمون للرجاء استسلاما ينسيهم حساب الله ويلهيهم عن حقيقة توقيره..

وكل اختلال فى التوازن بين الخوف والرجاء فى قلب المؤمن، يرجع فى الحقيقة إلى طبيعته أو إلى مسلكه تجاههما.. أما هما - الرجاء والخوف - فيتبادلان المهمة

المنوطة بهما تلقائيا في حذق كبير.

فالرجاء في شيء ينادي الخوف من فقده والخوف من شيء ينادي الرجاء في أمنه.. لكن مزاجنا النفسي هو الذي يفرط في استخدام أحدهما فيطغى على الآخر، ويجرف النفس في طريقه إلي الإفراط في اليأس بلا أمل. أو في الرجاء بلا كابح. من أجل هذا، كان الرسول حريا على أن يحلق المؤمن بجناحي الرجاء والخوف.. المحبة والتوقير.. لكي يبلغ بهما من رضوان الله ونعمته ما تقر به عيناه.

والخوف من الله على أية حال مختلف عن الخوف من غيره..

إن الخوف منه سبحانه وتعالى يكافأ بالمغفرة وحسن المآب.. يضرب الرسول لهذا مثلا فيقول:

"إن رجلا كان قبلكم رغسه الله مالا - أي أكثر ماله - فقال لبنيه لما حضره الموت؛ أي أب كنت لكم..؟ قالوا: خير أب.. قال: فإني لم أعمل خيرا قط، فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني، ثم ذروني في ريح عاصف..

"ففعلوا، فجمعه الله، فقال: ما حملك على ما صنعت..؟

"قال: مخافتك..

"فتلقاه الله برحمته"..!!!

فمخافة الله كما يدركها الرسول ليست سبيلا إلى الرعب والفزع، بل هي حافز إلى المزيد من العمل الصالح ومن التقوى. يقول عليه السلام:

"من خاف أدلج.. ومن أدلج بلغ المنزل"

"ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"

فالخوف هنا داع إلى الإدلاج، أي المبادرة بالسير إلى الله قبل أن يمتلىء طريق الحياة بالعوائق والعقبات.

ولقد كان الرسول في مقامه العالي، يخاف الله مخافة من يعرف قدره العظيم.!!

ولقد سئل عليه السلام عندما أخذ الشيب يبرق من شعر لحيته ورأسه، فقال:

"شيبتني هود وأخواتها"

يعني سورة "هود" وسورة "يونس" وأخواتها من السور الممتلئة بالآيات الراعدة

والمنذرة..

وقرأ يومًا سورة "الدهر" ثم قال:

"إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون"

"أطّت السماء ـ أى سمع أزيزها ـ وحق لها أن تَئِطَّ.!!

"ما فيها موضع قدَم إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله..

"والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله"..!

فالذى كان يعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام، ملأ قلبه خشية لله وتوقيراً له.. ولكن لم يملأه فزعًا ولا رعبًا ـ وهذه مزية الخوف من الله.. فهو مهما يكن ضغطه ووقعه على النفس. لا يكاد يزايلها حتى يُخلِّف لها سكينة الأمن وبَرْدَ اليقين..

يقول العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه:

"كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ تحت شجرة، فهاجت الريح، فوقع ما كان فيها من ورق نَخِرٍ، وبقى ما كان من ورق أخضر..

"فقال رسول الله ﷺ: ما مَثَلُ هذه الشجرة..؟؟

"قال القوم: الله ورسوله أعلم..

"فقال: مَثَلُ المؤمن إذا اقشعر من خشية الله عز وجل، وَقَعَتْ عنه ذنوبه، وبقيت له حسناته".

فالخوف من الله كما يراه الرسول وكما يعلمنا إياه، هو امتلاء الفؤاد بخشية الله وبإجلاله.. وحَسْبُه أنه عبادة وقُرْبى تجد النفس فيها هناءها وتترقَّب ثوابها..!!

ولقد حدّث الله عباده عن عطائه ونعمه وجنانه ثم قال:

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي، وَخَافَ وَعِيد ﴾..

* * *

من أجل هذا كان الخوف والرجاء تجاه الله عز وجل، وجهين لفضيلة واحدة، تزكو بها علاقة العبد بربه وتستقيم بها على طريق الدين خُطاه..

وكان حديث الرسول عن الرجاء قريبًا من حديثه عن الخوف أو الخشية.. باعتبار أن كُلاً منهما مُفْض إلى رحمة الله ورضوانه يقول عليه الصلاة والسلام:

"قال الله تعالى: يا ابن آدم.. إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالى..

"يا ابن آدم، لو بَلَغَتْ ذنوبُك عَنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك..

"يا ابن آدم، لو أتيتنى بقُراب الأرض خطايا - أى بمثلها - ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة"..!!

فإذا لقيت الله لا تشرك معه فى الألوهية إلها آخر.. ولا تشرك معه فى الطاعة، طاعة الشيطان والهوى والخطيئة؛ فإنه يعدُ توبتك الصادقة ويثيبك على حسن ظنك به ورجائك فيه بملء الأرض مغفرة.

والرجاء فى الله - مع توقيره وطاعته - فضيلة العارفين؛ لأنه يعكس فهمًا مستقيمًا وسديداً لعظمة الله وَجُوده..

وحين وصف القرآن الكريم عباد الله المؤمنين بأنهم الذين:

﴿ يرجون رَحْمَتَه وَيَخَافُونَ عَذَابَه ﴾.

قصد أن يقرن الرجاء بهذه الصفة الخاصة من صفات الله سبحانه - وهى الرحمة ليعلمنا أنها أقرب إلينا من أنفسنا، وأوسع من ذنوبنا. ويفسر الرسول ﷺ ذلك فيقول:

"لمَا خلق الله الخلق، كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى"..!!

ولننظر إلى اللفتة الباهرة التى يتضمنها هذا الحديث الصادق، فالرسول عليه الصلاة والسلام، يبدأ إعلان هذه البشرى بقوله: "لما خلق الله الخلق".

ومعلوم بداهة أن رحمة الله بكل كمالها واتساعها أقدم من الخلق جميعًا؛ لأنها من أخلاق الله القديم، الذى لا أول لوجوده.. فلماذا هذا التوقيت فى الحديث وما معناه.. معناه أن الله الذى خلق الخلق يعلم ضعفهم، ويعلم قوى الإغواء والإغراء والتثبيط التى تقاوم رغبتهم فى طاعة الله وحسن عبادته.

ومن ثم فهو مذ خلقهم، وهو يدثر عريهم بستره الجميل، ويغطى أخطاءهم بغفرانه الجزيل، ويتلقى اعتذارهم برحمته الواسعة..!!!

كان النبى بين أصحابه يوما حين رأى امرأة تلقم ثديها شفتى رضيع، وهى تضمه إلى صدرها فى حنان مفيض، فقال لأصحابه:

"أترون هذه طارحة ولدها فى النار..؟

"قالوا: لا والله، يا رسول الله..

"فقال عليه السلام: فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها.."!!

إنه بأحاديثه الكريمة يعرفنا بفضل الله العميم والعظيم، ويدخلنا فراديس الرجاء والرحمة والأمن مطمئنين متهللين.. وإنه ليضرب مثلا تناهى فى الجمال والصدق فيقول:

"أمر الله عز وجل بعبد إلى النار، فلما وقف على شفتها، التفت وقال: أما والله يا رب، إن كان ظنى بك لحسن..!!

"فقال الله: ردوه.. أنا عند حسن ظن عبدى بى.."!!!

سبحانه.. بيده الخير، وهو على كل شيء قدير..

* * *

وحين يحقق المؤمن لنفسه حظا متكافئا من الرجاء والخوف، يجد نفسه يتجه تلقائيا نحو فضيلة أخرى وكبرى، تحل علاقته بربه فى أحسن تقويم.

تلك هى فضيلة الحياء من الله.

فمع محاولات الترقى الروحى وتزكية النفس بتقوى الله يجد المؤمن نفسه فجأة وقد حكمت تصرفاته كلها تلك الشعيرة الباهرة - الحياء من ربه..

لم يعد العذاب والعقاب الحافزين اللذين يصرفانه عن السوء.. بل الحياء من ذى الجلال والإكرام.!!

إن الحياء من الله، إذا كسا نفسا مؤمنة، أفاء عليها من التقى والهدى والعفاف والاستقامة ما يجعلها قدوة ومثالا..

إن الحياء لا يحجز صاحبه عن الآثام وحسب.. بل ويحجزه عن مجرد التطلع إلى ما لا يليق. والرغبة فيما لا طاعة لله فيه..

ولقد علّمنا الرسول بقدوته وبسلوكه كيف يكون الحياء من الله، بل وكيف يرتفع الحياء فيصير شكرًا لله..

فذات يوم. وقد تورّمت قدماه من طول القيام في صلاة الليل، وتغضّن ما تحت جفنيه من كثرة البكاء، سُئل: لم كل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخّر؟ فكان جوابه:

"أفلا أكون عبدًا شكورًا".؟!

إجابة تتفجّر حياء وتوقيرًا، يقدمها هذا النبي الكريم القائل:

"إن لكل دين خُلُقًا..

"وخُلُق الإسلام، الحياء".!!

فيم كان عَناؤه في العبادة والنُسُك..؟ أستغفر الله العظيم.. أأقول عَناؤه..؟ هو الذي سمّاه غبطة روحه، وقرة عينه..؟!

فيم كان بكاؤه الذي كان ينبعث من صدره أثناء بعض صلاته وله أزيز كأزيز المرْجَل..؟!

أكان بكاؤه من خوف..؟ هو الذي قال له ربه الكريم:

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

لقد كان بكاؤه المتبتل، ودموعه الأوّابة، التعبير الذي يملكه ويقدر عليه ليعلن به حياءه الشديد من ربه العلي الذي غمره بفضله وحبه واصطفائه، والذي كان يلقى ذاته بين يديه في ضراعة العاجز عن شكره مهما يُفيض في شكره، ويقول:

"سبحانك.. لا أحصي ثناء عليك".

"أنت كما أثنيت على نفسك"..!!

وحين يتم العبد توحيد الله بالإخلاص له.. ويَجُبُّ كل أخطائه بتوبةٍ نَصُوح يعتذر بها إلى ربه، ويبدأ بها عهدًا جديدًا يعبق بأريج عفو الله وعبير طاعته..

عندما تحقق ذلك لنفسك، فَهَيِّئها للتزود بأعظم طاقات الروح وأمضى قواها.. طاقة

التوكل على الله..

وإنما أقول: "طاقة التوكل" لأن التوكل الصحيح طاقة لا منهى لأبعاد نفوذها وآماد اقتدارها.

والقلب العامر بهذه الطاقة تكاد نبضاته تتحول إلى مقادير..!!

عندما خاطب الله عباده قائلاً:

﴿ وعَلَى الله فتوكّلوا إنْ كُنتُم مُؤمِنِين ﴾.

كانت الآية الكريمة تدلُّهم على أصدق وآلق سمات الإيمان وبراهين وُجوده..

وكذلكم حين ساق القرآن الكريم هذا الحوار الفاصل السريع:

﴿ الذِينَ قَالَ لَهُمُ النَاسُ إنَّ النَاسَ قَد جَمَعُوا لكُمْ فاخشَوْهُمْ، فَزادَهُم إيمَانًا، وَقَالوا حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكِيلُ..

فَانْقلَبوا بِنعْمَةٍ مِن الله وفَضْلٍ لَم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ الله، والله ذو فَضْلٍ عَظِيم ﴾.

فالتوكل الحق ذُخْرُ طاقة، ومنبع قوة لا نظير لها بين ما نعرف من طاقات وقُوى..!!

ويبدأ التوكل عند رسول الله بالتوحيد أيضًا ـ فما دام الله وحده هو الله.. وما دام الأمر كله له، والقوة كلها منه، ففيم اغترار العبد بحوله وقوته..؟

إن تفويض الأمر لله، وحسن التوكل عليه، ودوام اللجوء إليه ليس سوى إقرار بالحقيقة المطلقة، واعتراف بواقع لا مهرب منه ولا ريب فيه.

وإذا كان الإنسان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضراً، فكيف يملكها له غيره أو كيف يملكها هو لغيره..؟؟

إن رؤية النفس والاغترار بقوتها من شر ما يطمس علاقتنا بالله سبحانه.

وها هو ذا الرسول يقول ضارعًا لربه ومولاه:

"اللهم لا تكلْني إلى نفسي طَرْفة عين فأعْجَز.. ولا إلى الناس فأضيع"..!!!

فهو مع ما أنعم الله عليه من بصيرة تتوقد ذكاء ونوراً، يخاف أن يَكِلَه الله إليها، ويسأله ألا يتخلى عنه ولو لطرفة عين..!!

إن تجرد العبد من حوله وقوته، ولياذه بحول الله وقوته، آية على أنه قد عرف الطريق.

ومن ثم، ولكى تظل علاقتنا بالله مضاءة بنور توحيده والثقة به - راح الرسول يزكى فينا الثقة بالله وحسن التوكل عليه.

وإنه عليه السلام ليصف المؤمن ويكشف عن أبهى خصاله، فيقول:

"أن يكون بما عند الله، أوثق منه بما فى يده".

ويعلمنا أن نبدأ أمورنا كلها باستخارة الله فيها ؛ لكى يبقى توكلنا عليه مشدود الآصرة، ولكى تهتدى بخيرة الله إلى الصواب والسداد فى أمرنا..

يقول عليه السلام:

"إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل - أى بعد الصلاة:

اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب".

"اللهم إن كان هذا الأمر خيرا لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، وعاجل أمرى وآجله، فاقدره لى، ويسره لى، ثم بارك لى فيه.

"اللهم وإن كان هذا الأمر شرا لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجل أمرى وآجله، فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضنى به.

"ويسمى حاجته.."

ولقد كان عليه السلام يقول ويعلمنا أن نقول:

"اللهم خر لى واختر لى".

اللهم دبر لى؛ فإنى لا أحسن التدبير".

وحتى يحفظ التوكل السديد علاقتنا بالله من البلبلة، والضياع، رأينا الرسول عليه السلام يرفض التطير والتشاؤم ويعلمنا إذا رأينا أو سمعنا ما قد يحملنا على التشاؤم أن ندعو ربنا قائلين:

"اللهم لا طَيْرَ إلا طيرُك..

"ولا خيرَ إلا خيرُك..

"ولا إله غيرك..

"اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت..

"ولا يذهب بالسيئات إلا أنت".

إننا بهذه الثقة المطلقة بالله، نستطيع أن نجاوز مواقف التشاؤم والتثبيط إلى سداد الحياة، وخيرها، وعطاياها..

* * *

والتوكل الحق على ربنا سبحانه مُبشر بأن العلاقات بين العبد وربه قد بلغت ذروة الصدق والكمال بما انتظمته من نور المعرفة به.. وحسن الظن، وتمام اليقين..

وهذا معنى قوله عليه السلام:

"لو توكلتم على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير.. تغدو خماصًا وتَرُوحُ بطانًا"..

فالمؤمن يجيد التوكل ويمتلك حقيقته إذا هو بلغ فى ثقته بقدرة الله وبعطائه مبلغ الطير التى تهديها غريزتها وإلهامُ الله الكامن فيها بأن الله رازقها لا محالة.. وأنها لا تبحث عن رزقها إلا بالقدر الذى يبحث به رزقها عنها..!!

ويدلنا هذا الحديث على أن التوكل يقين وحركة؛ يقين بأن الله قد قدَّر كل شىء تقديرًا.. وحركة تسعى فى جد لاكتشاف هذا المقدور واكتسابه.

يقول عليه السلام:

"واعلَمْ أن ما أصابك لم يكن ليُخْطِئَك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبَك"..

فحين نعلم هذا ونتيقنه، يُسلحنا التوكل إذن بقوى عظمى تكتسح كل ما تفجأنا به الليالى من مخاوف ومخاطر، وتمكننا من السير بخطى واثقة فى دروب الحياة..

وهكذا لا يعود التوكل توكُلاً ولا خذلانًا، ولا إخلادًا للقعود والكسل.. بل حركة دائبة يدفعها قلب موصول العُرَى بالله، راسخ اليقين بما عنده.

كما لا يبدو وكأنه ضربٌ من خِداع النفس، بل شَحْنٌ لها بالإدراك الحق لعظمة الله

وقدرته وهيمنته.. وهو إدراك لا ينسى وهو يُسلم الأمر لله أن يأخذ بالأسباب التى هيأها الله.

إن الناس جميعًا يحفظون كلمة الرسول:

"اعقلْها وتوكَّل".

وهى فى تركيزها الشديد تعطى التعبير النهائى لحقيقة التوكل ومَداه.

والتوكل - أو بتعبير أصح - "روح التوكل" التى نعنيها بحديثنا هذا، تقتضى من الإنسان ألا يسىء الظن بما يختاره الله له، بل يتقبله بقلب شكور وجبهة ساجدة.

يقول عليه السلام:

"يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى وانا معه حيث يذكرنى".

وهنا نلتقى بركيزة أخرى من ركائز علاقتنا بالله..

ذلكم هو الرضا به والرضا عنه.. وأصحاب هذا الرضا هم الذين نعتهم القرآن الكريم بأنهم:

﴿ رضِىَ اللهُ عنهم، ورَضُوا عَنْه ﴾.

إن علاقتك بالله سبحانه تهتز صورتها وتفقد نورها أمام أى جزع تعبر به عن قضاء الله لك وتقديره عليك.

أما التهلل والحمد فيزيدانها نورًا وسكينة..

يقول عليه السلام:

"عجبًا لأمر المؤمن.. إن أمره كله له خير"

"إن أصابته سرَّاءُ شكر؛ فكان خيرًا له..

"وإن أصابته ضرَّاءُ صبر؛ فكان خيرًا له..

"وليس ذلك لأحد إلا المؤمن".

حقًّا إن أمره لعجيب.. هذا الذى يقهر إغراء الخير، فيضع مكان الزهو به تواضعًا وشكرًا، ويقهر إغواء الضر؛ فيضع مكان الجزع منه تسليمًا وصبرًا.. وترتفع علاقته بربه من خلال هذا السلوك الفريد إلى حيث لا يمسها نصب ولا لغوب..

يقول عليه السلام:

"ذاق طعم الإيمان من رضى بالله تعالى ربًا"

فمن رضى بربوبية الله ركع أمام قضائه، وسجد لمشيئته.

وكم هى باهرة وآسرة وممتلئة هذه الكلمة "رَضىَ" فالله لا يفرض نفسه على الناس، ولا يكرههم على اعتناق ربوبيته.

كل ما هو مطلوب من الإنسان أنه إذا "رضى بالله ربًا" فإن عليه أن يعرف حقه وقدره، وأن يتقبل قضاءه وقدره.

والناس يرضون بالله ويرضون عن الله تلقائيًا إذا جاءهم الخير وغمرتهم النعمة.. بيد أنهم يجزعون إذا مسهم السوء.. والعلاقة التى تنهض على أساس كهذا لا تبشر بخير.

من أجل هذا حرص الرسول على ألا يكون ذِكْرُنا لله وشكرنا إياه ورضانا عنه عند حدوث ما نكره، أقل منه عند مجيء ما نحب.. جلس عليه السلام يومًا بين أصحابه فقال:

"من أعطِى، فشكر"
"وابتُلى؛ فصبر"
"وظَلَمَ؛ فاستغفر"
"وظُلِمَ؛ فغفر"

ثم سكت، حتى سأله أصحابه: ماذا لهم يا رسول الله؟

فقال:

"أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون".

فالبلاء الذى ينزل بالناس فى أنفسهم أو فى أهلهم، أو فى أموالهم وحياتهم، لا ينبغى أن يهز علاقتهم بالله وحسن ظنهم به.. لأنه يحمل فى مشقته الماثلة نعمة كامنة..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"ما يَبْرحُ البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة".

ولقد دخل عليه يومًا وهو موعوك، أحد أصحابه، وأحس وهو يصافح الرسول بارتفاع حرارته فقال: "ما أشد حُمَّاكَ يا رسول الله".

فأجابه الرسول:

"إنا كذلك..

"يُشدَّدُ علينا البلاء، ويُضاعف لنا الأجر".

فنكبات الحياة ومشاقها لا تذهب بددًا إذا أصيب بها المؤمن. ها هو ذا رسولنا يتحدث:

"ما يصيب المؤمن من نصَب. ولا وصَب ولا همٍّ، ولا حزَن، ولا أذًى، ولا غمٍّ، حتى الشوكةُ يُشاكُها إلا كفَّر الله بها من خطاياه".

وكل الذى يتمناه المؤمنون الصادقون ألا يكون البلاء الذى ينزل بهم مظهر سخط من الله عليهم، أما البلاء ذاته فما ينبغى أن يزيد علاقتهم بالله إلا رسوخًا وعمقًا وألقًا.. وها هو ذا رسول الله يبشرهم:

أشد الناس بلاء، الأنبياء..

"ثم الأمثَل، فالأمثل".

بل ها هو ذا - عليه صلاة ربنا وسلامه - يخبرنا أن البلاء قد يكون معراجًا يرقى بأصحابه إلى الدرجات العلى ويقترب بهم من حضرة الملك الأعلى، فيقول:

"إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل، ابتلاه الله فى جسده، أو ماله، أو ولده ثم صبره على ذلك حتى يبلِّغه المنزلة التى سبقت له من الله عز وجل".

ويخبرنا الرسول الكريم فى صورة من أبهى الصور التى يعرفنا بها رحمة الله وحنانه - أن المؤمن حين يمرض، ويحمله مرضه على الأنين والتأوّه، تضرع الملائكة الذين هم معه من حفظته إلى ربهم، فيقول الله سبحانه:

"إنى أحب أن أسمع صوته"..

أجل.. كم من عباد لله يحب أن يسمع تغريدهم وهم يشكرونه..

ولكنهم يغفلون، فيبتليهم بشىء من الضر ليسمع أنينهم وهم يدعونه، وهم خلال ما يصيبهم من ضر، وما يجدون من ألم يطهرهم تطهيراً، ويهيئهم لمقعد صدق عنده.

ها هو ذا عبده ورسوله يقول:

"ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى النفس والولد والمال، حتى يلقيا الله تعالى وما عليهما خطيئة".

وها هو ذا يقول:

"من أصيب بمصيبة فى ماله أو فى نفسه فكتمها ولم يشكها إلى الناس، كان حقًا على الله أن يغفر له".

بهذه الأحاديث الصادقة يقدم الرسول تفسيرًا حقيقيًا، وليس مجرد عزاء للبلاء ولما يمكن أن يكون وراءه من خير ونعمة.

ولكن الرسول الذى آتاه الله الحكمة لا يريد لعلاقة المؤمن بربه أن تصح من جانب، وتسوء من جانب آخر.. فهو يحذر من أن يكتسى الرضا بالقضاء والصبر على البلاء بفاشية من الغرور ورؤية النفس.

لذلك لا يكاد يسمع واحدًا من أصحابه يدعو الله قائلاً:

"اللهم ارزقنى الصبر".

حتى يقول له:

"بل قل: اللهم إنى أسألك العافية".

بل ها هو ذا عليه السلام لا يكاد - يوم الطائف - يقول فى ابتهاله المأثور:

"إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى".

حتى يتبعها من فوره بقوله:

"ولكنَّ عافيتك أوسع لى".

إن الإلحاح على الله بالعافية - فضلاً عن حاجة الإنسان إليها - يمثل عبودية مفتقرة إلى الله، ليس معها ما تزهو به من قوة وجلَد..

من أجل هذا، ولكى يحيا المؤمن دومًا فى نور فقره إلى الله جعل الرسول الدعاء بالعفو والعافية أفضل الدعاء فقال:

"ما من دعوة يدعو بها العبد، أفضل من: اللهم إنى أسألك العفو العافية".

وتسأله أم المؤمنين "عائشة" رضى الله عنها:

"يا رسول الله: أرأيت إن علمتُ ليلة القدر، ما أقول فيها؟".

فيجيبها عليه السلام:

"قولى: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى".

فالتضرع إلى الله فى سؤال العاجز المفتقر ضرب من التقى كبير القيمة عظيم الثواب.

والعلى الكبير، يحب عباده الذين يمشون على الأرض هَوْنًا، ويدعونه تَضرُّعًا وخُفْيَة.

من أجل هذا يوصى الرسول بالدعاء، لتقوى به علاقتنا بالله وتزدهر.

* * *

يقول عليه السلام:

"الدعاء هو العبادة"

"الدعاء مُخّ العبادة".

ثم يعلمنا الدعاء بكل شعائره. ويحضنا على مداومته واستمرار لهجنا به..

ذلك لأن الدعاء يصور يقيننا بالله إلهًا، ومقتدرًا، ووهابًا.. والذى يطلب من ربه كل حاجاته، ويذكره عند كل مسعى له، إنسان حسن المعرفة بالله، وثيق الصلة به سبحانه، واللهج بالدعاء والابتهال إلى الله ودوام سؤاله دليل على توحيده.

يقول عليه السلام:

"إذا سألت فسأل الله..

وإذا استعنت فاستعن بالله".

ولأن سؤال الله فى كل شيء.. اعتراف بفضله فى كل شيء، فقد أمرنا الرسول أن نسأل ربنا حاجتنا كلها حتى النزر اليسير منها.

يقول عليه السلام:

"ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى الملح.. وحتى شِسْع نعله إذا انقطع"..

ولأن الدعاء عبادة يطالبنا الرسول بحضور القلب حين ندعو:

"اعلموا أن الله لا يستجيب دُعاءً من قلب غافل لاهٍ".

ولأنه مظهر لفضل الله، يطالبنا الرسول ألا نكون أنانيين فنختص به أنفسنا دون الآخرين:

"ما من مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال له الملك، ولك مثله".

إن قضية الدعاء ليست من القضايا العادية بحيث نمر بها سراعًا ونحن نتحدث عن علاقتنا بالله. وإنها لتشغل من الموضوع جانبًا.

فهنا وأنت تدعو الله وتسأله، تكشف عن حقيقة إيمانك به. وعن درجة عبوديتك له.

ويقينك بالإجابة مُساوٍ لما فى قلبك من الثقة بـه، مـن أجـل هـذا يعلمنـا الرسـول ويقول:

"ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة".

لا مكان للشك ولا للتردد:

"وإذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لـى إن شئت. اللـهم ارحمنـى إن شئت.. ولكن لِيَعْزم المسألة، فإن الله لا مُسْتكرِه له..

ولا معنى لليأس أمام إرجاء الإجابة:

"يُستجاب لأحدكم ما لم يَسْتبطئ"..

وتبادل العلاقة بين الله وعباده تتجلى فى الدعاء تجليًا باهرًا.

فهو سبحانه لا يستجيب دعاءنا فحسب.. بل إنه ينتظره ويحب سماعه..!!

سَلُوا الله تعالى من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل:

"وأفضل العبادة، انتظار الفرج".

ويضعنا الرسول أمام مشهد تذوب الأفئدة من فرط حنانه إذ يصور لنا ذلك الجلال الفريد عندما يقترب الله من عباده فى الهزيع الأخير من الليل إلـى صـلاة الفجـر، حيث الأنام نيام.. إلا جماعة من عباده، تجافَتْ جنوبهم عـن المضـاجع وخَرُّوا لربـهم سُجَّدًا وبُكِيًّا.. هنالك يغمرهم الرحمن بنوره، وينادى:

"أنا الملك.. أنا الملك..

"من يدعونى، فأستجب له..

"من يسألنى، فأعطيه..؟

"من يستغفرنى، فأغفر له..؟"

أرأيتم..؟ هذا ربنا يبحث عنا.. يفتقد أصواتنا الصادعة، وابتهالاتنا الضارعة..!!

من ذا الذى يسأل، فيُعطى..؟

ومن يريد، فيأخذ..؟

* * *

إن الرسول يؤكد لنا استجابة الله دعاء من يدعوه يؤكدها ملء يقينه بقول الله له:

﴿وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّ فإنِ قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ.. فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى.. وَلْيُؤْمِنُوا بِى. لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾

وإنه ليهدى إلى الصواب أولئك الذين يتساءلون: لماذا ندعو ولا نجد إجابة.؟

فيقول: وهو بَداهةً يحدث المؤمنين الذين يستحقون الإجابة من الله:

"ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث.."

ـ إما أن يعجل له دعوته..

ـ وإما أن يدخرها له فى الآخرة..

ـ وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها".

ولقد قال أصحابه الذين سمعوا منه هذا الحديث المبشر:

"يا رسول الله، إذن نُكثر"

فأجابهم قائلاً:

"الله أكثر"..

بل لقد بلغ يقين الرسول بإجابة الدعاء حداً جعله ينهانا عن أن ندعو على أنفسنا أو على أولادنا فى لحظة غضب.

يقول عليه السلام:

"لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أولادكم، ولا على خدمكم، ولا على أموالكم، حتى لا توافق من الله ساعة عطاء، فيستجيب لكم"..

إن نوع الدعاء الذى نتجه به إلى الله، ودرجة إلحاحنا على الله فى خشوع وتقوى، ويقيننا بقدرته وبفضله ـ كل هذا يمنحنا علاقة ناضرة بالله.

إن الدعاء قربة عظمى تزكو بها النفس والروح، لأنه استجابة الله.

"يا عبادى..

كلكم جائع إلا من أطعمته: فاستطعمونى أطعمكم

"يا عبادى..

كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسونى أكْسُكُم

"يا عبادى..

إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفرونى أغفر لكم..

"يا عبادى..

لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل سائل مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.."

أرأيتم..؟؟

إن الله يقرع أبوابنا.. أجل، هو.. لا نحن.. هو الكبير المتعال، ينادينا كى نسأله.. ويدعونا أن ندعوه.. ويفتح لنا أبواب رحمته وفضله بغير حساب.. وبهذا الحنان الغامر من ذى الجلال والإكرام تعثر علاقتنا بالله على شربها العذب المورود.. فهنا الرجاء الذى لا منهى له فى رحمة الله وعطائه.. وهنا اليقين لكل صاحب يقين بقبول ضراعته واستجابة دعائه..

إن مزية الدعاء الأولى أنه يجعل علاقتنا بالله سبحانه، فى حركة ربانية مستمرة. وفى تبادل خَفىٍّ بين الله وعبده ـ يحمل من العبد الدعاء، ويحمل من الله الإجابة.. على النحو الذى يعلم فيه الخير لعبده.

من أجل هذا، كان أحب الدعاء إلى الرسول ﷺ، كل دعاء يصور عجز العبد وافتقاره الحقيقى إلى الله.

فهو ـ مثلاً ـ يستغفر الله ويدعونا أن نستغفره بهذه الصيغة:

"اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت.. خلقتنى..

وأناعبدك.. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت"

"أعوذ بك من شر ما صنعت..

"أبوء لك بنعمتك عليَّ.. وأبوء بذنبى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.."

ويصف الرسول ﷺ هذه الصيغة بأنها "سيد الاستغفار" فلماذا كانت كذلك..؟

لأنها كما ترى، تحمل كل إقرار العبد، وفقر العبد، وولاء العبد للعلى الأعلى الذى بيده الأمر وإليه المصير..

ويحدثنا "عبد الله بن عمر" رضى الله عنهما، فيقول:

"لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هذه الكلمات حين يُمسى وحين يصبح:

"اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة..

"اللهم إني أسألك العفو والعافية في دينى، ودنياى وأهلى، ومالى..

"اللهم استُر عَوْراتى، وآمن رَوْعاتى".

"اللهم احفظنى من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتى - يعنى أن يخسف بأرض هو فيها".

إنه - عليه السلام - يعلم المؤمنين كيف يخضعون لله فى دعائهم، وكيف يرجون رحمته ويخافون عذابه.. فالروح والطريقة والكلمات التى نلجأ بها إلى الله جديرة بأن تزكى علاقتنا بالله، وتزيد هذه العلاقة عافية ونوراً.

ولكن، لماذا يجعل الرسول الدعاء مُخَّ العبادة..؟

ألأنه يمثل حقيقة الإيمان، ومدى اليقين الذى يحمله المؤمن لربه؟

ألأنه تجديد مستمر لروح العلاقة القائمة بين الله وعباده..؟ أجل لذلك كان الدعاء مخ العبادة..

* * *

ولكن مع هذا كله، وربما قبل هذا كله - لأنه ذكرُ لله.. وآمُركُم بذِكْر الله.. يجيء على رأس الركائز التى يقيم الرسول عليها علاقتنا بالله سبحانه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، إن علاقة الإنسان المؤمن بربه تحقق بذكر الله أقصى كمالها واكتمالها، ذلك أنها تتحول من علاقة إلى "معية" فيصبح العبد الذاكر فى معية الله وبين أفراد رَعيله..

يقول عليه السلام:

"يقول الله: أنا عند ظن عبدى بى..

"وأنا معه إذا ذكرنى..

"فإن ذكرنى فى نفسه.. ذكرته فى نفسى..

"وإن ذكرنى فى ملإ، ذكرته فى ملإ خير منهم".

فالحديث هنا يعطى هذه المعية الجليلة شكلها حين يخبرنا أن المؤمن الذى يذكر الله فى نفسه، يذكره الله فى نفسه.. والذى يذكره فى ملأ، يذكره الله فى ملأ خير منهم..

ولقد سأل رسول الله:

- أى الأعمال أحب إلى الله..؟

فأجابه الرسول عليه السلام:

"أن تموت، ولسانك رطبٌ، من ذكر الله"

وذكر الله، هو ذكر الله.. وسواء كان بالتسبيح، أو الاستغفار أو بالتهليل - والتهليل هو الذكر "لا إله إلا الله" أو كان بقراءة القرآن.. الجوهر فى هذا كله أن يحمل الذكر اسمه وحقيقته.

لقد سماه الله رسوله "ذكر الله"، فإذا ما انتهى إلى أن يكون مجرد ترداد لاسم الله سبحانه بلسان عَجُول وقلب مشغول فما هو بذكر أبدًا.. إن معنى ذكر الله وجود حالة من الحضور الكامل فى حضرة الله.. والاستحضار الواعى لعظمته ولجلاله، ثم ذكره فى خشوع ويقظة ينتظمان القلب والجوارح معًا..

فالذاكرون ربهم بهذا الحضور هم المعنيون بقول الرسول:

"سبق المفرِّدون"

قال أصحابه:

"وما المفرِّدون يا رسول الله..؟

قال عليه السلام:

"الذاكرون الله كثيرًا.. يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافًا".

إن مزية الذكر ماثلة فى أنه لا شىء يقهر الشيطان مثله..

يقول عليه السلام:

"وآمركم بذكر الله.. ومثل ذلك رجل طلبه العدو سراعًا فى أثره حتى أتى حِصنًا حَصِينًا فأحرز نفسه فيه..

"وكذلك العبد، لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله"

ومزيته كذلك أنه يطمس نوازع التثبيط فى النفس.. ذلك أن الذى تدوى فى جنبات روحه وروعه معانى "لا إله إلا الله" إلى فترة طويلة من الوقت الذى يقطعه الذاكر فى خشوع وتقوى لا يلبث مع مداومة الذكر حتى يجد نفسه سيداً لكل نفسه، سيداً على هواه، مجاوزاً كل آفات التثبيط والخذلان.

ولعل هذا ما عناه الرسول بقوله:

"من عجز منكم عن الليل أن يُكابده..

"وبخل بالمال ينفقه..

"وجَبُن عن اللغو أن يجاهده..

"فليكثر ذكر الله"..

أجل.. إن ذكر الله لن يكون كفارة لكل هذا العجز وحسب، بل إنه قبل هذا سيكون القوة التى تقهر هذا العجز.. سيكون النور الذى يكنس ظلمات اليأس، والمقدرة التى تجعل من عجز المؤمن خيراً ماضياً.. وتملأه بعافية الدين والإرادة والضمير.

لقد عُنِىَ الرسول بذكر الله حتى جعله فارقًا بين الحياة والموت ها هو ذا عليه السلام يقول:

"مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكر الله، مثل الحى والميت".

وإن "أم أنس بن مالك" رضى الله عنهما لتسأل:

ـ يا رسول الله أوصنى..

فيوصيها عليه السلام قائلاً:

"اهجرى المعاصى؛ فإنها أفضل الهجرة..

"وحافظى على الفرائض؛ فإنها أفضل الجهاد..

"وأكثرى من ذكر الله؛ فإنك لا تأتين الله بشىء أحبَّ إليه من كثرة ذكره".

إنه لا قربة ولا عبادة إلا وتمثل وشيجة مباركة ميمونة بين الله وعبده.

ولكن ذكر الله خاصة فضلاً عن كونه وشيجة من أقوى هذه الوشائج، فهو عيد من أعياد الروح أو فرح من أسعد أفراحها!!

يقول عليه السلام:

"لا يقعد قوم يذكرون الله، إلا حفّتْهم الملائكة، وغَشِيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده".

بل إن الرسول ليخبرنا أن هؤلاء الذين يجتمعون على ذكر الله وتحفهم الملائكة ينال من بركاتهم كل من شهد مشهدهم وشم عبيرهم واقترب من رياضهم، حتى ولو لم يشاركهم الذكر؛ لأن الله يقول لملائكته:

"هم القوم لا يشقى جليسهم".!!

ومجالس الذكر التي يجتمع ذووها على خير وفى خير، خاشعين لله، نابذين الرياء والبدعة. مخلصين له الدين - إنما هي من رياض الفردوس وإن تك في الدنيا.

ألم تمر يومًا بإحدى سفارات الدول في القاهرة..؟

إن السفارة تقع في أرض مصرية، وتحتل مكانًا في شارع من شوارع القاهرة.. ومع ذلك فهي بمجرد دخولك من بابها أرض أخرى تتبع الدولة التي تمثلها السفارة، وتتمتع بكل حصانتها وحقوقها.

إن مجالس الذكر تنعقد فوق مكان ما من أرض الناس، ولكنها في حقيقتها تتبع أرضًا أخرى.. بل سماء أخرى.. تتبع الفردوس الأعلى وتتمتع بكل ما للفردوس الأعلى من حصانة وجلال وبهاء ونعيم. يقول عليه الصلاة والسلام لأصحابه:

"إذا مررتم برياض الجنة فارتَعُوا".

"قالوا: "وما رياض الجنة يا رسول الله".

"قال: "مجالس الذكر".

* * *

وإن الرسول ليدعونا أن نذكر الله دائمًا..

من أجل هذا يعلمنا كلمات نقولها حين نصبح، وحين نمسى، وحين ننام، وحين

نصحو، وحين نغادر الدار وحين نعود إليها.. وحين نرى المطر، والشمس، والسحاب.. وحين نشترى أو نلبس جديداً ـ وحين نفرح، وحين المصيبة.. وحين نرجو، وحين نخاف.

فى كل مواقف الحياة وحالاتها.. فى كل أوقاتها ولحظاتها، يعلمنا أن نذكر الله ربنا بكلمات تُوائِم المناسبة.. وحين نكون فى مجلس مَا ثم ننفضُ عنه؛ فإن الرسول عليه الصلاة وأبهى السلام يُشفق علينا أن نكون قد نسينا ذكر الله فى مجلسنا هذا.

من أجل ذلك يأمرنا بعد كل مجلس نشهده، ونتبادل فيه الأحاديث العابرة.. أحاديث حياة الدنيا أن نختمه بهذا الابتهال:

"سبحانك اللهم وبحمدك"

"أشهد أن لا إله إلا أنت"

"أستغفرك، وأتوب إليك"

ويصف هذه الكلمات بأنها:

"كفَّارة لما يكون فى المجلس".

* * *

وذكر الله يعنى تمجيده والثناء عليه. واستغفاره والتضرع إليه..

وكثيراً ما كان الرسول يعلم أصحابه أفضل هذه الأذكار.. فهو يدعوهم إلى الإكثار من:

"سبحان الله وبحمده"

"سبحان الله العظيم"

"لا حول ولا قوة إلا بالله"

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر".

وكثير غيرها من آيات التسبيح والتهليل والحمد.. بيد أنه كان يعطى حفاوة خاصة للذكر "لا إله إلا الله" فيقول عليه السلام:

"أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله".

ويقول لأصحابه:

"جدّدوا إيمانكم"

فيسألونه: "كيف نجدد إيماننا..؟"

فيقول عليه السلام:

"أكثر من قول لا إله إلا الله".

وثَمَّ حديث يفسر حفاوة الرسول بها، وحَضَّه المستمر عليها ـ ذلكم هو:

"اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة، وأمرتنى بها، ووعدتنى عليها الجنة، وأنت لا تُخلف الميعاد".

فـ "لا إله إلا الله" هى عنوان الدين كله، وهى جوهره وموضوعه.

وذكر الله بها يجمع القلب بحقيقتها، فإذا هو أوَّاب لله وحده، وإذا الشخصية الإنسانية كلها تدور فى أجلِّ الأفلاك وأقدسها.

المهم أن تعرف كيف تقولها، وكيف تذكر الله بها، وكيف يرتلها قلبك قبل أن يرددها لسانك.

ولهذا كله علامة ـ تلك هى أنك ترتفع مع "لا إله إلا الله" فى سمو بعيد عن كل كبيرة، بل عن كل صغيرة، وأن تجد نفسك فى تقدم مستمر نحو الله، يقول عليه الصلاة والسلام:

"من قال: لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة..

"قيل: وما إخلاصها يا رسول الله..؟"

قال: أن تحجزه عما حرم الله".

* * *

الصلاة نور:

ونصل الآن إلى أعظم مشاهد الذكر والعبادة قاطبة.. نصل إلى العروة الوثقى التى لا تضاهيها عروة فى علاقتنا بالله. تلك هى: الصلاة..

يقول عليه السلام فى انتشاء عظيم بحلاوة الصلاة.

"وجُعلَت قُرة عينى فى الصلاة".

أجل.. إن المؤمن لا تسمو علاقته بالله باروع ولا بأجمع من الصلاة ـ هذه التى كان الرسول من شغفه بها، يكثر منها ويطيل فيها حتى تتورم قدماه..

وإذا دعا مؤذنه "بلالا" رضى الله عنه لإقامتها قال فى حبور بها وشوق إليها:

"أرحنا بها يا بلال".

إن علاقتنا بالله تسمو سموها البعيد والمجيد كلما خلصت من شوائب الهوى والإثم والخطأ ولما كنا بشرا، فنحن عرضة للخطأ دوما، فماذا هناك يستطيع أن يغسل هذه الأخطاء أولا فأولا..؟ إنها الصلاة.. وماذا هناك يزيد من جلال علاقتنا بالله ومن بهائها..؟ إنها الصلاة..

"ما من مسلم يتوضأ، فيسبغ الوضوء، ثم يقول فى صلاته، فيعلم ما يقول ـ أى يتمها فى خشوع وتدبر ـ إلا انْفَتل ـ أى خرج منها ـ وهو كيوم ولدته أمه"..

ويضرب لها مثلاً، فيقول عليه السلام:

"أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات.. أيُبقى ذلك من دَرَنه شيئًا..؟

"قالوا: لا يبقى ذلك من درنه شيئًا"

"قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا".

ولقد ذكر الصحابة يومًا رجلاً مات ولم يعرف له جليل عمل فى طاعة الله، فقال لهم الرسول:

"وما يدريكم ما بلَغت به صلاته"

فالصلاة لصاحبها نعم الشفيع عند الله، ونعم الآخذ بيد العبد إلى رحاب الله.

يقول "حذيفة" رضى الله عنه:

"كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صَلّى"..

فها هو ذا إمام النبيين وخاتم المرسلين لا يجد خيراً من الصلاة واسطة بينه وبين ربه، كلما أهمه أمر.. فيها يناجى ربه، وفى سكينتها الحلوة وطمأنينتها المريحة يتلقى من الله الأمن والنعمة والعافية.

من أجل هذا. قال فى حبور ويقين:

"وجُعِلَت قرة عينى فى الصلاة".

إن أهمية الصلاة لعلاقة العبد بربه كأهمية الروح للجسد ـ وكما أن الجسد يفقد حياته وبقاءه بمجرد أن تغادره الروح؛ فكذلك علاقتنا بالله تفقد ذاتها فى الزمن الذى تجحد فيه الصلاة وتحرم نفحاتها.

وفى هذا يقول عليه السلام:

"لا دين لمن لا صلاة له..

"إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد".

ويقول:

"استقيموا ولمن تُحْصُوا.. واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة".

إننا فى هجير الحياة تلفحنا الخطايا من كل جانب، ونَبُوء بإثم ما نلغو به من قول، وما نتزلق إليه من عمل، أفلا نحتاج إذن إلى ما يذكرنا بحق الله علينا، وإلى ما يغسل هذه الأوضار عنا أولاً بأول؟.

إن الصلاة هى ذلك المذكِّر. وذلك المطهِّر.

ولقد صدق "عبد الله بن مسعود" صاحب رسول الله، إذ يقول:

"تحترقون، تحترقون..؛ فإذا صليتم الصبح غسلَتْها..

"ثم تحترقون، تحترقون..؛ فإذا صليتم الظهر غسلتها..

"ثم تحترقون، تحترقون..؛ فإذا صليتم العصر غسلتها..

"ثم تحترقون، تحترقون..؛ فإذا صليتم المغرب غسلتها".

"ثم تحترقون، تحترقون..؛ فإذا صليتم العشاء غسلتها،

ثم تنامون فلا يكتب عليكم ذنب حتى تستيقظوا"..

* * *

الحق أنه لو كانت الصلاة تباع بأغلى الأثمان، لما وجد العاقل مندوحة من شرائها.. فالسكينة التى تُفيئها على النفس، واليقين الذى تبنيه داخلها، والغبطة التى تُنشى بها الروح ـ كل أولئك يجعل منها أثمن ما يطلب المؤمن، ويجعل أوقات أدائها أسعد لحظات الحياة.

وإذا كنا لا ندرك للصلاة هذه القيمة، ولا نجد فيها وبها حلاوة الإيمان، وجلال القُرب، وبَرْد اليقين؛ فلأننا لا نؤديها كما ينبغي أن تؤدى، ولا ننشد فيها الروح والمضمون، بل يشغلنا عدد ركعاتها وشكل حركاتها..

يقول الرسول عليه السلام:

"الصلاة نور".

فما الذى يضىء فى المصباح الكهربائى. أهو زجاجة الخارجى أم أسلاكه الدقيقة الباطنة..؟

إنها الثانية هى التى تضىء.. ولا تكاد تحترق حتى يعم الظلام.

وكذلك الصلاة.. فوراء أشكالها الظاهرة روح إذا لامَسْناه فَجَّر فينا الضياء.

وحين قال القرآن الكريم:

قد أفلح المؤمنون..

"الذين هم فى صلاتهم خاشعون"

كان يفتح أعيننا على هذا الروح الكامن فى حركات الصلاة، وحين قال الرسول عليه السلام:

"إنما يُكتب للمرء من صلاته ما عَقَلَ منها".

كان يعنى روح الصلاة كذلك..

لقد سأله سائل عن أحب الأعمال إلى الله سبحانه، فقال:

"عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجد لله سجدة

إلا رفعك الله بها درجة.. وحطَّ عنك بها خطيئة"

فهل السجود فى حركة سريعة وعابرة وخالية من الروح قادر على منح هذا الغفران وهذا الرضوان..؟

يقول الرسول فيما يحكيه عن ربه عزَّ وجلَّ:

"ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضته عليه".

"ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به.."

فهذا الذى لا يتقرب المتقربون إلى الله بمثله.. والذى يفىء على صاحبه كل هذا

الحب المُفيض من الله، لا يمكن أن يكون عملاً آليًا خاليًا من الروح.. وإذا كانت الصلاة روح الدين؛ فالخشوع والحضور، والإخبات روح الصلاة.

ويبدأ الخشوع والحضور والإخبات فى الصلاة بإتمام أدائها فى طمأنينة وأناة..

يقول النبى عليه السلام:

"أسوأ الناس سَرِقةً، الذى يسرق من صلاته..

"قالوا: يا رسول الله: كيف يسرق من الصلاة؟.

"قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها"

ويضرب للمصلى المتعجل مثلاً فيقول:

"مثل الذى لا يتم ركوعه، وينقُر فى سجوده، مثل الجائع يأكل التمرتين لا تغنيان عنه شيئًا"

إن الصلاة بمثابة "خط هاتفى" بين المؤمن وربه.. فأيُنا لو كان يملك هذا الخط مع ملك أو رئيس دولة لا يتمنى استثماره فى كل حين..؟ وأينا لا يتمنى أن تطول المحادثة وتطول..؟؟

إن المؤمن القانت فى صلاته ـ قائمًا يقرأ الفاتحة. أو راكعًا يقول: سبحان ربى العظيم.. أو ساجداً يقول: سبحان ربى الأعلى.. أو جالسًا يُحيِّى ربه بالتحيات المباركات الطيبات..ليس فى كل صلاته هذه إلا مناجيًا ربه.. ففيم العجلة لمن كان له عقل..؟ وفيم الذهول وتبديد الذهن فى تفاهات الدنيا.؟

لقد كان الرسول يسجد، فلا يريد أن يقوم..!!

كانت حلاوة الإيمان كلها، وغبطة الروح كلها.. وسعادة الدنيا والآخرة جميعًا تملأ لحظات سجوده، وتنساب فى الحروف التى يصوغ منها ابتهاله ونَجْواه..

"سجد وجهى للذى خلَقه وصوَّره..

"وشقَّ سمعه وبَصره..

"تبارك الله رب العالمين..

"اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت وعليك توكلت".

"سُبُوح قُدُوس، رب الملائكة والروح..

"سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى"..

وكثير غيرها من التسبيح والتمجيد لله تعالى الكبير.. كانت روحه المتصلة بالله دومًا تجد أسعد أوقات اتصالها في الصلاة.

ولقد وعد الرسول كلَّ مُصَلٍّ في خشوع وحُضور بأقباس من ذلك الضياء، ورياحين من ذلك الرضوان.

المهم أن نعرف كيف نصلي.

إن الفارق كبير بين من يحرك اعضاء جسمه حركات تلقائية تائهة لا تعني شيئًا.. ومن يحركها حركة مدروسة منسقة ليحصل بها على تفوق رياضي وسلامة بدنية..

وكذلك، فالفارق كبير بين من يصلي.. والذى يصلى ليصل بصلاته هذه إلى تفوق روحي مأمول، وليدخل بصلاته دائرة الضوء والرحمة والرضوان.

لقد سمع الرسول يومًا أحد المؤمنين وهو يصلي خلفه يقول بعد أن نهض من ركوعه:

"ربَّنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه"

فسأل عليه السلام بعد أن أتم صلاته:

"من المتكلم..؟؟

قال الرجل: أنا..

فقال له النبي:

"لقد رأيت بضعة وثلاثين ملَكًا يبتدرونها، أيهم يكتبها أولا"!!.

فهل كل من قال هذه الكلمات تتسابق ملائكة الله لكتابتها ورَصْدِها..؟

ولماذا إذن حظيت من ذلك المؤمن بكل هذه الحفاوة وهذا القبول..

إن حديث الرسول يحمل الجواب والتفسير ـ فلو أنها خرجت من فم الرجل وحده لذهبت كما تذهب آلاف الكلمات.. لكنها لا بد كانت تحمل خشوعَ وقنوتَ وإخباتَ كل ذرة في قلبه وروحه وكيانه.

اقرأ الفاتحة في خشوع متأملاً كلماتها المضيئة.. وسبِّح ربك وأنت راكع أو ساجد في خشوع، وأدْرِ على الكلمات التي تسبحه بها وتدعوه قلبك وخاطرك ـ واطمئن وتأنَّ ولا تَعْجل عجلة من يريد أن يُفلت من موقف يملأ بالضيق نفسه!!.

بينما الرسول يجلس في المسجد يومًا مع أصحابه، أشار إلى سارية من سواري المسجد وقال:

"لو كان لأحدكم هذه السارية ـ أي العمود ـ لكره أن تُجْدَع ـ أي تقطع..

"فكيف يَعْتمد أحدكم فيجدع صلاته التي هي لله..؟!

"أتموا صلاتكم؛ فإن الله لا يقبل إلا تامًا.."

ولقد لمح يومًا رجلاً يسرع في القيام الذي يلي الركوع. فغضب وقال:

"لا ينظر الله إلى صلاة عبد، لا يقيم فيها صُلبه بين ركوعها وسجودها".

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يعلمنا أن الصلاة كائن حي ـ يزداد حياة بالخشوع والحضور وجلال الأداء.. ويفقد من حياته بقدر ما يفقد من خشوعنا وحضورنا.. وبقدر ما هي رحمة ونعمة وعافية ورضوان لمن يحسن أداءها.. فإنها ـ أعاذنا الله ـ تكون عكس ذلك لمن خذلها وأزهق روحها وخشوعها..

هذا "أنس" يحدث عن رسول الله.

"... ومن صلاها لغير وقتها.. ولم يسبغ لها وضوءها.. ولم يتم لها خشوعها، ولا ركوعها، ولا سجودها ـ خرجَت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيَّعك الله كما ضيعتني.."

هذا، بينما يختلف الأمر تمامًا بين الصلاة ومن يؤديها أداءها الحق السليم.

ففي نفس هذا الحديث الذي يرويه "أنس" رضي الله عنه يقول عن النبي:

"من صلى الصلوات لوقتها، وأسبغ لها وضوءها، وأتمَّ لها قيامها وخشوعها، وركوعها، وسجودها خرجت وهي بيضاء مُسْفِرَة، تقول: حفظك الله كما حفظتني".

حقًا. لقد كانت الصلاة قرة عين الرسول.. وما كانت كذلك قطعًا إلا لجلال منزلتها عند ربه العلي الكبير. وحين تتبع حديث الرسول عن الصلاة وتوجيهاته بشأنها ترى في يسر هيامه العظيم بها. يقول عليه السلام:

"يتعاقبون فيكم: ملائكة بالليل وملائكة بالنهار..

"ويجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر..

"ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم:

كيف تركتم عبادي؟

"فيقولون: تركناهم وهم يصلون.. وأتيناهم وهم يصلون.."

إنه عليه صلاة ربنا وسلامه مشغوف بعالَمٍ له بالصلاة دَوِىٌ كَدوىِّ النحل. إنه يريد أن يرى أمته ويرى أتباعه مع الله دومًا فى أوثق العرى به، وأسعد المواقف معه وبين يديه.. فى الصلاة.

"أتيناهم، وهم يصلون..

وتركناهم، وهم يصلون" .

ولم لا يشغف بالصلاة ويسعد؟ ولم لا يوصى أمته بها آناء الليل وأطراف النهار، وقد سمع ربه يقول فى حديث قدسى:

"قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين،

ولعبدى ما سأل" .

لقد كان الرسول حَفِيًا بعبادة ربه جميعها ، بيد أن حفاوته بالصلاة تقف وحدها بين كل تِلكُمُ الحفاوات.

إنه يدرك ما للصلاة من منزلة عند الله، ويعلم سرها الأعظم فى نقل المؤمنين إلى عالم القداسة والاجتباء، ألم تكن أولى وصايا الله له بالصلاة أن جعلها خمسين فى اليوم والليلة، ثم خففت إلى خمس لها أجر الخمسين..؟أليس فى ذلك وحده ما يكشف عن القدر العظيم للصلاة وعن مكانتها الرفيعة عند الله..؟

من هنا كانت حفاوة الرسول بها من أولى لحظات التأهب لها - من الوضوء، إلى السعى لها، إلى شهود جماعاتها فى المساجد، إلى ختامها، إلى انتقاء أطايب الدعاء والتسبيح فيها.. إلى كل ما يتعلق بها من قول وعمل وشعور!!.

لقد شرع عليه السلام لكل خطوة فى مشوارها الطويل آدابه.

إنها أعظم قربات العبد إلى ربه، فلتكن من البهاء والجلال فى المستوى القريب من أن يكون لائقًا بعظمة الله وجلاله.

وهكذا يمنحها الرسول عليه الصلاة والسلام من اهتماماته وتوجيهاته الكثير الطيب..

إنه يبدأ معها من الطهارة الكاملة، فيدعو المؤمنين ويوصيهم أن يتطهروا من الجنابة أولاً بأول؛ حتى لا تعوقهم الجنابة عن صلاة مفروضة أو نافلة.

ويدعوهم للاستبراء الكامل في غير وسوسة كلما قضى أحدهم حاجته..

ويأمرهم أن يقربوا الصلاة دائمًا في ثياب طاهرة، وعلى أماكن طاهرة..

وإذا كانت الصلاة تبدأ بالوضوء، فقد رفع عليه الصلاة والسلام من شأنه مكانًا عاليًا.

يقول صلى الله عليه وسلم:

"إن أمتي يُدْعون يوم القيامة غُرًّا مُحجّلين، من آثار الوضوء..

"فمن استطاع أن يطيل غرته؛ فليفعل".

أجل.. يأتي المصلون يوم القيامة بيض الوجوه والأيدي والأقدام تكسو جباههم التقية أنوار الوضوء والصلاة.

والوضوء لأنه باب الصلاة، كان ذلك باب المغفرة لصاحبه، يقول عليه السلام:

"من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من تحت أظفاره".

ويزيد بُشراه هذه تحديداً فيقول:

"ما من امرىء يتوضأ فيحسن وضوءه إلا غُفِرَ له ما بينه - أي الوضوء - وما بين الصلاة الأخرى حتى يصليها".

تُرى لماذا والوضوء ليس صلاة، ذهب بكل هذه المنزلة بين العبادات..؟

ذلك أنه درجة الاستعداد النفسي عند العبد حين يهم بالوقوف بين يدي الله في الصلاة..

من أجل هذا، كان الرسول يتوضأ في صمت وخشوع وكأنه يصلي..؛ لأن لحظات الوضوء هذه لا تمثل إعداد الجوارح الظاهرة من الجسم للصلاة بتنظيفها وتطهيرها فحسب.. بل تمثل قبل ذلك واهم من ذلك، إعداد النفس كلها وتركيز حضورها استعداداً للموقف العظيم أمام الله رب العالمين..!

وكلما كان هذا الاستعداد النفسي والتهيؤ الروحي يقظًا وكاملاً، كانت نظرة الله إليه شاكرة وغامرة.

من أجل هذا بَشَّرنا الرسول عليه السلام بأن خطايا المتوضئ تخرج حتى من تحت أظفاره..

ومن أجل هذا كان الوضوء على المكاره ـ كأن يكون الماء البارد فى الأوقات الشاتية ـ أعظم أجراً..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات..؟

"قالوا: بلى يا رسول الله..

"قال: إسباغ الوضوء على المكاره. وكثرة الخُطى إلى المساجد.. وانتظار الصلاة بعد الصلاة"..

"فذلكم الرِّباط.. فذلكم الرباط.. فذلكم الرباط"!!

فإسباغ الوضوء على المكاره يقف فى الدرجة والمنزلة مع كثرة الخُطى إلى المساجد، ومع انتظار الصلاة فى المسجد بعد الصلاة.. ثم هو ـ كما يخبر الرسول عليه السلام ـ نوع آخر من الرباط فى سبيل الله.

* * *

ولأن الوضوء إعداد مباشر للنفس كى تقف بين يدى ربها سبحانه، ثم سبحانه ـ أوصانا الرسول عليه السلام أن نعقبه على الفور بصلاة.

فإذا توضأ الإنسان قبل وقت الفريضة بساعات، يوصيه الرسول أن يتبع وضوءه بصلاة ركعتين ليتم بهما المواجهة الروحية التى من أجلها شرع الوضوء.

ذات مرة توضأ النبى بين نفر من أصحابه ـ أفرغ على يديه من الإناء فغسلهما ثلاث مرات، ثم تمضمض واستنشق واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثًا، ويديه إلى المرفقين ثلاثًا، ثم مسح برأسه.. ثم غسل رجليه ثلاثًا ثم قال:

"من توضأ نحو وضوئى هذا ،ثم صلى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه".

ويريد الرسول للصلاة أن تكون مهرجانًا دائمًا لعبادة الله، تَخفُق على الدوام أعلامها، وتسطع أنوارها، وتصدح تراتيلها.

لهذا يوصى بالأذان لها حتى لو يكون الإنسان وحده فى حقل، أو صحراء، أو فلاة..

يقول "أبو سعيد الخُدْرىّ" صاحب رسول الله لأحد إخوانه:

"إنى أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت فى غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ، ولا إنس، ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة.. سمعتُه من رسول الله ﷺ".

ويخبرنا الرسول عليه السلام أن للأذان من المثوبة والفضل وحسن الجزاء ما لو علمه الناس لتنافسوا عليه وتزاحموا حتى لا يفضَّ زحامهم وتنافسهم سوى إجراء قرعة بينهم تحسم النزاع.!!

"لو يعلم الناس ما فى النداء ـ الأذان ـ والصَّف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يَسْتَهموا عليه لاسْتَهَمُوا"

ويدعو للمؤذنين فيقول:

"اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين"

ولأن مواقيت الصلاة فى عصر النبى لم تكن تحددها الساعات، بل كانت تعتمد على حركات فلكية، أطلق الرسول على المؤذنين وصفًا جميلاً فنعتهم بأنهم "رعاة الشمس والقمر"..!!

يقول عليه السلام:

"إن خيار عباد الله، الذين يُراعون الشمس والقمر والنجوم لذكر الله".

ويقول فى حديث آخر:

"إن أحب عباد الله إلى الله، رعاة الشمس والقمر ـ يعنى المؤذن.

"وإنهم ليُعرفون يوم القيامة بطول أعناقهم"!!

* * *

والعلاقة الروحية التى تصنعها الصلاة للعبد، وتُدنيه من رحاب ربنا ورضوانه، تبدو فى بعض كلمات الرسول وكأنها محسوسة ومُباشرة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن أحدكم إذا قام يصلى؛ فإن الله تعالى قبَلَ وجهه".

وإنه عليه السلام ليزيد هذا المعنى توكيداً حين يجعل مجرد المرور أمام المصلى

عملاً تناهى فى الحمق والعدوان؛ فيقول عليه السلام:

"لو يعلم المارُّ بين يدى المصلى ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين خيرً له من ان يمر بين يديه"..!

يقول راوى الحديث: لا أدرى، قال أربعين يومًا.. أو شهرًا.. أو سنة..

وفى حديث آخر يرويه الترمذى عن "أنس".

"لأن يقف أحدكم مائة عام، خير له من أن يمر بين يدى أخيه وهو يصلى".

فماذا هناك وراء هذه الحرمة، بل القداسة للفراغ اليسير الذى يفصل بين المصلى واتجاهه وقبلته..

ماذا هناك من القداسة حتى يصبح انتظار أربعين عامًا أو مائة عام خيرًا للإنسان وأسلم لمصيره من أن يقتحم هذا الحمى المقدس ولو بخطوة واحدة..؟ إن هذا التحذير البالغ يصور فى وضوح ما يعنيه الرسول الكريم وهو يقول:

"إن أحدكم إذا قام يصلى؛ فإن الله تعالى قِبَلَ وجهه".

وتوكيدًا آخر للمعنى الجليل.. يوصى الرسول كل من يقف للصلاة أن يتخذ أمامه ساترًا، فإذا كان عمودًا أو شيئًا قائمًا جعله المصلى عن يمينه قليلاً أو إلى يساره قليلاً حتى لا يبدو كأنه يستقبله ويتجه إليه.. فإذا رأى وهو يصلى أحدًا يهم بالعبور من هذه المسافة التى تفصل بين المصلى والشيء الذى اتخذه ساترًا فعليه آنئذ أن يمد يمينه ليمنع ذلك العابر بقوة.

يقول صلى الله عليه وسلم:

"إذا كان أحدكم يصلى فلا يَدعْ أحدًا يمر بين يديه، وليدرأه ما استطاع".

إن قول النبى:

"فإن الله تعالى قِبَلَ وجهه"..

يفسر لنا كل هذا الاهتمام الذى يعطيه عليه الصلاة والسلام لموقف الصلاة.

وإذا كان هذا المصير الأليم لمن يَخْترم اتجاه المصلى بخطوة أو ببعض خطوة..

فماذا على المصلى نفسه إذا هو لم يحترم جلال الموقف الذى يقفه بين يدى الله، فراح يذرع ببصره الآبق وعينيه الزائغتين كل ما أمامه من فضاء واشياء، وكأنه واقف فى شارع أو جالس فى مقهى..؟!!

إن التلفُّت فى الصلاة بالبصر الزائغ والنظرات الضالة إهدار لحرمة الموقف العظيم.. ولست أدرى، إذا كان المصلى يعتقد أنه واقف بين يدى الله حقًا، وأن الله تجاهه، فمن هناك خيرٌ من الله يرسل وراءه بصره الزائغ، وذهنه المبدَّد، وقلبه الفارغ المشغول..؟ من أجل هذا، يقول النبى عليه السلام:

"لا يزال الله مُقبلاً على العبد فى صلاته ما لم يلتفت؛ فإذا صرف وجهه انصرف عنه".

ويقول:

"إياك والالتفات فى الصلاة؛ فإن الالتفات فى الصلاة هلكة".

بل إن قداسة الموقف تبلغ فى إدراك الرسول المدى الذى يحتجز فيه بصر المصلى حتى عن النظر إلى السماء، لما قد يفضى ذلك إليه من تشاغل أو ضياع الخشوع.

يقول عليه السلام:

"ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى صلاتهم لَيَنْتهُنّ عن ذلك، أو لتُخْطَفنَّ أبصارهم".

إن وقار الصلاة وجلالها يفرضان على المصلى ألا يجاوز ببصره مكان سجوده - ففى هذا عون وثيق على إحراز الخشوع الكامل والحضور الحق..

* * *

ولقد جعل الرسولُ الصلاةَ الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، فقال:

"بين الرجل والكُفر ترك الصلاة"..

وقال عليه صلاة الله وسلامه:

"بين الكفر والإيمان، ترك الصلاة".

وقال: "العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"..

وهذه الأحاديث الصحيحة بما تحمل من رهبة، تكشف عمًا لجوهر الصلاة من قداسة وخطر؛ إذ أن مجرد الحركات اللاهية الخالية من كل روح وخشوع وتأمل، لا يكون لها وحدها هذه القداسة التى تجعلها فاصلاً شاهقًا بين الإيمان والكفر.

وفى هذا يقول الرسول عليه السلام:

"إن أحدكم إذا قام يصلى، فإنه يناجي ربه؛ فلينظر كيف يناجيه".

لقد أبصر واحداً يصلى ذات يوم وهو مشغول البال والروح عن صلاته، فناداه الرسول بعد فراغه منها وقال له:

"ألا تتقى الله..؟

"ألا تنظر كيف تصلى؟".

ولقد تحدث عليه الصلاة والسلام عن الذى لا يعطى الصلاة حقها من الخشوع والأناة فقال عنه:

"لا ينظر الله إليه، وإن كان على الله كريما"!!

وحين نأخذ مشهدا من مشاهد الرسول الكريم وهو واقف فى الصلاة بين يدى ربه الأعلى ندرك جلال الموقف الذى تمثله الصلاة، ونلمح المغانم الجزيلة الهائلة، التى تظفر بها علاقة المؤمنين بربهم حين يحسنون الصلاة.. يصف أحد هذه المشاهد واحد من أصحاب النبى فيقول:

"رأيت رسول الله ﷺ، ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء"!!

ويصف الإمام على كرم الله وجهه مشهداً آخر فى أيام غزوة بدر، فيقول:

"... ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ، تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح"!!

ألم يقل عليه السلام:

"... وجُعلت قُرة عينى فى الصلاة"..؟

فهو إذن حَرِىٌّ بأن يفيض فيها دمعه.. ويَئِزُّ كالمرجل صدره؛ لأن استشعار جلال الله إن بالخوف أو بالرجاء، أثمن وأبهى ما تتطلع إليه أرواح الأوابين.. فكيف بمن لا يستشعر هذا الجلال وحسب، بل يعيشه ويحياه ويفنى فيه ويتضمّخ به.. وأين..؟ فى أقرب قُرب، وأعلى مقام..؟!!

لقد بلغ هُيامه بالصلاة وتقديسه إياها أن جعل الخُطى إليها خُطى إلى الجنة.

ولأنه يريدها ـ كما سبق أن ذكرت ـ مهرجانًا دائمًا لعبادة الله وتحميده وتمجيده،

فقد أعطى صلاة الجماعة كل اهتمامه وكل دعواته وصلواته وبركاته.

"من مَشى فى ظلمة الليل إلى المساجد، لَقىَ الله عز وجل بنور يوم القيامة".

ولنقرأ هذا الحديث له عليه الصلاة والسلام:

"صلاة الرجل فى جماعة تضعُف ـ أى تزيد ـ على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسًا وعشرين ضِعْفًا.. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يخطُ خطوة إلا رُفعت له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة ـ فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه ما لم يُحدِث، تقول اللهم صَلِّ عليه.. اللهم ارحمه.

"ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة"..!!!

أليس هذا مهرجانًا من المثوبة والعطاء والرضوان والبر، يُقيمه الله للذين أقاموا لجلاله مهرجانات العبادة والصلاة.

"فى بيوت أذن الله أن تُرفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ".

هذه البيوت التى تَنَزَّل حبها على قلب الرسول الكريم فأحاطها برعاية وتكريم يتعاظمان كل وصف.

إنه يقول فى بنائها:

"من بنى لله مسجدًا صغيرًا كان أو كبيرًا، بنى الله له بيتًا فى الجنة"

ويقول فى الحفاظ عليها:

"جَنِّبوا مساجدكم صبيانكم، ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم، ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم، وسَلَّ سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر.. وجَمِّروها فى الجُمَع"..

لقد رأى عليه السلام ذات يوم نخامة فى قبلة المسجد، فتغيظ لمنظرها ـ وأخذ عُرجونًا فحكَّها به، ثم دعا بزعفران فغسل به مكانها وطيَّبَه!!

إن للمسجد قداسته التى يتحدد بالولاء لها حقيقة إيمان المؤمن ودرجة علاقته بربه.. فحسبه أن يكون اسمه: "بيت الله"، ثم إنه المكان الذى تقف الدنيا كلها بكل سلطانها وهَيْلَمَانها خارج بابه ـ ففى داخله وتحت سقوفه لا تجد سوى صفوف من

العابدين خشعت لله ووقفت ضارعة بين يديه، وحيثما ترنو وتُولّى فثَمَّ وجهُ الله.. لقد وُضِعَ تحت الأقدام كل تَمايُز، وكل غرور، وكل استعلاء.. وليس ثَمَّ سوى صاحب البيت وربه الأعلى..!

﴿ وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ، فلا تَدْعُوا مع اللهِ أحَدًا ﴾.

أجل.. هذا هو المسجد فى الإسلام، وهذه قداسته.. من أجل هذا وفَّر الرسول له كل الضمانات التى تبقى له سكينته وجلاله.

فهو ينهى عن الحديث فيه بغير صلاة أو ذِكْرٍ لله.. لكى يظل معبدًا لا مُنتدى.

يقول عليه السلام:

"سيكون فى آخر الزمان قوم يكون حديثهم فى مساجدهم ـ ليس لله فيهم حاجة"..

وهو يغضب إذ يُتخذ سوقًا أو أدنى من ذلك..

يقول عليه السلام:

"إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد؛ فقولوا: لا أربح الله تجارتك..

"وإذا رأيتم من يَنشدُ ضالته فى المسجد؛ فقولوا: لا ردَّها الله عليك".!!

إنه إصرار جليل ونبيل على أن تبقى بيوت الله لله.

وإن درجة التأسِّى بالرسول فى احترام بيوت الله، مساوية لدرجة الصدق فى علاقتنا بالله.

فاحترام المسجد بالصمت، وبالسكينة، وبعدم إقحام فضول حياتنا الدنيا ولغوها وضوضائها عليه، وبالأدب الرفيع معه وفيه جزء من تبعاتنا الدينية تزكو بأدائها علاقتنا بالله.

ماذا نأخذ به أنفسنا من حياء وأدب وخشوع حين ندخل على ملك أو رئيس..؟

إنك فى المسجد تجلس إلى ملك الملوك ورب العالمين.. وإذا أخطأت أدب المجلس فى بيته ومسجده، فإن خسرانك فادح ومبين.

لقد حرص الرسول حتى على طريقة جلوسنا فى المسجد أن تكون مهذبة وخاشعة.

فقد دخل المسجد يومًا فرأى رجلاً جالسًا مشبِّكًا أصابعه بعضها فى بعض فنهاه وقال:

"إذا كان أحدكم فى المسجد؛ فلا يُشَبِّكَنَّ؛ فإن التشبيك من الشيطان".

إنه موئل للصلاة والعبادة لا غير.. وليس لشىء آخر أبداً.

من أجل هذا، فإن أجر الجلوس فيه كالصلاة.. وله ثواب قريب من ثوابها!!

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن أحدكم لا يزال فى صلاة ما كان فى المسجد، حتى يخرج منه".

* * *

هذه هى البيوت التى جعل فيها مع الجماعة أفضل من بضع وعشرين صلاة..

والتى جعل الخُطى إليها خُطىً إلى الجنة.

يقول عليه السلام:

"لا يتوضأ أحدكم، فيحسن وضوءه، فيُسبغه، ثم يأتى المسجد لا يريد إلا الصلاة إلا تبشَّشَ الله إليه - أى تهلَّل وفرح - كما يتبشَّش أهل الغائب بطلعته"..!!

أىُ هُيام عظيم هذا الذى يملأ فؤاد النبى بالصلاة وببيوت الله.؟

وإنه لا يسوق هذه المبشرات تشجيعا، بل تقريراً لواقع وحقيقة، فحواهما أن الله يمنح هذا العطاء فعلاً لرواد بيوته.. وليس أدل على هذا من نبأه مع بنى سَلِمه.

وَلْنُصغ لـ "جابر" رضى الله عنه يرويه لنا:

"خَلَت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال لهم: بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد.

"قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك..

"فقال عليه السلام: يا بنى سَلِم..

"ديارَكم، تُكتب آثارُكم".

"ديارَكم، تُكتب آثاركم"!!

فهو عليه السلام يخبرهم أن أجرهم فى خطوات قليلة تنقلهم إلى المسجد حين يسكنون قريبًا منه - ليس كأجرهم فى مِشوار طويل.. من أجل هذا دعاهم أن يظلوا فى ديارهم القاصية لتكتب لهم آثار مسعاهم الطويل والجليل إلى بيت الله كلما قصدوه كل

يوم خمس مرات للصلاة..

وهكذا قال عليه السلام:

"أعظم الناس أجرًا فى الصلاة، أبعدهم إليها مَمْشى"..!!

هكذا كان حبه للمسجد وتمجيده له..

ولقد بشَّر بأن أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله.

"رجل قلبه مُعَلَّق بالمساجد"

إن كلمتى "قلبه معلق" ترينا الصلة الحميمة بين حديثنا هذا عن المسجد وعن الصلاة أو حديثنا عن علاقة المؤمن بالله.

فامتلاء القلب بحب الصلاة وبحب بيوتها إلى درجة التعلق والوجد، لا يكون إلا صورة صادقة لعلاقة كاملة مباركة وثيقة العُرى والأسباب بين العبد وربه..

من أجل هذا يقول ﷺ:

"إن عُمَّار بيوت الله، هم أهل الله عز وجل".

ويقول:

"إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد؛ فاشهدوا له بالإيمان".

إنك فى المسجد لا تجالس جماعة المؤمنين من الناس وحسب. إنك هناك مع خلق آخرين من الملأ الأعلى.. مع ملائكة الله سبحانه. والرسول إذن يخبرنا بهذا لا يعنى مجاز القول بل يقصد حقيقته.

فلقد رأى يومًا بعض المسلمين يدخلون المسجد وقد فاحت منهم رائحة ثومٍ نىء أكلوه. فقال:

"من أكل البصل، والثُوم، والكراث؛ فلا يقربن مسجدنا..

فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم"..!!

فهذه الكلمات، والطريقة التلقائية التى تتحدث عن حقيقة مفروغ من تيقنها، تؤكد لنا أن الرسول عليه السلام حين يخبرنا أننا فى المساجد نجالس الملائكة فإنما يعنى ما يقول تمامًا.. وهذا سر حرصه الشديد على أن تحتفظ المساجد بكل جلالها - فلا لغو فيها ولا صياح، ولا بيع ولا نوم، ولا شىء مما ينافى جلالها، فهى بيوت الله.. وهى مثوى ملائكته فى الأرض.. وهى مكان تمجيده وحده،

وعبادته دون سواه..

* * *

وإذا كانت هذه منزلة المساجد عند الله وعند رسوله؛ فكم يكون هجرها خطيئة وبوارًا..!؟

من أجل هذا، أعلى الرسول ـ كما رأينا قَبْلاً ـ من قدر صلاة الجماعة، وفى المساجد بالذات، لما يعلم من كرامتها على الله ومنزلتها عنده.

ولقد وعَى أصحابه والصالحون من بعدهم هذه الحقيقة؛ فكانت المساجد، وكانت صلاة الجماعة فيها تفوق عندهم الدنيا وما فيها.

يقول "عبد الله بن مسعود" صاحب رسول الله ﷺ:

"لقد رَأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافقٌ معلوم النفاق..

ولقد كان الرجل يُؤتَى به يُهادى بين الرجلين ـ أى يسنده اثنان من إخوانه لمرضه أو ضعفه ـ حتى يُقامَ فى الصف"!!

ويقول أيضًا:

"إن رسول الله ﷺ علَّمنا سُنَنَ الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يُؤذَّن فيه"..

ويعلمنا الرسول ﷺ أن مسئولية المسلم عن ترك الجماعة فى المسجد تزداد ويزداد معها وزره، كلما كان مكان عمله أو تجارته أو مسكنه قريبًا من المسجد، بحيث يسمع الأذان للصلاة ثم لا يُلبِّيه. هنا، لا رُخصة فى التخلف عن الجماعة ولا عذر إلا لضرورة قصوى وبالغة.

ولنسمع ما يرويه لنا "أبو أمامة" صاحب رسول الله يقول:

"أقبل ابن أم مكتوم، وهو أعمى، وهو الذى أنزل فيه قول الله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾

"أقبل إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله، بأبى أنت وأمى.. إنى كما ترى قد دَبَرت سنِّى، ورقَّ عظمى، وذهب بصرى، ولى قائد لا يُلائمنى قيادُه إياى ـ أى لا يحسن السير بى ـ

فهل تَجد لى رخصة فى الصلاة فى بيتى..؟

فقال له الرسول ﷺ: هل تسمع المؤذن فى البيت..؟

قال: نعم يا رسول الله..

"قال الرسول ﷺ: ما أجد لك رُخصة..

ولو يعلم هذا المتخلف عن الصلاة فى الجماعة ما لهذا الماشى إليها، لأتاها ولو حَبْوًا على يديه ورجليه"..!!

فهذا صحابى مكفوف البصر، كبير السن، رقيق العظم، لا يُرخص له الرسول ﷺ فى ترك الجماعة ما دام يسمع الأذان بها والنداء إليها.

ذلك أن وضع المؤمن كله، يصير موضع تساؤل مُقلق حين يتعود أن يسمع نداء الله، أو النداء إلى الله، فيمضى مُكِبًا على وجهه دون أن يهرول إليه مُلبِّيًا.!!

* * *

ولأنّ القضية علاقة المؤمنين بالله والتسامى بالروح إلى منازل الأبرار والمتقين؛ فقد حاول الرسول ﷺ أن يجعل من بيوتنا مساجد، حتى لا تكون هجرًا مهجورًا.. وحتى لا تخلو من ذكر الله وعبادته فتمتلئ ظلامًا..

من أجل ذلك، جعل البيوت أفضل مكان لصلاة النوافل، فى الوقت الذى جعل المساجد أفضل مكان لأداء الفرائض.. يقول عليه الصلاة والسلام:

"إذا قضى أحدكم الصلاة فى مسجده، فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته، فإن الله جاعلٌ فى بيته من صلاته خيرًا".

إنه يعلمنا عليه الصلاة والسلام أن نبعث فى بيوتنا الحياة والنور بالصلاة فيها، فيقول:

"اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم.. ولا تتخذوها قبورًا"!!

كما يقول:

".. أما صلاة الرجل فى بيته فنور؛ فنوِّروا بيوتكم"..!!

* * *

لا أحسب أن هناك مبالغة فى القول بأن الرسل عليهم صلاة ربنا وسلامه إنما

جاءوا ليعلموا الناس كيف يؤمنون بالله وكيف يعبدونه.

فالعبادة الحقة والخالصة لله رب العالمين هي خير معراج للشخصية الإنسانية، تعرج عليه إلى أعلى مستويات الكمال المقدور لها.. وهي بالتالي بلسم الحياة الإنسانية من أمراضها وآفاتها، وطريقها المستقيم اللاحب إلى مصيرها الخير الآمن القويم.

ولم يقل أحد: إن العبادة تعني التخلي عن التبعات التي تقيم بناء الجماعة، وتحفظ استمرار وتقدم الحياة.. إنما قال لنا المرسلون جميعًا: إن عبادة الله هي العون الأعظم على تمكين البشر من حمل تبعاتهم تجاه الجماعة وتجاه الحياة..

وسيدنا "محمد" ﷺ خاتم أنبياء الله ورسله، يلقى علينا في هذا أصدق الكلمات وأزكى الدروس.

إن الإنسان إذا تلوثت روحه، أو صدأت وبارت، فقد النور الذي به يرى.. والحكمة التي بها يعرف.. والقدرة التي بها يُبدع.. بل إنه يفقد جوهر وجوده وحياته، ويمسي شَبحًا مهما انتفخت أوداجُه، وتمايلت أعطافُه.. ومهما يكن سلطانه وأعوانه وثراؤه ونجاحه. إن عبادة الله الحقة الخالصة القائمة على النهج الذي رسَمه الوحي والرسول ﷺ، هي قبل سواها، بل دون سواها - التي تمنح الشخصية الإنسانية نورها وعافيتها ومقدرتها؛ بما تصل بينها وبين الله من عُرَى وُثقى ورضوان عظيم.. وهي وحدها التي تمنح الحياة الإنسانية سلامها وأمنها وفضائلها واستمرارها القوي الصالح القويم.. فإذا لبث الرسول ﷺ عمره كله يدق أبواب القلوب الغُلق لتنفتح على معرفة الله وعبادته؛ فلأنه كان يعلم أن هذه العبادة هي خير زادٍ للبشرية - أفرادًا وجماعات، وأممًا..

إن المرسلين لم يُبعثوا في فراغ، ولم يجيئوا إلى خواء.. لقد جاءوا في عصور كان للبشرية فيها عقلها وذكاؤها ومدنياتها، وما من أحد يستطيع أن يجحد قيام المدنيات السابقة في الصين، والهند، ومصر منذ آلاف السنين، ولا حضارات في ما بين النهرين في ذلك الدهر البعيد.

فالعقل والذكاء والمعرفة، والجبروت الإنساني في تسخير الطبيعة وبناء الحياة - كل ذلك كان يَعْمُر العصور التي عاصرها المرسلون وهتفوا فيها بكلمات الله.

ومن ثَمَّ، فإن الله لم يرسل رسله ليعلموا الناس الأبجدية.. أو ليلقوا فيهم دروس

محو الأمية..!!

كما أنه سبحانه لم يرسلهم ليعلموا البشرية كيف تبنى مدنها وسدودها وتنشئ مدنياتها وتنسخ حياتها مع حضارتها..!!

لقد كان العقل الإنسانى بكل نفوذه واقتداره يعلم وينشىء ويشيد.

ولكن الله سبحانه، وهو أعلم بمن خلق، يعلم أن العقل وحده لا غناء فيه ولا جدوى منه. بل ولا خير فيه لمن لا يمتلك معه الروح العظيم الذى يهديه إلى الغيب وما فيه من أسرار لا تُؤْذِن باتتها ء.. وإلى رب الغيب الذى له ما فى الأرض وما فى السماء.. من أجل ذلك أرسل رسله..أرسلهم برُوح من أمره ليبعثوا الروح الإنسانى وليقودوه إلى معرفة الله.. إلى تقديس الله.. وإلى عبادة الله.. فالبشرية بلا روح تعبد الله وتعرفه محكوم عليها بالخسران وبالبوار، ولو كان معها من شَوامخ العقول ومُعجز الذكاء، وباهر الحضارات عدد رمل الأرض وحصاها..!!

إنها آنئذ تكون مقطوعة الصلة بمصدر وجودها وحياتها ونورها.

إنها آنئذ تكون قد سجَنت نفسها فى عنق الزجاجة، وليكن ذلك العنق من ذهب، ودُرٍّ، وياقوت.. لكنه مع ذلك كله سيكون كافيًا لإزهاق روحها!!..

ومهما تملأ البشرية أبعادها الأربعة لكل ما يستطيعه ذكاؤها وعملها، فستظل تشعر بالاختناق ما لم تتجه إلى البعد الآخر وتتخذ منه مجلى حياتها وانتعاشها.

ولم يدلنا على ذلك البعد بكل رياحه البُشريات، وبكل هوائه النقى الذى يبعث من فى القبور سوى أنبياء الله ورسله.. ولم يكن ذلك البعد الغائب سوى معرفة الله وعبادته.

أجل.. بهذا البعد المفقود الذى اكتشفه لنا الأنبياء والمرسلون تَمَّ بَعْثُ الإنسان..!!

* * *

فإذا قضينا مع سيدنا محمد رسول الله ﷺ هذا الوقت المبارك الذى نقضيه الآن ونحن نتلو أحاديثه وتوجيهاته عن علاقتنا بالله وكيف تزكو وتتألق؛ فإنما نطالع فقرة من كتاب جليل باهر أعطى فيه البشرية كلها عطاء جزيلا واسعًا فى فن ارتياد ذلك البعد المفقود.. بُعد الروح بكل ما تحمله من أشواق إلى خالقها وبارئها ومُنتهاها..!!

وإذا أطلنا وقفتنا مع الصلاة؛ فإنها "غذاء الملكة"..!! أجل، غذاء الروح الذى لم يُعرف مثله غذاء.

"اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة"..

هكذا يقول الرسول ﷺ..

ويُسأل:

"يا رسول الله، أىُّ الأعمال أحب إلى الله.."

فيجيب عليه السلام:

"الصلاة على وقتها"

ولنضع لهذه الكلمات المواضى المرهفة:

- "لا إيمان لمن لا أمانة له"
- "ولا صلاة لمن لا طهور له"
- "ولا دين لمن لا صلاة له"
- "إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد"!!!

أجل.. لا دين لمن لا صلاة له؛ لأن الصلاة، وبالطريقة التى شرعها الإسلام خاصة.. خمس فرائض فى اليوم، عدا النوافل والسنن - تعنى التجدد المستمر للشعور بالمسئولية أمام الله.

فنحن لا نصلى الخمس فى ساعة واحدة من النهار.. بل هى موزعة على ساعاته الأربع والعشرين.. وبين كل فريضة وأخرى وقت نقطعه فى كل ما فى حياتنا من عمل ولهو، وصدق وكذب، وحق وباطل، فإذا علمت أنك خلال ساعات اليوم ستقف بين يدى الله خمس مرات، تناجيه خلالها وتتحدث معه؛ فسيتوفر لك من الحياء لا محالة ما يجعلك تتوقى شيئًا فشيئًا مزالق اليوم وآثامه ومغرياته، وعندئذ يسلم لك دينك، وتسلم لك نفسك.

ثم إن رأس الدين هو الإيمان.. الإيمان بالله إلهًا، وسيدًا، وربًا والصلاة هى الكيان الخارجى لهذا الإيمان. هى الواقع الحى لوجوده.. فأنت تؤمن بالله..؟؟ حسن.. إن أبسط مظاهر هذا الإيمان أن تطيعه فيما ينفعك ولا يضرك.. يُسعدك ولا يُشقيك..

وإن أبسط مظاهر هذا الإيمان أن تسعد بدقائق تقضيها مع من آمنت به.. مع القاهر فوق عباده، مع الوهاب مالك الملك ذى الجلال والإكرام.. صَلِّ إذن له.. واسجد، واقترب.. وإذا لم تفعل فإيمانك لغو.. ودينك لغو.. أجل..

"ولا دين لمن لا صلاة له"!!!

ثم إن دنيانا ـ كما قلنا ـ تَعجّ بالشواغل والشهوات وبحوافز الطمع والطموح، وبهواتف اليأس والجزع. ونزعات الحقد والبغضاء والحسد.

والصلاة التى شرعها الله لنا خمس مرات على طول النهار وامتداده.. إنما هى فرار بالنفس خمس مرات كل يوم من ذلك المستنقع الوخيم، إلى روح وريحان، ولحظات مُترعة بِمنَاعِم الرضا والسكينة والقناعة والمحبة والسلام.. فمن ظفر بها سلم له دينه.. ومن قضى العمر كله مع قِيعان المستنقع فأيّان يكون له دين..؟؟

لقد أوصانا الرسول بالصلاة كما لم يُوص بفريضة أخرى.. ذلك أنه علم من ربه ومن القرآن الذى أوحى إليه، كم تبلغ ضرورتها للإنسان وقدستها عند الله، أليس القرآن العظيم هو الذى يغمره بهذه الوصايا:

﴿ أتْلُ مَا أُوحِيَ إِليكَ مِنَ الكِتَابِ، وَأَقِمِ الصَّلاةَ، إِنَّ الصَلاةَ تَنهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

﴿ وَأمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاة، وَاصْطَبِر عَلَيها ﴾

﴿ وَأَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلَفَى مِن اللّيلِ ﴾

﴿ وَسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّك قَبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِن آنَاءِ اللَّيلِ فَسَبِّح وَأَطرَاف النَّهارِ لَعلّكَ تَرضَى ﴾.

﴿ قُم اللَّيل إلاَّ قَلِيلاً.. نِصفَه أَو انقُص مِنهُ قَلِيلاً.. أَو زِدْ عَلَيه وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرْتِيلاً ﴾

﴿ أَقِم الصَّلاةَ لِدُلوكِ الشَّمسِ إِلى غَسَقِ اللَّيل، وقُرآنَ الفَجْرِ، إِنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشهُوداً ﴾.

صلى الله عليك يا حبيب الله.. لقد سارعت إلى أمره، وصليت آناء الليل وأطراف النهار. ووجدت من حلاوة الإيمان والقرب والشهود فى الصلاة ما جعلها قرة عينك ونور روحك.. فجئت فى إلحاح نبيل تدعونا إليها وتحضنا عليها؛ لننال من حلاوتها ونورها وبركاتها ما أنت حريص على أن يفوز به الناس، جميع الناس.. ذلك أنك كما وصفك ربك

الكبير حريص علينا ورءوفٌ رحيم..!!

لقد أوصاه الله - فيما أوصاه - بالصلاة في غسق الليل وفي الفجر.. وعلى الفور تنعكس هذه الوصية الإلهية في وصاياه هو للمؤمنين.. وفتح أعينهم وقلوبهم على مغانم هذه الأوقات النادرة الباهرة.

فيقول عليه السلام:

* "من صلّى العشاء والفجر في جماعة كان كقيام ليلة"
* "من استطاع منكم أن يشهد الصلاتين: العشاء والفجر ولو حَبْوًا ؛ فليفعل"
* "إن هاتين الصلاتين - العشاء والفجر - أثقل الصلوات على المنافقين.. ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حَبْوًا على الرُكَب"..!!
* "أفضل الصلاة بعد الفريضة، صلاة الليل"
* "صلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"
* "إذا أيقظ الرجل أهله - أي زوجته - من الليل، فصلّيا، كُتبا في الذاكرين والذكرات"
* "يُحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة؛ فينادي مناد: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع.. فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب..

ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب"..

لقد أمره ربه أولاً..

و - ثانيا - سارع إلى ربه يقوم الليل إلا قليلاً.. ويقف في صلوات طويلة خاشعة والناس كلهم نيام، حتى تتورم قدماه، وهو لا يني ولا يستريح، لأن حلاوة التهجد أحَلَّتْهُ عالمًا آخر من المباهج والغبطة وعطاء الله..!!

و - ثالثًا - أقبل مسرعًا على الأمة وعلى الناس يدعوهم، أن تعالوا وانظروا.. واسمعوا.. وذوقوا..!!

تعالوا إلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..!!

تعالوا إلى صلاة الليل، وقرآن الفجر.

﴿ إِنَّ قُرآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا.. ﴾

* * *

أرايتم هذه المسيرة المباركة إلى الله..؟؟

أرأيتم هذا المنهج الميمون الذى أضاء به الرسول ﷺ علاقة المؤمن بالله وهداها.. ومنحها سدادها وتقاها..؟؟

إن ذلك كله رهن بالوعاء الذى سيحمله ويحتويه، وما كان لرسول الله أن يغفُل عنه، أو ينسى خطره العظيم.

لقد نهض الرسول يدعو أصحابه والمؤمنين جميعًا أن يحرصوا أبلغ الحرص على اللقمة الحلال.. فالحلال الطيب الذى لا غلو فيه ولا سرقة، بل ولا شبهة. هو أولاً وآخراً جواز المرور إلى الله..

يقول عليه السلام:

"كُلُّ لحم نبت من حرام، فالنارُ أولى به.."

والجسد الذى تكونت خلاياه من المال الحرام، لا يصلح أن يكون مَعْلَمًا من معالم الله والهدى فى الأرض.

ها هو رسول الله يتحدث عن:

"... الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ.. ومطعمه حرام، ومَشْربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّىَ بالحرام.. فأنَّى يُستجاب لذلك.."؟!

مثل هذا التَّعس كُل عبادته خواء، وكل ضراعاته هباء، ما دام الحرام غذاءه وكساءه.

ولقد قصده يومًا خاله "سعد بن أبى وقاص" رضى الله عنه يسأله أن يدعو الله ليجعله مستجاب الدعوة فقال عليه الصلاة والسلام:

"يا سعد، أطب مطعمك، تكن مستجاب الدعوة..

"والذى نفس محمد بيده. إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه، ما يُتقبَّل منه عملٌ أربعين يومًا.

"وأيما عبد نبت لحمه من سحت، فالنار أولى به.."

فتحرَّى الحلال فى رزقك وعملك. هو جُماع الأمر كله، والخير جميعه.

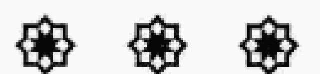
وبقدر ما يجرى فى عروقك من دم أزجاه الحلال يكون دينك خالصًا وتكون

علاقتك بالله باهرة ناضرة.

وبقدر ما يجرى فى عروق أبنائك من دم أزجاه الحلال يكون فلاحهم ونجاح سعيهم..

وليكن ختام حديثنا هذا، هذه الرائعة من جَوامع كلمه عليه الصلاة والسلام:

"خيرُ دينكم الورَع"!!



الفصل السادس

[عن العلاقات الإنسانية]

الإنسان، وعالمه..

فى الفصل الرابع من هذا الكتاب، أصغينا خاشعين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهو يحدثنا عن المحبة ويضعها على رأس فضائل الحياة التى بها تزكو وتنمو وتتألق.. ورأينا كيف يتتبَّع - عليه الصلاة والسلام - كل ما يُسهم فى إيناع الحب وإنمائه من عمل وخالجة، فيجعل منه ومنها شعيرة وعبادة وقُربَى.

والآن.. وفى ضياء حديثه الصادق الهادى الكريم، نرى كيف تعثُر "العلاقات الإنسانية" على دستورها الشامل والوثيق.

إن الرسول الذى يرفع فى الأرض شعلة السماء، والذى جاء يصحح للإنسانية مسيرتها الآبدة لم يكن لينسى دور العلاقات الإنسانية الراشدة فى دعم قوى الحياة والإنسان.. لم يكن لينسى عملها الفذ فى إضاءة الضمير الإنسانى بنور الخير والنبل ودفع التقدم الإنسانى إلى كماله الميسور والمقدور.

وإن أحاديثه الكريمة وتوجيهاته الخيرة لتستوعب كل صور هذه العلاقات وترسم لها طريقها الصحيح.

تستقرئها فى كل نماذجها، وتطلبها فى شتى مظانِّها، وترسم لها الطريق، وكأنها تضع لها دستوراً وقانوناً.

وأول ما يُعنى به الرسول الكريم فى مجال العلاقات الإنسانية علاقة الإنسان بنفسه.

ذلك أن الإنسان - أى إنسان - لكى يكون سَوِىَّ التعامل مع الآخرين لابد أن يكون أولاً سوى التعامل مع نفسه، فالمنشقُ على ذاته الكارهُ لها الساخطُ عليها، هيهات أن يظفر المجتمع منه بما حُرِمَته نفسه التى هى أقرب الأحياء والأشياء إليه.

وعلاقة الإنسان بنفسه تجد مُناخها الخصب وأرضها الطيبة وأزرها المشدود فى الهدى الذى بعث الله به رسله وأنبياءه، فبقدر ما تنال من هذا الهدى والنور تكون قدرتك على نسج أصدق وأسمى العلاقات بينك وبين نفسك - وبقدر ما تبتعد عن الهدى والنور،

يكون جفاف تلك العلاقات وضمورها.

يقول عليه السلام:

"إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا ـ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير..

"وكان منها أجَادِبُ أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا..

"وكان منها قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ"..!!

إن الناس يتفاوتون تفاوت الأرض وهى تستقبل الغيث.. فهناك الأرض التى تفتح للغيث الهاطل صدرها.. وتمتصه مسامُها فى حبور وغبطة، حيث تخرج بعد ذلك خَبأها وعطاياها.. وهناك الأرض العقيم ـ لكنها أجادب وحياض تختزن الماء وتحتويه، فيأخذ منه من شاء لما شاء.. فهذه أيضًا ذات نفع وخير..

ولكن هناك الأرض الثالثة ـ قيعان لا تمسك ماء ولا تخرج نبتًا فليس لها فى غيث السماء حظ ولا نصيب.. إن الناس لكذلك.

فالذى يتلقى هدى الله ليحيا به يقف مع الأبرار الذين يمدون الحياة الإنسانية دومًا بخير زادها..

والذى يختزن الهدى ليغترف منه القاصدون، له دوره المشكور فى إمداد الحياة بهذا الزاد..

أما الذى لا يهتدى ولا يساعد الآخرين على هُدى، فماله فى الخير من نصيب..

والرسول عليه الصلاة والسلام يكره للإنسان أن يكون كتلك القيعان المخذولة البائرة.

وإنه عليه السلام ليدعونا إلى الهدى حتى نكون أهلا للعطاء وأهلاً للإعطاء.

إن أحدًا لا يقدر على عون الآخرين ما دام عاجزًا عن عون نفسه فأعن نفسك واقترب من هدى الله ونوره قدر ما تستطيع، ثم أعنها بأن تجعل حياتك معها قائمة على علاقات سديدة ورشيدة.

وأول عناصر هذه العلاقة الرشيدة مع النفس ألا تُجاوز بها قدرها وكذلك ألا تَبْخَسها قدرها..!!

لا تجاوز بها قدرها بالغرور والصلف والكبرياء. فالكبرياء لله وحده..

يقول عليه السلام:

"لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب فى الجبارين، فيصيبه ما أصابهم".

أجل.. فحيث يغفل الإنسان عن حقيقته، وحيث يركب هواءه ليطير به ويحلق فوق عباد الله بغيًا وعتوًا، لا يكون ثمة أمن ولا إيمان.

وسواء عليك أن يكون داعى الغرور إعجابك بنفسك، أم تباهيك بحسبك.

يقول عليه السلام:

"إن الله أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية - أى تفاخرها وكِبْرَها.

"إنما هو مؤمن تقى.. أو فاجر شقى..

"الناس كلهم بنو آدم. وآدم من تراب".

وكما يكون الخير فى ألا تجاوز بالغرور قدرك.. يكون كذلك فى ألا تبخسه بالجهل والإذعان والهوان.

يقول عليه السلام:

"لا يكونَنَّ احدكم إمَّعَة".

و "الإمَّعَة" إنسان وضع نفسه تحت أقدام العجز، ودحرجها على أرض المهانة..

وإذا وضع الإنسان نفسه فى مكانها الحق، فلا هوان ولا عدوان.. ولا صلف ولا اتضاع، فإنه قادر بعدئذ على أن يشيد بقية العلاقات الرضية التى تهيئ له مع نفسه أطيب وأسعد وأزكى حياة.

وهنا تتابع أحاديث الرسول إضاءة الطريق بنورها وسناها.. يقول عليه السلام:

"إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه فى المال فلينظر إلى من هو أسفل منه، فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم".

إن شر ما يُنغِّص حياتنا الباطنة هو ذلك التطلع المغيظ المحنق إلى من هم فوقنا فى النعمة وأكثر منا فى الثراء.

إن شر ما يمزق وحدتنا مع أنفسنا ويفقدنا نعمة السكينة، ذلك الطمع الذى يَؤُزّنا أزًا عنيفًا لا من أجل أن نحقق لأنفسنا حياة مستورة طيبة بل لكى نلحق بالآخرين حتى لا يكونوا أرجح منا فى موازين الجاه والثراء..

والذين يُصابون بهذا العُصاب تنحدر علاقتهم بأنفسهم إلى هاوية القلق والحيرة والقنوط.

من أجل هذا، وحتى لا يفقد الإنسان طمأنينته ودينه ينادينا عليه السلام.

"يا أيها الناس، هَلموا إلى ربكم، فإن ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى".

* * *

وتزكو علاقة الإنسان بنفسه حين يكون ظاهره وباطنه سواء.. فكلما استقام الشكل والجوهر فى إنسان، تكونت له شخصية مُشعَّة تريح الأعين وتهب الثقة..!!

يقول عليه السلام:

"ما كرهت أن يراه الناس منك، فلا تفعله إذا خَلوت بنفسك".

إن هذا الحديث الكريم يهيئ المدخل القويم والسوى لعلاقات صحيحة فاضلة تصل الإنسان بالمجتمع وبالبيئة، لأنه إذا أصبحت نظرة الناس إليه ضمن الموازين التى تحدد سلوكه وتحكم أخلاقياته، فمعنى ذلك أنَّ علاقته الباطنة بهم تقوم على الرغبة الحقيقية فى احترامهم، وعلى الرغبة الحقة فى الظفر باحترامهم.. ليس ذلك فحسب.. بل ويعنى ذلك أيضًا أن ثمة ولاء مشتركًا بين ضمير المجتمع وضميره لتلك القيم والفضائل التى تظلل المجتمع وتَسودُه.. والإنسان الذى يحقق لنفسه هذا المستوى يكون من أقدر الناس على إعطاء العلاقات الإنسانية حقها من المبادرة والتأييد.

وإذا استقامت العلاقة بين المرء ونفسه على النسق الودود والسديد الذى تهيئه له تعاليم الرسول الأكرم، يستطيع فى ضياء التعاليم نفسها أن يعيش ويحيا فى علاقات متسامية مع البيئة كلها والناس أجمعين.

وتتجه أحاديث الرسول إلى وحدات البيئة والمجتمع لتغطيها جميعًا فى تَداركٍ وتَساوُقٍ بحاجتها من العلاقات الراشدة الجانبية. فتبدأ بالعلاقات العائلية..

* * *

"خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى".

هكذا يتحدث الرسول عليه صلاة الله وسلامه مركزًا على العلاقات الإنسانية داخل الأسرة.

إن الأسرة أول وحدة اجتماعية يتدرَّب الإنسان فيها على ممارسة علاقاته كلها مع المجتمع.. وهى المجال الحيوى الأول الذى تمر فيه الشخصية وتترعرع فضائلها، ومن

ثم تتجه أحاديث الرسول إليها فى حفاوة وثُقى.

فبرّ الوالدين الذى يجعل منه الرسول فريضة مقدسة لا يعنى واجب الوفاء لهما فحسب، بل ويعنى مع ذلك تدريب الإنسان على اكتساب فضيلة التعايش القويم والودود مع الناس جميعًا، لقد سئل عليه السلام يومًا هذا السؤال:

"يا رسول الله. إن لى مالاً وولداً، وإن أبى يحتاج مالى..

فأجاب عليه السلام سائله:

"أنت ومالك لأبيك".!!

وفى هذه العبارة الموجزة والمركزة يصوغ الرسول الكريم العلاقات الإنسانية داخل الأسرة فى تعبيرها النهائى.. كما يعطيها الانعكاس الشامل خارج الأسرة حيث الجماعة العريضة والبيئة الواسعة..

فمبدأ "أنت ومالك لأبيك" يعطى علاقة الولد بوالديه صيغة قانونية تجد امتدادها خارج الأسرة فى كل التبعات المالية التى يفرضها الإسلام والرسول على الإنسان تجاه وطنه ومجتمعه..

وكذلك سئل عليه الصلاة والسلام مرة أخرى من إحدى المسلمات هذا السؤال:

"يا رسول الله.. إن أمى ماتت، وكان عليها صيام شهر، أفأصوم عنها؟

قال الرسول: نعم صومى عنها.

قالت: وإنها لم تحج، أفأحج عنها..؟

قال الرسول: نعم، حجِّى عنها"

وهنا أيضًا نجد صيغة قانونية لعلاقة المرء بأبويه إذ يحمِّله الحديث الشريف تبعات فات الوالدين أداؤها وهو اليوم قادر على هذا الأداء..

وهذه الصيغة القانونية نجد امتدادها هى الأخرى خارج الأسرة فى كل تبعات التكافل الاجتماعى التى يفرضها الإسلام ورسوله على الإنسان تجاه غير القادرين فى المجتمع من مُعسر فى معيشته، أو عاجز عن أداء دينه، أو غاز لا يجد ما يقاتل به أو أرملة ويتيم ومسكين.

فالبر المتبادل بين الآباء والأبناء يُشكِّلُ جزءًا هامًا من المركز الحيوى للعلاقات الإنسانية كلها ـ ليس بسبب المعنى العبادى فى هذا البر وحسب؛ بل ولأنه كما ذكرنا

الدرس العملى الأول الذى يشكل مقدرتنا على احترام العلاقات الإنسانية فى شتى أوضاعها وآفاتها، وكلمة الرسول عليه السلام:

"خيركم، خيركم لأهله".

تخلق هذا الفرض فى أحسن تقويم، فليس خير الناس لأهله، الأنانى الذى يضعهم فوق الناس أجمعين.. بل هو الإنسان الفياض الذى يتعلم من بره أهله بر الناس جميعًا، والذى تتحول فضائله العائلية إلى فضائل إنسانية.

* * *

وتتألق اهتمامات الرسول عليه الصلاة والسلام بالعلاقات الأسرية عند إنشاء الأسرة وتكوينها.

وإنه لينفى عنها غائلة الغلو فى الصداق مرتفعًا بها عن مستوى الصفقة، فيقول عليه السلام:

"خيرُ الصداق أيْسَرُه".

إنها لفتة ذكية وحانية، لا تزال وستظل حاجة الناس إليها عَبْر العصور ماثلة، تلك التى يستهل بها رسول الله بناء الأسرة وإنشاءها.

إنه يريد لهذا البناء الميمون أن ينهض على أسس الإخاء، لا المفاضلة.. والثقة، لا المساومة.. والإيثار، لا الأثرة..!!

ولا شىء ينشئ، ثم ينمى علاقات رَيَّانةً وصالحة فى جو الأسرة مثل بدايةٍ من الطراز الذى يصوغه الرسول..

فالغلُوُّ فى الصداق والتكلُّف فيه فوق الطاقة والجهد بداية عسرة ومعوقة للعلاقات المنشودة.

من أجل هذا يُولى الرسول حَدبه واهتمامه لهذه البداية التى يحددها المهر والصداق.

ذهب إليه يومًا أحد أصحابه يخبره أنه تزوج.. فسأله الرسول عليه السلام:

"على كَمْ تزوجتها"..؟

ويجيب الصحابى: على أربع أواق..

ويقول الرسول مستكثرًا وربما مستنكرًا..

"على أربع أواق..؟

"كأنكم تنحتون الفضة من عَرض الجبل"؟!.

* * *

والرسول عليه السلام خير من يعلم أنه "لا يصحُّ إلا الصحيح" ومن ثم فهو لا يترك أمر العلاقات الأسرية، للمصادفة ولا يدعها تتشكل فى فراغ.. بل يهيئ لها كل ظروف الحياة والنماء.. ومنذ اللحظات الأولى لتكوين الأسرة، بل للتفكير فى تكوينها يتولى بتوجيهاته الرشيدة القضية كلها.. انظروا..

خطب صحابى من الأنصار واحدة من بنات قومه، فسأله الرسول عليه السلام:

"أنظرت إليها..؟"

قال الرجل: لا..

فقال النبى:

"اذهب فانظر إليها، فإن فى أعين الأنصار شيئًا"..

فى هذه النقطة البعيدة تبدأ اهتمامات المعلم الأكرم بعلاقات العائلة.

إنه لا يشيد هذه العلاقات فوق هُوَّة فاغِرة.. ولا يرفع بناءها فى فراغ.. وإنه ليعلم دور الطبيعة الإنسانية فى كل عمل إنسانى، ومن ثم فهو لا يخرجها من حسابه أبدًا فى كل التكاليف التى يشرعها والآداب التى يسنها.. إنه يطلب إلى الخاطب أن يكون على بينة من مستوى الجمال الذى يرتضيه وتقنع به نفسه.

لماذا..؟ ليس لأن الجمال عند كثير من الناس مقصود لذاته فحسب.. بل أكثر من ذلك؛ لأن الجمال فى عملية الزواج سبيل لإرباء روح الود وإنعاش علاقات الأسرة.

يوضح ذلك قوله عليه السلام لصحابى آخر:

"انظر إليها؛ فإنه أحرَى أن يُؤْدَم بينكما".

بل نراه فى حديث آخر يرسل امرأة خاطبة لتتبين من أمر المخطوبة ما لا تستطيع أن تتبينه إلا أنثى مثلها قائلاً لها:

"شَمِّى معاطسها.

وانظرى عُرقوبها".

وإنه ليذكُر أن المرأة تُخطب وتُرغب لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها..

وهو إذ يضع كل ذلك موضع التقدير، يفتح بصائرنا وأبصارنا على أهم هذه الدواعى وأزكاها قائلاً:

"فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك".

ومع تركيزه هذا على ذات الدين، ومع أنه رفض كل تمايز باطل، ونادى الناس جميعًا ليكونوا سَواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.. مع هذا كله لم ينس عليه الصلاة والسلام حقيقة التكافؤ بين الزوجين باعتبار ذلك ضرورة تقتضيها سلامة الحياة الزوجية وصيانة علاقات الأسرة من كل تحلل وبوار..

ودعوة النبى إلى هذا التكافؤ من أصدق آيات ولائه للحياة الإنسانية وأصدق آيات فطنته فى تناول مشكلاتها، فالناس مختلفون فى مستويات حياتهم ومتباينون فى الظروف التى تجعل منهم أنماطًا شتى فى تقاليدهم وتربيتهم وأخلاقهم وأسلوب حياتهم، وفى تلك الفروق الدقيقة التى تكاد تُشكِّلُ كُلًّا منهم على حدة، وكأنه من عالم وحده.. فما تعارَفَ من تلك الأنماط المتباينة تداعى وائْتَلف.. وما تناكر منها تباعد واختلف..!!

ولكى تقوم الأسرة وتنهض على علاقات قوية ودائمة دعا الرسول عليه السلام إلى احترام هذه الحقية عندما يهم اثنان ببناء أسرة وتكوين عائلة.

يقول عليه السلام:

"ثلاث لا يُؤَخَّرن"..

ـ الصلاة إذا أتت..

ـ والجنازة إذا حضرت..

ـ والأَيِّم إذا وجدت لها كُفؤًا".

إنه تعبير دقيق يصور المعنى المطلوب ويقرره، فهو عليه السلام لم يقل إذا وجدت لها زوجًا.. بل كُفؤًا..!!

ولقد جاءته ذات يوم فتاة تشكو أباها وتقول:

إن أبى زوَّجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته، فرد الرسول الأمر إليها وقال لها:

إن شئت أمضيت الزواج وإن شئت نقضته..

وهذه الواقعة تضيف بُعدًا جديدًا لموضوع الكفاءة، فالزواج هنا ابن عم الزوجة ـ أى أنهما من مستوى عائلى ومعيشى واحد، بيد أن هناك فارقًا آخر فى الدين وفى الخلُق.. وهو فارق لا يقل أهمية عند الرسول، ولا ينسى دوره فى تقويم الكفاءة وتقييمها، من أجل هذا يقول عليه السلام:

"إذا أتاكم من تَرضَوْن دينه وخلُقه فأنكحوه..

"إلاّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير".

فالدين نسب، والخلق حسب.. وهما يشكلان عنصرًا أساسيًا فى تحديد الكفاءة وتشخيص الكفء.. دون أن تنسى ضرورة التماثل المطلوب بين المستويات الاجتماعية بكل ما تحمله من توافق وفروق ـ الأمر الذى أحسن أمير المؤمنين عمر وعيه وأهميته فقال:

"لأمنعن تزوج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء".

* * *

إنه يمتثل أمر نبينا عليه الصلاة والسلام:

"تخيَّروا لِنُطفِكم، فأنكِحوا الأكفاء وانكحوا إليهم"

* * *

ولكى تبدأ العلاقات الأسرية بداية سليمة وتنمو نموها المرتقب، رفض النبى فى شدة الزواج الخلسة.. ذلك الذى يتم عن طريق الإغراء والخطف حيث تجمع شهوة جامحة بين ذكر وأنثى، فيتزوجان بعيداً عن رغبة ولى الأمر أو رغمًا عنه.

هنا يقول عليه السلام:

"لا نكاح إلا بولى".

ويقول:

"أيُما امرأة تزوجت بغير إذن وليها فإن نكاحها باطل.. باطل".

وليس ذلك إقراراً بحق الأبوة فحسب.. بل ورعاية لعلاقات الأسرة ودعمًا لصرحها القويم.. بدليل أنه عليه السلام يضع رغبة المخطوبة ورضاها موضع التقدير والاعتبار؛ فيقول عليه السلام:

"لا تُنكَح الأيِّم ـ أى الثيب ـ حتى تُستأمر، ولا البكر حتى تُستأذن".

ويقول أيضًا:

"الأيِّم أحق بنفسها من وليها".

"والبكر تُستأذن فى نفسها".

إنه إنسان باهر ورسول كريم يرعى العلاقات الإنسانية فى كل مظاهرها وأنماطها، وهو إذ يضع تشريعه للأسرة يولى العلاقات التى تحكمها كل عنايته ورعايته واهتمامه.. وإنه عليه السلام لحريصٌ على ألا ينظر الناس إلى الزواج كصفقة ـ من أجل هذا راح

يُنحّى عنه كل النوازع والمشاعر التى لا تتفق ومستواه الإنسانى الجليل.

ولكن، ما مصير العلاقات الإنسانية داخل الأسرة إذا تعرضت لبعض عوامل الخُلْف والشقاق التى تُقحمها على الناس ظروف الحياة.

ماذا يفعل الزوجان بمشاركة فشلت فى الاستمرار، وحياة بينهما صارت لا تطاق؟..

أيُمسك كل منهما صاحبه على هُون، أو حقد متربص وبغض مكظوم..؟ أم يتفرقان ويُغنى الله كُلاً من سَعته..؟؟

أجل.. كيف يتصرف زوج فشل نهائيًا فى تقبل الحياة مع زوجته وكيف تفعل زوجته..؟

أيُترك الناس ليتصرف كل على طريقته تجاه رُدود الأفعال الناجمة عن أفعال وأحداث تفرض الخصومة والقطيعة، أم يكون هناك سبيل مُوحَّد ومشروع يتيح للانفصال الذى لم يعد منه بد أن يتم فى ظروف وادعة لا تتحول العلاقات الإنسانية فيها إلى مِزَق وأشلاء..؟

إن علاقات الإخاء والمحبة والتفاهم والتعاضد بين الناس تأتى فى المقام الأول دومًا لدى الرسول الكريم.

وهكذا، ورعاية منه لهذه العلاقات داخل الأسرة، بلّغ الناس بشريعة الطلاق بعد أن تستفرغ كافة الجهود لإزالة أسبابه.

وإن وصفه للطلاق رغم إيجاز العبارة التى تناوله بها لآيةٌ فى الأدب العالى والحس الرفيع:

تلكم هى:

"أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق".!!

لم يكن لإنسان ـ فضلاً عن رسول يحمل كل هذا الولاء للعلاقات الإنسانية ـ أن يدَع الحياة الاجتماعية تتفجّر وتتدهور تحت وقع أسْر مغلقة ورازحة تحت نوازع الحقد والخصام والتربص دون أن تجد بابًا تخرج إلى محاولات جديدة تهبُّ عليها منها نسمات حب وسلام.

فإذا أضفنا إلى هذا إيمانه بأنه آخر مشرع يبلغ كلمة السماء، بدت مسئوليته وإحساسه بهذه المسئولية واضحًا ومفسرًا لكل اهتماماته النبيلة بمشكلات الإنسان، لأن يفترق زوجان جَفّت تمامًا رغبتهما فى البقاء، خير من أن يظلّا رازحين تحت نير يُشقيهما

بلظاه.. ولأنْ يتحول الزواج الذى فقد أسباب بقائه إلى انفصال وطلاق خير من أن يتحول إلى نير وجحيم..!!

ولقد كان الرسول على وعى حكيم وسديد بكل العوامل والظروف وهو يكُفَّ يده عن حق الذين يضنيهم زواج فاشل فى فَصْمه وإنهائه. هذه واقعة زوجة اسمها "بريرة" وزوج اسمه "مغيث".

لنصغ إلى حَبْر الأمة "عبد الله بن عباس" يرويها لنا فيقول:

"كان زوج بَريرة يقال له مُغيث، كأنى أنظر إليه يطوف طرق المدينة خلفها، ودموعه تسيل على لحيته..

"رآهما الرسول يومًا فقال لعمه العباس وكان جالسًا معه: ألا تعجب من حب مُغيث بَرِيَرة.. وبغض بريرة مغيثًا..؟

"ثم قال لها - عليه السلام - وكانت قد انفصلت عنه.

"ألا تُراجعينه يا بريرة..؟

"فقالت للنبى: يا رسول الله، أتأمرنى فأطيع، أم تشفع فأختار..؟

"قال الرسول: بل أشفع يا بريرة..

"قالت: لا حاجة لى فيه"!!..

فى عصر الرسول عليه السلام، كان للعلاقات الإنسانية من القداسة، وكان لها من الولاء والاحترام ما لم يكن يسمح بتعكير نقائها وصفائها فضلاً عن تركها لثارات الحقد والانتقام.. ولقد كان المسلمون الرواد ينظرون إليها من خلال تعاليم رسولهم وقدوته نظرة المخبتين الأوابين.

كانوا يرون فى انطوائها على أى حقد أو غش أو خديعة ضربًا من الكفر، وليس مُجرد عِصيان!!

هذه زوجةٌ مسلمة تكتشف بعد الزواج أنها وزوجها على طرفى نقيض.. وتعجز كل محاولاتها لتقبل حياتها الزوجية، فتذهب إلى الرسول قائلة له:

"يا رسول الله: إنى لا أنكر على زوجى فى خُلُق ولا دين.. ولكننى أخشى الكفر فى الإسلام".

أرأيتم:

هى تشهد أن زوجها صاحب دين وخلق.. ولكن تيار العاطفة الإنسانية بينها وبينه مقطوع.. هى لا تحبه كزوج ولا تألفه كشريك حياة. ومع ذلك تعيش معه تحت سقف واحد.. تحمل اسمه ويحمل اسمها.. فكيف يصح ذلك..؟ إنها ترى فى مشاعرها الخالية من حبه، وفى معاشرته وسط هذه المشاعر شىء يشبه الكفر.

"إنى لا أنكر عليه فى دين ولا خلق"

"ولكننى أخشى الكفر فى الإسلام".

هذا إجلال فريد، بل أكاد أقول إنه تقديسٌ فريدٌ للعلاقات الإنسانية، عزيز علينا أن نجد له نظيراً..

هى إذن عاجزة عن أن تحب زوجها وتألفه.. الأمر الذى لا حيلة لها فيه.. ولا حيلة للزوج أيضًا، فهو بشهادتها معه من الدين ومن الخلق ما لم تنكره وما لم تكن له بسببهما أى مأخذ أو شكاة.

والفصل بينها وبين زوجها يقتضى منها تضحية بمالها تقابل تضحية الزوج بقلبه وحبه.

هنالك سألها الرسول: ماذا كان أمْهَرك..؟ أى دفع لك مهراً وصداقًا..؟

قالت: حديقة..

قال عليه السلام: أتردّين عليه حديقته..؟

قالت: نعم.

فقال الرسول لزوجها:

"اقبل الحديقة، وطلّقها تطليقة".

* * *

لم يستخدم الرسول كلمة "تطليقة" فى هذه العبارة ليزخرفها بالسّجع.. بل استخدمها لأنه يعنيها ويعنى بها مزيداً من الحرص ومن الحدب على العلاقات الإنسانية وهو يقنن لشرعة الطلاق..

إنه عليه صلاة الله وسلامه لا يريد أن يغلق الباب نهائيًا أمام أى أمل ولو خافت فى إمكان استئناف الحياة الزوجية مستقبلاً فى ظل ظروف تساعده.. وهو لهذا يأمر بتطليقة واحدة حتى يظل الباب مُواربًا أو مفتوحًا أمام الرجعة لو قدر لها أن تكون.

ولم يكن موقف الرسول والإسلام من إباحة الطلاق إلا صورة صادقة من صور إبقائه

على العلاقات الأسرية ودعم بنائها ـ الأمر الذى فهم نقيضه بعض الذيــن يسيئون الفـهم وتُعْوزُهم النظرة الذكية والمخلصة.

فالرسول عليه السلام لم يترك سبيلاً لتفادى الطلاق إلا أوصَــى بـه وحـضَّ عليـه ـ وحسبه أنه اعتبره حتى وهو ضرورة مُلحَّة، أبغض الحلال إلى الله.

بل إن تعدد الزوجات ـ الأمر الذى أسيء فهمه هو الآخر ـ قُصد فيمـا قُصـد مـن حكمة تشريعه، أن يكون حائلاً دون تمزق الأسر بالطلاق..

فالزوج الذى جانبه التوفيق فى زواج ما، ولم يعد له خلاص فى غير الطلاق، يضع الإسلام أمامه فرصة أخرى تبيح له إنشاء زواج آخر مع الإبقاء على حرمـة زواجـه الأول وكرامته ما وُجِدَ لذلك سبيل..

وهنا، وفى حالة التعدد هذه يزداد توكيد الرسول لحرمـة العلاقـات الإنسـانية ـ لا سيما داخل الأسرة التى هى أولى لبنَات المجتمع ووحداته ـ فيرفعها إلـى مرتبـة العـدل المفروض.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من كان له امرأتان، ولم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة، وشقُّه ساقط"!!.

أجل.. ليس للهوى مهما تكن حوافزه وأسبابه مكان فيمـا يريـد الرسـول لعلاقـات الأسرة وعلاقات الناس من وشائج مشدودة بأواصر الحرمة والتوقير.

ويعطى الرسول التعبير النهائى لقداسة العلاقة بين الزوجين، حين يقول للزوجات:

"لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت الزوْجة أن تسجد لزوجها"..

وحين يقول للأزواج:

"استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عَوانٌ عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مُبيِّنة".

ويوقظ فينا ملكة التعقل والتمييز حين يخبرنا أن ثمة فى الشـخصية الإنسـانية مـن الفضائل والمزايا ما لا ينبغى أن نعمى عنه حين يثير غضبنا خطأ مَّا، أو نقيصة ما..

فيقول عليه السلام للأزواج:

"لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة ـ أى يفارقها أو يغاضبها ـ إن كَرِهَ منها خُلقًـا، رَضـى آخر..".

إنه لا يترك سبيلاً يستديم العلاقة الخالصـة المخلصة بيـن الزوجيـن.. أو بينـهما

كوالدين وبين الأبناء إلا دعا إليها، وبارك السائرين نحوها.

وإنه ليُخرج من صفوف المؤمنين كل من يعمل على إفساد علاقة زوجية قائمة:

يقول عليه الصلاة والسلام:

"ليس منا من خَبَّب امرأة على زوجها".

أى أفسدها عليه،وسار بينهما بالوقيعة والفتنة.

ويضرب عليه السلام مثلاً بليغًا لفداحة الإثم الذى يرتكبه من يخرِّب علاقات الأسرة على هذا النحو فيقول عليه السلام:

"إن إبليس يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة.. يجىء أحدهم، فيقول: فعلت كذا، وكذا، فيقول له إبليس: ما صنعتَ شيئًا. ثم يجىء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيقول له: نعْم أنت".

* * *

ومسألة المال، والنفقة والمعيشة، من أكثر أسباب الطمأنينة فى الأسرة إن جرت ريحها رُخاء.. ومن أكثرها إزعاجًا وتنغيصًا إذا تعثرت وتاهت.

والعلاقات الإنسانية داخل الأسرة تزدهر وتترعرع بقدر ما تُوقَّى الأسرة مشاكل العيش والنفقة.

وهنا يمتد للأسرة وللعلاقات الإنسانية فيها بَلْسَم شاف وترياق مبارك من تعاليم الرسول وأحاديثه.

ويبدأ عليه السلام فيعلمنا أن أفضل وأزكى صنوف النفقات التى ننفقها ـ هى تلك التى نسدّ بها حاجات أهلينا.

يقول عليه السلام:

ـ "دينار أنْفَقْتَه فى سبيل الله،

ـ "ودينار أنفقته فى رقبة ـ أى حررت به عبداً رقيقً..

ـ "ودينار تصدقت به على مسكين..

ـ "ودينار أنفقته على أهلك.

"أعظمها أجراً، الذى أنفقته على أهلك"..

ليس معنى ذلك بَداهةً، أن يعيش الإنسان أنانيًا، ويكُفَّ يده عن النفقة فى سبيل الله وسبيل الخير، ما دام وُسِّع له فى رزقه..

إنما ينحصر الحديث الذى سلف فى الذى لا تواتيه فرصة الإنفاق عن سَعَة.. فبمن يبدأ أولاً..؟

يقول الرسول: ابدأ بأهلك..

وإنه ـ عليه السلام ـ ليحدد الخطوات فى حديث آخر يقول فيه:

".. على نفسك .. وزوجتك.. وولدك.. وخادمك.."

وحتى ذلك النزاع الذى تثيره رغبة كثير من الزوجات فى الاستئثار بكل شىء، وحرمان آباء أزواجهن وأمهاتهم وأرحامهم من بعض ما يقدر عليه الأزواج من فضل وبذل..

حتى هذه، لم ينسها الرسول الكريم.. فبعد أن انتهى من دعم حق الزوجة والولد والخادم فى النفقة أولاً، عاد وقال:

"..وابدأ بمن تعول..

"أمك وأباك.. وأختك وأخاك..

"وأدناك، فأدناك"..

إن العلاقات الإنسانية تتبدد كالعهن المنفوش، حين تضيق دائرة التكافل المحتوم وتنغلق فى وجوه أحق الناس بالبر والحنان وبالعون الواجب المفروض.. وهكذا يدفع الرسول غوائل الأنانية والنكران التى تبدر من زوجة جائرة أو ابن جحود.!!

وحين يعطى النبى اهتمامه لكفاية البيت والأهل أولاً، فإنما ينبه بهذا إلى تلك التصرفات الرعناء التى يشغف بها كثيرون، فيبعثرون دخلهم فى مظاهر فارغة كاذبة.. بينما بيوتهم فى حاجة مُلحة إلى ما يَضيع خارجها رياء أو سفها..

وهنا معلمنا الأعظم عليه أفضل الصلاة وأبهى السلام:

"كفى بالمرء إثمًا أن يُضَيِّع مَن يَعُول".

وكما يَلْفح هذا الزجر ـ الزوج المضيِّع، يلفح كذلك الزوجة المسرفة.. فإن كليهما ـ الزوج والزوجة ـ مسئول عن طمأنينة الأسرة بما يتعاونان عليه من قصد وتنظيم.

يقول عليه السلام:

"كُلُوا، واشربوا، وتصدَّقوا ـ ما لم يُخالطه إسراف، ولا مَخِيلَة".

ويقول عليه السلام:

"إنما أخشى عليكم شهوات الغيّ فى بطونكم، وفُروجكم، ومُضِلاَّت الهوى".

ولقد رأى عليه الصلاة والسلام ذات يوم رجلاً عظيم البطن من السْمنة، فقال له وهو يشير إلى بطنه:

"لو كان هذا، فى غير هذا، لكان خيرًا لك"..!

وأحسب أن هذا القول يتجه للمرأة أيضًا إذا حولت ميزانية بيتها إلى بطن كبير، وجسم مُترهّل، وسمنة متفشية..!!

إن القصد فى المعيشة من أكثر دواعى الاستقرار فى الأسرة والاستقرار فى الأسرة ضرورى لكل ما ننشد للعلاقات الإنسانية من سلام وازدهار.

وبهذه التوجيهات التى تحدث بها الرسول ﷺ إلى الأسرة وعنها، والتى جئنا بومضات منها، تجد العلاقات الإنسانية إحدى ركائزها، وأحد أسسها، كما تجد منطلقها إلى المجتمع الكبير والعريض؛ لتكفل له فى ظل التوجيه النبوى الكريم حياة نامية.. حانية.. متسامية..

* * *

وتَتْداحُ العلاقات الإنسانية فى الأسرة لتنتظم فيها الرحم وكل ذوى القربى، ويُضْفى النبى على هذا النوع من العلاقات خاصة ـ حفاوة ربّانية، تجعل التفريط فيها نقصًا فى الدين لا يرضاه لنفسه مؤمن.

وإن الرسول عليه السلام، ليعلم أن العلاقات الإنسانية داخل الأسرة، هى الفرصة الجليلة لتدريب الإنسان على حِذْق العلاقات والولاء لها فى طول المجتمع وعرضه.

لأن الفضائل الإنسانية تزكو بالتدريب.. وخير فرص التدريب ما كانت فى نطاق تقبل عليه النفس وتألفه بحكم ظروف تلقائية وثيقة.. الأمر الذى نجده متوفرًا فى مجال الرباط العائلى..

وإذا كانت أنانية البعض تريد أن تقف بهم عند الحدود الضيقة للأسرة من زوجة وولد وإخوة فإن الرسول عليه السلام يدعونا للخروج إلى القرابة القريبة والبعيدة ـ تلك تشكل الامتداد الحق للأسرة وللرحم..

ويبدأ عليه السلام، فيقول لنا:

"الرَحمُ مُعلقة بالعرش، تقول: من وصلنى وصله الله.. ومن قطعنى قطعه الله.."

ويقول:

"يا معشر المسلمين. اتقوا الله وصِلُوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع

من صِلَةِ الرحم".

فالرحم معلقة بالعرش.. كيف..؟ إن كل ما للقرابة من حق، يلوذ بالله سبحانه من القطيعة التى تُضيع هذه الحقوق وتَدُسُّها فى التراب..

إن كل هذه الحقوق بكل ما تمثله من حاجة، وهموم، وكروب وكل ما تتطلع إليه من غوث، ونجده، وبر، تلوذ بالله الحفيظ العليم سائلة إياه أن يبارك الذين يحملون مسئولية وصلها وأدائها، وأن يأخذ لها حقها قصاصًا عادلاً من الذين يتنكرون لها.

ويصوغ الرسول الكريم هذا المعنى فى صورة من أبهى قلائد القول يقول:

"إن الله تعالى خلق الخلق.. حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة.

"قال: نعم، أما تَرضَيْنَ أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك..؟

"قالت: بلى..

"قال الله: فذلك لك".

"ثم قال ﷺ: اقرأوا إن شئتم: ﴿ **هل عَسيتُم إن تَوَلَّيتُم أن تُفسِدُوا فِى الأرضِ، وتُقَطِّعُوا أرحَامَكم.. أُولئِكَ الذِين لَعَنَهم الله فأصَمَّهم وأعمَى أبصَارَهم** ﴾".

فهُنا، يعطى الرسول أروع صور هذه العلاقة المهيبة، حين يكشف عن الحاجة القصوى التى تحرك القرابة نحو طلب الحنان والتعاطف والنُّصرة.. حتى لكأنها من فرط وحدتها ووحشتها وتَضوُّغِها تطرح نفسها بين يدى الله وتحت عرشه مستغيثة به، ضارعة إليه.. وحين يتبادل الناس التواصُل ويُعطون الرحم والقربى حقها يكونون قد حققوا واحدًا من أهم واجبات الإيمان.. لكن الرسول عليه السلام يُجلُّ هذه العلاقة عن أن تكون شيئًا يشبه الصفقة.

ومَن ثَم يقول:

"ليس الواصلُ بالمكافئ.. ولكن الواصل الذى إذا قُطعت رحمه وصلها".

إنه يريد لعلاقاتنا، لا سيما فى هذا المستوى القريب أن تبرأ من التبادل النفعى أو الأنانى.. فأصل قريبى لأنه يَصلُنى، وأزور أخى لأنه يزورنى.. فإذا امتنع امتنعت.!!

لا.. ليس الواصل بالمكافئ.. أى الذى يصل ـ فقط ـ من يصله..

إن العلاقات الإنسانية عامة، والأسرية خاصة، أجل مقامًا وأسمى منزلة عند الرسول من أن يعطلها عُزوب أحد الأطراف عنها وتقصيره فيها.

ها هو ذا عليه السلام يقول:

"ألا أدلُّك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة..؟

"أن تصل من قطعك.. وتُعطىَ من حَرمك.. وتعفوَ عمن ظلمك"..!!

فإن تصل من قطعك، وليس من وصلك وحسب.. هذه هى البطولة.. وهذا هو المسلك الكريم الذى تبقى به لعلاقاتنا الإنسانية رَحِمها وبهاؤها..

ولقد سُئل الرسول يومًا من أحد المسلمين هذا السؤال:

"يا رسول الله..

"إن لى قرابة، أصِلُهم، ويقطعوننى.. وأحسن إليهم، ويسيئون إلى.. وأحلُم عنهم، ويجهلون علىّ..

"فقال الرسول للسائل: إن كنت كما قلت؛ فكأنما تُسِفُّهم المل. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك".

إن كنت كما قلت، فكأنما تُسفُهم المل. أى لك الحجة عليهم وأنت ببرك هذا رغم إساءتهم، وبوصلك رغم قطيعتهم تُخجلهم وتذل غرورهم.. وسيأتى اليوم الذى يقعون فيه أسرى مَودَّتِك وإحسانك لأن معك من الله ظهيرًا ونصيرًا وسلطانًا.

إنه عليه السلام حريص لا ريب على إنعاش علاقاتنا وإيناسها وإحيائها بتبادل الود والصلة والحب، ابتغاء وجه الخير.. ولكن إذا نكص أحد الأطراف عن واجبه، فالرسول يدعو الآخرين ألا يعاملوه بالمثل، وإلا تعرضت للذبول والضمور والتلاشى، الأمر الذى يعيذنا منه الحريص علينا، والرحيم بنا ـ عليه صلاة ربنا وسلامه..

* * *

ومن الأسرة إلى المجتمع العريض الرحيب تتقدمنا أحاديث الرسول وتوجيهاته ليجد المجتمع فيها أوثق دواعى تواصُله وتكامُله.

ويدرك النبى الكريم ما تمتلئ به حياة الناس من ضوضاء ومثبطات.. يدرك أن الظروف والمواقف والمشكلات التى تعمل على تخريب العلاقات الحلوة الآمنة بينهم، أكثر وأكثر من الأخرى التى تعمل على جمع الشمل وإرهاف الإخاء..

من أجل هذا، لم يشأ أن يترك علاقاتنا الإنسانية هذه لرحمة الأحداث، وردود أفعال المواقف، وتحكّم الظروف.. إن ذلك يجعلها "قشة" فى مهب الريح.

بيد أنها تقوى وتدوم إذا صاغ لها "ضميرها" الذى تركن إليه، وتستمد منه مهما تكن الظروف.. ولقد وجد هذا الضمير فى ربط هذه العلاقات ربطًا وثيقًا وكاملاً بالله رب العالمين.

أنت إذا أخذت نفسك برحمة الضعيف، وتوقير الكبير، والتواضع للناس، وإنشاء كل وجوه العلاقة الحسنة معهم، لكى يمتدحوك أو ينفعوك، فسياتى اليوم الذى تهمل فيه هذه الفضائل والشعائر كلها أو بعضها إذا تغير تقديرك لمدحهم أو لنفعهم..

أما إذا أخذت نفسك دائمًا أن تصنع ذلك ابتغاء وجه الله ومرضاته فقد ضمنت لفضائلك هذه بقاء وخلودًا..

وهذا هو "الضمير" الذى يبثه الرسول فى علاقتنا الإنسانية لتبقى وتدوم ـ أن يكون الله وجهتنا، ولا شيء معه.

وهكذا قال عليه السلام وهو يتحدث عن الذى يُرزق حلاوة الإيمان:

".. وأن يُحبَّ المرء، لا يحبه إلا لله تعالى"

انظروا.. (لا يحبه إلا لله تعالى)..

هذا هو الضمير الرشيد والمجيد لعلاقاتنا كلها.. أن تحب، وتزور، وتعطف، وتصل، وتجامل، وتتعامل، لا لشيء ما، إلا ابتغاء وجه الله العلى العظيم.

عندئذ لن يضرك إهمال، أو نكران.. ولن تكون العلاقة بينك وبين مجتمعك صفقة.. بل قُرْبى يرعاها الله بحنانه.. ويتغمدها برضوانه..

وسيظل الرسول عليه السلام يؤكد هذا المعنى ويُذكِّرنا به..

إنه حريص على أن تكون كل أعمالنا لله.. وهو أكثر حرصًا على هذا فى مجال علاقاتنا الإنسانية؛ لأنها ستبور حتمًا إذا هى خضعت لأسلوب البيع والشراء.. وهات، وخُذْ.. بينما هى تحيا وتزدهر وتتألق كلما كان حاديها الرغبة فيما عند الله من رضا وثواب، وسيقول لنا الرسول كثيرًا:

"... وكونوا عباد الله إخوانًا"

وسيربط هذا الإخاء بضميره الحى.. ابتغاء وجه الله فيما تنشد من إخاء وصحبة، وفيما نأتى من مجاملة ومودة وصلات.

يقول عليه السلام:

"يقول الله تبارك وتعالى: وجَبَتْ محبَّتى للمتحابين فىَّ، والمتجالسين فىَّ، والمتزاورين فىَّ" ..

* * *

ويريد الرسول للناس أن يكون اجتماعهم على خير، وأن يكون تلاقيهم وتواصلهم وما بينهم من علاقات قائمًا على المعروف لا المنكر.

إن الفضائل بين الناس نسب يشد بعضهم إلى بعض، ها هو ذا يقول:

"الأرواح جنود مجنَّدة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف".

وهذا هو النسب الحق والحسب الباقى الذى يهيئ لصاحبه مكانًا فى قافلة المباركين من الناس.

يقول عليه السلام:

"ومن بَطَّأَ به عملُه، لم يُسرع به نَسَبُه" ..

إن سداد العلاقات الإنسانية يتمثل أولاً فى أنها تنادى الشرفاء إلى بعضهم وتقيم بينهم تكافلاً يجعل دائرتهم دائمًا فى اتساع، وعددهم فى مزيد..

وإن الله ليبارك هذا النوع من العلاقات ويبارك أصحابه، ليس فى الدنيا وحسب.. بل وفى الآخرة أيضًا..

يقول عليه السلام:

"أهلُ المعروف فى الدنيا، هم أهل المعروف فى الآخرة..

"وأول من يدخل الجنة أهلُ المعروف".

ولكن ذلك لا يعنى عند الرسول أن ينطوى أهل المعروف على أنفسهم، ويقيموا علاقات مُتَجهِّمة مع الآخرين.

إن للشريعة حدودها وعقوباتها وزواجرها تتولى بها علاج الخطيئة والخطائين.. أما مجال العلاقات الإنسانية فمن الخير أن يبقى مُفتَّح الجنبات بكل ما يمثله من عون

وغوث وسلام؛ لأنه بما يزخر به من تفاعلات كريمة قادر على الأخذ بأيدى الذين يتعثرون - إلى عالم الصلاح والفضيلة.

إن العلاقات الإنسانية من شأنها أن تفتح عينيها على ما عند الناس من خير وفضل، وأن تُغْضِىَ عما بهم من ضعف، فإنها إذا عكفت على مساءاتهم تجترُّها، وتعيْرهم بها وقعت تحت إغواء القطيعة، وفقدت دورها فى جمع الشمل والدعوة إلى الخير.

يقول عليه السلام:

"يا مُعاذ.. أحْسِن خُلقَك للناس".

إن كلمة "للناس" تزن كثيراً وتدُل على كثير، فهناك أحاديث كثيرة تأمر بحسن الخلق.. وامتلاكُ الإنسان كثيراً من الفضائل يرفع من قيمته وقدره.. لكن هذه الفضائل تظل كالطاقة المحتبسة حتى تُلقى على الناس وعلى المجتمع انعكاسها الباهر؛ فتدل على أصالتها.. أو انعكاسها المتجهم القاسى؟ فتدل على ضحالتِها..

يقول عليه السلام:

"إنكم لن تَسَعُوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بَسطُ الوجه وحسن الخلق"..

ونلاحظ هنا أن النبى عليه السلام، لم يستعمل كلمة "المؤمنين" أو حتى "المسلمين" بل كلمة "الناس".

ذلك أن هناك قدراً من الخلُق ومن التعامل الحسن الكريم، ومن العلاقات الحانية المسعفة.. هناك قدر من ذلك كله يجب بَذْله للناس، جميع الناس.. حتى يستقيم أمر الحياة الإنسانية، وحتى تبقى أبواب الرجوع إلى الصواب وإلى الخير مفتحة أمام الشاردين عنها..

من أجل هذا، وحتى حين يكون المقام مقام دعوة إلى الدين ذاته نجد الرسول يقول:

"بشِّروا، ولا تُنفِّروا.. ويَسِّروا، ولا تُعسِّروا".

إن هذا الجانب من حسن الخُلق الذى يتمثل فى التعامل المباشر والمستمر بين الناس بعضهم البعض، كان على الدوام موضع اهتمام الرسولﷺ وموضوع حديثه ووصاياه؛ لأنه يعلم أن العلاقات السوية والرشيدة مرهونة بوجوده.

يقول عليه السلام:

"إن أحبكم إلىّ، أحاسنُكم أخلاقًا.. الموطَّأونَ أكنافًا.. الذين يألفون

ويُؤلفون".

فهنا فى هذا الحديث تزكية مباشرة للأخلاق الاجتماعية التى تتأثر وتؤثر وتلتحم بالعلاقات الإنسانية.. فتوطِئَة الأكناف. والألُفة والإيلاف - كلها تحمل من رحابة المفهوم وسعة الدلالة ما يجعلها وعاء لكل الأخلاق الاجتماعية فى غير نقصان..

ويتم عليه السلام حديثه فيقول:

"وإن أبغضكم إلىّ المشاءون بالنميمة.. المفرقون بين الأحبة.. الملتمسون للبرآء العيب".

إنه تتبع دقيق للآفات النفسية التى تُفرز أخلاقًا مخربة للصفوف الإنسانية، مثبطة لأسباب التفاهم والود والإخاء بين الناس:

من أجل هذا يقول عليه السلام:

"حُسن الخُلق نماء. سوء الخلق شُؤم".

ولئن كان هذا المعنى صحيحًا بالنسبة للفرد ذاته - بمعنى أن حسن خلقه يأتيه بالخير، وسوء خلقه يجلب عليه السوء والشر.. فإنه أكثر صحة وانطباقًا على المجتمع فى علاقاته بالفرد.. فطيّب الأخلاق نماء لمجتمعه؛ لأنه بحسن خلقه دعوة وقدرة إلى كل فضيلة وخير.. وأما سيِّئ الأخلاق فشؤم على مجتمعه، لأنه بسوء خلقه وفظاظة نفسه وغلظ قلبه وتجهم سلوكه دعوة وقدوة إلى السوء والشر.. والرسول عليه الصلاة والسلام بهذه التوجيهات لا يهيئ الظروف الرضية للعلاقات الإنسانية فحسب.. بل هو مع ذلك، وربما قبل ذلك، يعمل على إيجاد الشخصية الصحيحة التى تستطيع بحسن فهمها ولباقة تصرفاتها أن تُمارس علاقتها مع الآخرين فى رفق وعذوبة وسداد..

وفى هذا السبيل يقول عليه السلام:

"ألا أخبركم على من تُحرَّم النار..؟؟

"تحرم على كل هيْن.. ليُن.. سهل".

فالهين، اللين، السهل، هو ذلك الإنسان الذى تُشيع تصرفاته فى العلاقات الإنسانية من الدفء والهدوء والسكينة ما تقرُّ به عيناها..

يقول عليه السلام:

"من أعطى حظه من الرفق؛ فقد أعطى حظه من الخير..

"ومن حُرم حظه من الرفق، فقد حرم حظه من الخير".

ولأنه وأصحابه وتابعيه، إنما يعايشون المجتمع الإنسانى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد حمّلهم عليه الصلاة والسلام مسئوليتهم تجاه الرفق به والحدب عليه حين قال:

"إنما بُعثتم ميسّرين".
"ولم تبعثوا مُعسّرين".

وإنه ليقول للأشجّ على ملأٍ من أصحابه:

"إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله:

"الحلم.. والأناة"..

ويكشف للناس عن طبيعة القوة الخيّرة الفاضلة التى هى شرف لصاحبها فيقول:

"ليس الشديد بالصُّرَعَة..
"إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب"..!!

فهذه القوة وحدها، هى التى تمنح العلاقات الإنسانية سلامها وسلامتها وحُبورها وانتصارها؛ لأنها - أى هذه القوة الرشيدة - ستوقّيها مزالق الحمق والغضب، ومهاوى التمزق والقطيعة..

وهذه القوة حين تكون طابع الشخصية بالنسبة لأفراد المجتمع فإن العلاقات الإنسانية تكون قد استقرت على قاعدة صُلبة لا تهتز ولا تتداعى.

* * *

بعد هذا مباشرة ينتقل بنا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى نقطة هامة، حيث يبين لنا طبيعة العلاقات الإنسانية ودرجة أهميتها.

فهل هى أسلوب فى المجاملات الرقيقة والإنسانية العابرة.؟ أم هى مسئولية دينية واجتماعية بكل ما للمسئولية من معان وخصائص وجزاء..؟

إنها عند الرسول وفى الإسلام مسئولية دين، وحقُّ مجتمع.. فعندما يقول الرسول مثلاً:

"ليس منّا من لم يرحم صغيرنا، ويُوقّر كبيرنا".

وعندما يقول:

"من لم يشكر الناس، لم يشكر الله"

وحين يقول:

"لا تؤمنوا حتى تحابُوا".

وحين يقول:

"من اطلَع فى بيت قوم بغير إذنهم؛ فقد حلَّ لهم أن يفقأوا عينه".

هذه الأحاديث.. وكلها عن آداب المجتمع وحقوقه وعن العلاقات الإنسانية ـ ألا تدل بما فيها من تُقى الإيمان تارة.. والحرمان من مزايا الانتماء إلى الجماعة المؤمنة تارة أخرى.. والعقوبة بفقء العين مرة ثالثة..ألا يدل ذلك كله على أن علاقاتنا بالمجتمع وبالناس ليست فى الإسلام، وليست عند الرسول مسألة ثانوية تعيش على هامش تعاليمه وتوجيهاته..؟ إنما هى واجب كبير يُلقى مع واجبات الدين والحياة مسئوليته المحتومة، أجل .. هى مسئولية دين وحق مجتمع، وإن أحاديث الرسول عليه السلام لتتعاون مع الناس لتبلغ أسمى منازل الوفاء بهذه المسئولية وهذا الحق.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا.. ألا هل بلغت".

أجل، بلغت يا رسول الله، أصدق البلاغ وأوفاه، فَدِماءُ الناس وأموالهم وأعراضهم لها قداسة تذود عنها كل طامع.. ومن هذه الحرمات المصونة المحفوظة تبدأ علاقات الناس مسيرها المطمئن الشريف..

يقول صلى الله عليه وسلم:

"إن أربَى الربا ـ أى شرَّه وأفدحه ـ استِطالةُ الرجل فى عِرض أخيه"..!!!

فأدنى الواجبات تجاه العلاقات الإنسانية التى تشد الناس بعضهم إلى بعض، وتجعل منهم عائلة واحدة ـ هو أن يحفظ بعضهم بعضًا بالغيب، فلا يذكر الرجل أخاه بالسوء، ويطلق فيه لسانه بغير حساب، منتهزًا فرصة غيابه.

وصدق الله العظيم:

﴿ أيُحِبُّ أحَدكُم أن يأكُلَ لَحْمَ أخيه ميتًا ﴾..؟!

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يضيق نفسًا، وينفجِّر غضبًا من هذا السلوك الذميم.. وإنه ليعود فيردد نفس المعنى الذى رأيناه فى حديثه السالف فى صورة أشد،

فيقول عليه السلام:

"أشد الرِّبا، وأربَى الربا، وأخبث الربا - انتهاك عرض المسلم، وانتهاك حرمته".

إنه عليه السلام ينشئ حُرمات شاهقة لسرائر الناس وأسرارهم ذلك أنه ما يترتب على خَدشها من دمار ماحِق، ليس للعلاقات الإنسانية وحدها، بل وللبناء الاجتماعى ذاته.

ولعله بذلك حين قال:

"إنك إن اتبعت عورات المسلمين، أفسدتهم أو كدت تُفسدهم"..

بل إنه عليه السلام ليزجر الحاكم عن تتبع تلك الأسرار إذا كان حريصًا على صلاح مجتمعه وإصلاحه.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن الأمير إذا ابتغى الرِّيبة فى الناس أفسدهم".

ويضرب عليه السلام أصدق الأمثلة وأروعها حين جاءه واحد من المسلمين واسمه "ماعز" يعترف بخطيئة الزنا ويسأل الرسول أن يقيم عليه حد الله.. وأمام اعتراف الرجل وإصراره على اعترافه رغم الفرص الكثيرة التى لوَّح له بها الرسول كى ينجو من الحد - لم يكن ثمة بد من إقامته..

ولكن، حين علم الرسول أن الذى دفع "ماعزًا" إلى الاعتراف وزيَّنه له رجل اسمه "هزال"..

قال له النبى:

"لو سترته بثوبك، كان خيراً لك".!!

إنه ولاء عجيب لحُرمات الناس واعراضهم لا ينى الرسول الكريم عن ترداده وتمجيده.: ولا يكُفُّ عن الدحض والرفض لكل افتياتٍ عليه..!

"يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه.

"لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته..

ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته"..

وممن يجىء هذا الولاء..

يجىء من رسول بعث ليزكِّىَ الفضيلة، ويَدْحَر الرذيلة..

رسول يقول:

"أنا آخِذٌ بِحُجَزِكم عن النار، أقول: إياكم وجهنم، إياكم والحدود.. إياكم وجهنم، إياكم والحدود.. إياكم وجهنم، إياكم والحدود".!

ويتحدث عن الذين يأتون يوم القيامة ومعهم من الخير أعمال كأمثال جبال تهامة، يجعلها الله هباء منثوراً.. وذلك لأنهم كما تحدَّث عنهم عليه السلام:

"قوم إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها".

من هذا الرسول الداعى إلى الله وإلى صراط مستقيم، يجىء هذا التكامل الفذ بين حرصه على الفضيلة والطاعة.. وحرصه النبيل على أعراض الناس وحُرمات الجماعة..

ذلك لأنه يعلم ما فى ذلك من صلاح عظيم ليس لأمر الناس فحسب؛ بل وللفضائل التى يدعو إليها.

ثم إنه عليه السلام لا يَسُوق الناس ولا يريد من أحد أن يسوق الناس إلى الفضيلة والخير بالسوط ولا بالتقريع.. إن أحرص ما يحرص عليه أن يقوم الملكوت الأخلاقى للضمير الإنسانى فى الجماعة وفى الفرد.. وأن تزكو وتزدهر فى كل إنسان ملكة التميز الأخلاقى التى هى ركيزة الفضائل الإنسانية. بل ركيزة الوجود الإنسانى ـ وذلك لا يتأتى بخذلان الإنسان وإذلاله، ولا بتتبع عوراته وتضخيم زلاته ألم يقل لنا الرسول من قبل:

"إنك إن اتبعت عورات المسلمين، أفسدتهم أو كدت تفسدهم"..؟

إنه لهذا يقولها.. ولهذا يرفضها ويَدْحَضُها..

إن الرسول يرضيه من الناس ويريد منهم ولهم أن يتغنَّوا دائمًا بما معهم من فضل وبما فيهم من خير ـ فذلك أفضل السُبل لإرواء علاقاتهم بحنان الود والمحبة والإخاء.

إنه يريدها علاقات نقية صافية، ومن ثَمَّ فهو يرفض غمز الناس وتجريحهم؛ لأنه ليس فيهم من يسلم من خطأ وأخطاء. فإذا لم يجد كل منهم إلى حظيرة يتهارَشُ نزلاؤها فى ضلال بعيد.!!

ولقد كان عليه السلام يرفض أدنى تسامح فى هذا السبيل.. فهذه زوجته الأثيرة "عائشة" تذكُر "صفية بنت حُيَىّ" زميلتها بكلمة هينة وعابرة فتقول: "إنها قصيرة".. فغضب الرسول ويقول لعائشة:

"لقد قلت كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمَزَجَتْه"

أى لجعلته عَكِرًا كَدِرًا ..!!

وإذ كان يجلس يومًا بين أصحابه استأذن رجل من الحاضرين وانصرف، وكان به عجز يجعله يقوم بصعوبة ويمشى بمشقة.. فلما وَلَّى ذاهبًا، قال بعض الحاضرين ـ ويبدو أنه كان حديث عهد بالإسلام ـ ما أعجَزه وأضعفه..

فغضب النبى من قوله وقال:

"اغتبت صاحبك، وأكلت لحمه".

بل إنه لسائر ذات يوم فى الطريق ومعه أصحابه فإذا ريح مُنتنة تهب على الطريق ـ ربما سبَّبها وجود مستنقع أو جيفة فى مكان غير منظور.

وأراد الرسول أن يضرب هذه الريح المنتنة مثلاً لرذيلة ينفر منها أصحابه فلم يجد أنسب لها من رذيلة اغتياب الناس وتجريحهم.. هنالك التفت إلى أصحابه وقال لهم:

"أتدرون ما هذه الريح"..؟

"هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين".!!

وكثيرًا ما يقع الناس فى ضلال التفسيرات المغرضة، فيظنون أنهم ناجون من وزر الغيبة ما داموا يجرحون الآخرين بحق لا بباطل.. ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام يخبر هؤلاء أن الغيبة باطل كلها. فقد سأل أصحابه يومًا:

"أتدرون ما الغيبة..؟؟

قالوا: الله ورسوله أعلم..

"قال: "ذكرك أخاك بما يكره..

قال قائل: "يا رسول الله، أرأيت إن كان فى أخى ما أقول..؟؟

قال الرسول: "إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته.. وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه" أى افتريت عليه وقذفته..

وإذا كان الرسول يشجُب الغيبة ويدمغها؛ فإنه فى نفس الوقت ينادى بالمقاومة المشروعة لها، حتى تجد العلاقات الإنسانية حماية من التردى الذى تسببه، والخذلان الذى تجلبه.

فيقول عليه الصلاة والسلام:

"من رَدَّ عن عرض أخيه، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة..

"... ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة".

ولقد رأينا موقفه الشخصى من زوجته حين قالت كلمة لا تُحسب فى الكلمات الجارحة، فإذا هو يخبرها أن كلمتها هذه كافية لأن تملأ البحر كدرًا وعكرًا..

* * *

وفى الطريق، وهو يقتلع الأشواك التى تُدمى علاقات الناس وتمزق وحدتها رفض الوشاة والنمامين وكنسهم بنظراته المشمئزة الساخطة؛ لأن دورهم فى تخريب العلاقات الإنسانية بَشع ورجيم، لقد أعلن حرمانهم من رحمة الله فقال:

"لا يدخل الجنة نَمام".

وقال:

"إن النميمة والحقد فى النار، وإنهما لا يجتمعان فى قلب مسلم".

فالنمام ما لم يتب من إثمه، ويرجع عن فساده وإفساده مهيأ لمصير تعس وبيل.

والرسول إذ يلقى به خارج الجماعة؛ فلأنه يعلم خطره عليها، وخطره على سلام العلاقات التى تربط بين الناس وسلامتها.

يقول عليه السلام:

"خِيار عباد الله، الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله".

"وشِرار عباد الله، المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة"!!

وكلما تحدث الرسول عن خيار الناس وشرارهم، رأيناه فى الكثير الطيب من حديثه يضع فى لوحة الاختيار أولئك البناة الذين يسهمون بأخلاقهم وبسلوكهم فى بناء العلاقات الإنسانية وشد أزرها.. ثم يضع فى قائمة الأشرار أولئك الهدامين الوالغين الذين يسهمون بسوء مسلكهم ورداءة طباعهم فى تشويه تلك العلاقات وتخريبها.

وفى هذا الحديث الذى سنراه الآن ونطالعه، نرى الرسول عليه الصلاة والسلام وكأنه يتميز غيظًا عليهم وهو يأخذهم من شتات ويركمهما جميعًا، بعضهم فوق بعض، كأنهم كومة حُثَالةِ مَهينة..

فذات يوم والرسول بين أصحابه قال لهم:

"ألا أنبئكم بشراركم؟

"قالوا: بلى يا رسول الله

"قال إن شَرَّكم الذى ينزل وحده - أى الأنانى الذى لا يعرف إلا نفسه - ويجلد عبده، ويمنع رفده - أى عطاءه..

- "أفلا أنبئكم بشر من ذلك..؟

"قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله..

قال: من يُبغض الناس، ويبُغضونه..

- "أفلا أنبئكم بشر من ذلك..؟

"قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله..

"قال: الذين لا يُقيلون عثرة.. ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنبًا..

- "أفلا أنبئكم بشر من ذلك..؟

"قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله..

"قال: من لا يُرجَى خيره.. ولا يُؤمَن شره"

أرأيتم كيف بكفأهُم الرسول ويقذف بهم فريقًا فوق فريق كأنهم جِيَفٌ مُنتنة..؟

ثم من هم هؤلاء.. أليسوا جميعًا من مخربى علاقات الإنسان..؟

فالذى يمنع رفده، والذى يبغض الناس ويبغضه الناس، والذى لا يقبل العذر ولا يغتفر الخطأ، ولا يُقيل العثرة ولا يصفح عن الزلة، ثم هذا الذى لا ينال الناس منه خيراً، ولا ينجون منه من شر.. أليسوا جميعًا من أعداء المجتمع وأعداء سلامه وطمأنينته..؟!

* * *

فإذا طهرت حياة الجماعة من هذه الآفات المحبطة، ومن قاطعى الطريق على أمنها وسكينتها وسعادتها ووحدتها - تمضى بنا أحاديث الرسول الكريم لتقف بنا أمام مسئولياتنا عن علاقتنا الإنسانية فى كل مواطنها ومظانها - خطوة خطوة.. ومَوْطنًا موطنًا.

فعلاقاتنا معًا - فى الطريق.. وفى العمل.. مع الضعفاء.. ومع الأقوياء.. مع الناس العاديين. ومع الصفوة والحاكمين.. سلوكًا وفكرًا، وشعوراً.. كل أولئك، وكل ذلك، لا تغادر أحاديث الرسول منه صغيرة ولا كبيرة من المسئولية والحق إلا أضاءت عندها الأنوار، ففتحت عليها العين، وحدَّدت تجاهها نوع الأداء والولاء والعطاء..

إن الخدم، وأبناء السبيل.. بل والسائلين الشحاذين، وكل الذين لا تقع عليهم العين لتفاهة شأنهم بين الناس، يأخذون مكانهم الحق فى توجيهات الرسول وأحاديثه عن

العلاقات الإنسانية.. ولهم فيها عنده من الحقوق ما للأباطرة والملوك، بل أكثر مما للأباطرة والملوك، لأن الرسول يُعطى على قدر الحاجة، وهو ـ عليه السلام ـ يعلم أن حاجة المستضعفين والفقراء والناس العاديين إلى الاحترام والتخفيف عنهم بالمعاملة الحسنة والكلمة الطيبة، أكثر من حاجة الآخرين.

ثم إنه لا ينسى كم بين صفوف هؤلاء الذين لا تقع عليهم العين من:

"أشعثَ، أغبَر، ذى طمْرين، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه"..!!

* * *

أترى هذا اليتيم الذى يتعثر فى خَطْوه، ويتلفت فى نظرات كليلة تائهة، كأنه يبحث عن أبيه وسط الزحام..؟

إن رسول الله وأشرف خلق الله ليقف له تحية!!

وإنه لينادى إلى حبه وإلى رعايته وإلى تكريمه.. أولئك الذين يمرون عليه ولا ينظرونه لأنهم فى سباق مع حياتهم الدنيا..!

ها هو ذا عليه السلام في نور نبوته وجلال رحمته، يَضُمّ أصبعيه السبابة والوسطى ويقول:

- "أنا وكافلُ اليتيم فى الجنة كهاتين"
- "من عالَ ثلاثة من الأيتام، كان كمن قام ليله وصام نهاره، وغدا وراح شاهرًا سيفه فى سبيل الله"
- "امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين".

انظروا:

"امسح رأس اليتيم.. إنه إنسان مقرور يَهْرُؤه فقدُ الحنان.. امسح رأسه.. اقترب منه.. ابتسم له.. طيِّب خاطره.. أدخل البهجة على روحه الظامئة بكلمة.. بلمسة.. ببسمة..

إن العلاقات الإنسانية تحقق كل مجد لها حين تُضفى على هذا اليتيم المحروم من حنانها ودفئها.

* * *

وهل تبصر هذا الشيخ العجوز المتهدم..؟

إن رسول الله، وأشرف خلق الله، ليقف له تحية!!..

وإنه ليوصى بإكرامه، ويجعل ذلك علامة للإيمان وسبيلاً من سُبل الانتماء إلى الجماعة المؤمنة، بينما يفضى فقدانها إلى النقيض..!!

ها هو ذا عليه السلام يقول:

"ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير".

* * *

"ليس منا من لم يرحم صغيرنا.. ويعرف حق كبيرنا"

"إن من إجلال الله، إكرام ذى الشيبة المسلم".!

فهنا نوع من العلاقات الإنسانية يتَّسِم بالنبل، وبالوفاء.

النبل.. لأن هؤلاء الطاعنين فى السن قلّما يُرجى منهم ما يطمح إليه الناس عادة من منافع ومآرب؛ فتكريمهم أقرب إلى الإخلاص وأدنى إلى الصدق.. ثم إنهم فى سنهم المتقدمة يحتاجون فى التعامل إلى كثير من الأناة والصبر والملاحظة - الأمر الذى لا يقدر عليه عادة إلا النبلاء..

وأما الوفاء.. فلأن كل تكريم لهؤلاء يعنى الوفاء لما قدموه للحياة وللأحياء - كما أنه يمثل تحية الوداع لهم، وهى تحية ما أجدرهم بها وأحوجهم إليها.

من أجل هذا، كان الرسول باراً بهم وحَفِيًا، بما قال من أحاديث، وبما سلك من سُلوك.

وما أبهاه عليه السلام وهو يُغرينا بالمزيد من احترامهم وإكرامهم فيقول:

"البركَة مع أكابركُم".

والأرملة، والمسكين، لهما كذلك حق معلوم فى الكلمة الطيبة والسلوك المهذب، والعون الوثيق..

"الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله

"وكالقائم لا يَفْتُر.. وكالصائم لا يُفطر"

عليه صلاة الله وسلامه..

من مثله أعطى العلاقات الإنسانية كل هذا الحدب، وهذا التوقير، وهذا الولاء..؟!

إن المثوبة لتعظم كلما عظمت الحاجة إلى المشاركة والحنان.

فالأرملة؛ لأنها فقدت عائلها، وفقدت معه أشياء كثيرة، كان الساعى عليها لغير

غرض هابط بطلاً، له من الأجر المأمول عند الله مثل ما للمجاهد في سبيل الله، ومثل ما للعابد يقوم الليل لا ينامه.. ومثل ما للصائم يصوم الدهر لا يفطر فيه.. وكذلك كان الساعى على المسكين، لأن المسكين فقد سنده فى الحياة، ولا يُمسك به أن يَهْوىَ ويميد، سوى حنان القلوب الكبيرة والمروءات العالية..

* * *

وهذا المريض، يُغالب العلّة وتُغالبه.. ويُصارع السقم ويصارعه، وهو أكثر الناس حاجة إلى كل ما تستطيعه العلاقات الإنسانية من سلوى، وعون، وبث للعزيمة والأمل والطمأنينة والسرور.. هناك عند كل مريض، نجد باقة من الزهر النديِّ العَطِر، مُهداة من الرسول الذى أرسله الله رحمة للعالمين.. وهذه بعض زهراتها الطيبات.

** من عاد مريضًا، لم يَزل فى خُرفة الجنة حتى يرجع..

"قيل: يا رسول الله، وما خُرفة الجنة..؟"

"قال: جناها.."!!

** عودوا المرضى، ومُروهم فليدعوا لكم؛ فإن دعوة المريض مستجابة وذنبه مغفور".!!

** من عاد مريضًا، ناداه مُناد من السماء: طِبْتَ وطاب ممشاك، وتبوأتَ من الجنة منزلاً".!!

أما الجانب الآخر من الباقة، فيتمثل فى البُشريَات الباهرة التى بَشَّر بها الرسول كل مريض يصبر لحكم ربه، ويرضى بقضائه.

إن الرسول عليه السلام يخبرنا بما لعيادة المريض من جَلالٍ وخطر حين يقول لنا:

"إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم.

مرضتُ؛ فلم تَعُدنى.."

"قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين..

"فيقول الله له: أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تَعُدْه..؟ أما إنك لو عُدْتَهُ، لوجدتنى عنده".

أية صورة من صور الحث والتكريم تفوق الصورة أو حتى تضاهيها..؟!

وأنَّى للعلاقات الإنسانية أن تجد لها ضميرًا كهذا الذى تجده فى كلمات

الرسول..؟

وحين يقترب الناس بعضهم من بعض فى المسكن أو فى العمل تصبح الحقوق والواجبات المتبادلة بينهم أكثر رُحمًا. وتصير دواعى الاهتمام بالعلاقات الإنسانية أشد وأكبر.

وعندئذ نجد أحاديث النبى وتوجيهاته يرتفع صوتها الكريم، ويزكو حماسها النبيل، وتتوالى وصاياها وعطاياها.

فالعلاقة بين الجار وجاره تبلغ فى الإسلام وعند رسوله عليه الصلاة والسلام مبلغًا يصبح كل تفريط معه وكأنه تخريب للإيمان ذاته.

"مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يُؤذ جارَه"

وكأنما وجد الرسول فى هذه الصيغة شيئًا من الهوادة، فراح ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ يثبتها بأخرى شديدة النذير، عارمة الرهبة:

"والله لا يؤمن.. والله لا يؤمن. والله لا يؤمن".

"قيل: من يا رسول الله..؟"

"قال: الذى لا يأمنُ جارُه بَوائِقَه".

"قالوا: وما بوائقه..؟"

"قال: شرّه.."

إلى هنا والإيمان يُنفى عن الذى لا يكُفُّ عن جاره شره.. فهل هذا هو الذى يطلبه الرسول لعلاقات الجيرة وحسب.؟

لا.. فَثمّ خطوة ثانية نحو واجب آخر.

"والذى نفسى بيده، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه"!!

وفى حديث آخر "حتى يحب لأخيه" فالجار أخ.. والأخ جار.. ولكليهما حق فى العلاقات الودودة الرشيدة.

كذلك فى حديث آخر يُسأل عليه السلام:

وما بوائقه..؟

فيجيب:

"غَشْمه، وظلمه".

وهو تحديد فسيح يدخل فيه، لا سيما كلمة "غَشْمه" كل تصرف أحمق فيه أذى للجار أو فيه إقلاق لراحته، أو إحراج له.. على أن أعظم تتويج لحقوق الجار يتمثل فى هذه الكلمات المتلألئة:

"ما زال جبريل عليه السلام يُوصينى بالجار، حتى ظننت أنه سَيُورثه"..

ويأخذ الرسول فى التركيز على بعض هاتيكم الحقوق:

".. إن مرض عُدتَه.. وإن مات شيَّعته.. وإن استقرضك أقرضته.. وإن أعوزَ سترته. وإن استعانك أعنته".

وكل مكرمة يقدمها جار إلى جاره زيادة فى إيمانه.

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره".

وكل بخل عليه بما يسد حاجته نقص بل ضياع للإيمان:

"ما آمن بى من بات شبعان، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم".

وكما أن العلاقة بين مساكنهم وأعمالهم.. أعنى علاقة الجوار ـ تحتاج إلى المزيد من الرعاية والحفاوة؛ فإنها كذلك بحاجة إلى الكثير من الصبر؛ لأن العلاقات الذاتية والقريبة والكثيرة لا تخلو من المضايقات والتوتر.. ومن ثم كانت أحق بالأناة وأجدر بالصبر معها وعليها.

فجار السوء، لا ينصح الرسول بمعاملته بالمثل؛ لأن فى ذلك تَوْسِعَةً لدائرة السوء، وإهدار لحقوق الجوار.

إنما يتمثل سداد العلاقات ورشدها ـ آنئذ ـ فى الصبر على ذلك الجار.

"إن الله عز وجل يحب ثلاثة..

"ثم ذكر منهم..

"رجل له جار سوء يؤذيه، فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت".

ويرفع الرسول عليه السلام من شأن الجار الصالح فيجعله يُمنًا وسعادة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من سعادة المرء ـ الجار الصالح، والمركب الهنئ، والمسكن الواسع".

وكأنه يوصى الناس إذا صادفهم هذا الجار الصالح أن يَعضُّوا عليه بالنواجذ، فإنه

رحمة لهم وأمان.

"إن الله عز وجل ليدفع بالجار الصالح عن مائة بيت من جيرانه البلاء".

ثم قرأ عليه السلام الآية الكريمة "ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لفَسدت الأرض".

* * *

وللضيف فى العلاقات الإنسانية حظ كبير. ذلك أن الضيافة فضلاً عما لها من حقوق خاصة.. فإن لها حقوقًا أخرى باعتبارها الوسيلة والسبب لإحياء فضيلة من أبهر فضائل الجماعة الإنسانية ـ تلك هى فضيلة التزاور وإحياء المودّات بين الناس.

فالتزاور بقصد إرضاء الله بوصل الإخاء والمودة واستدامة الصحبة والألفة. عمل جليل يوصى به الرسول ويبشر بخير ثواب.

يقول عليه السلام:

"يقول الله تبارك وتعالى فى حديثٍ قُدْسِيٍ: وجبَتْ محبتى للمتزاورين فِيَّ".

فالمتزاورون فى الله، مُبشرون بحبه ورضوانه..

"من زار أخاه المؤمن، خاض فى الرحمة حتى يرجع".

وحرص الرسول على التزاور موصول العُرى بحرصه على دحر القطيعة والهجران باعتبارهما من أخطر آفات العلاقات الإنسانية وأشدها إيذاء.

"لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ـ يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا.. وخيرهما الذى يبدأ بالسلام".

إن المسلم فى تقدير الرسول أكثر الناس حرصًا على العلاقات الإنسانية ووفاء لحقها.. هكذا ينبغى أن يكون.

وهو لهذا فى مقام القدوة للآخرين فى هذا المجال.. ومن ثم كان استسلامه لدواعى الهجر والخصام أمرًا محرمًا عليه.

ولكن الرسول عليه السلام لا يُشرّع ضد الطبيعة الإنسانية السليمة بل يشرع لها..

وهو لهذا يدرك أن من الخصومات ما يحتاج بعض الوقت لتجفّ جراحه ـ فمنح بعض الوقت، ولم يجعله طويلاً حتى لا تظمأ العلاقات وتجفّ.. فوقّت المدة بثلاثة أيام لا تزيد.!!

أىّ حدَبٍ على العلاقات الإنسانية، وأى تتبع لتفصيلاتها يفوق هذا، أو يضاهيه..؟!
والرسول عليه الصلاة والسلام لا يُحمّلُ المسلم مسئولية القطيعة حين يكون أحد طرفيها فحسب.. بل يحمله مسئولية السكوت عن كل قطيعة بين الآخرين..
أجل.. إن للمسلم عند الرسول الكريم مكانة يضمنها عليه السلام من المسئوليات النبيلة ما هى كُفؤ له، وجديرة به.
والمؤمن الذى علّمه رسوله أن يقول عقب كل صلاة:
"اللهم أنت السلام ..
"ومنك السلام..
"فحيِّنا ربَّنا بالسلام".
لا يستطيع ولا يملك إلا أن يكون غصن الزيتون عند كل خصومة وكلمة الرحمة فى كل شحناء.. وداعى الألفة واللقاء والإخاء عند كل قطيعة..
وما أروع الرسول الكريم وهو يوضح هذه التبعة فيقول:
"ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة..؟
"إصلاح ذات البين".
بل إنه ـ عليه السلام ـ وهو أكثر ما يكون مقتًا للكذب يبيح القليل الأبيض منه فى سبيل رَتْق المودّة وجمع الأفئدة.
يقول عليه السلام:
"ليس بالكاذب من أصلح بين اثنين؛ فقال خيرًا أو نَمى خيرًا.
وإنه ليقول يومًا لصاحبه "أبى أيوب الأنصارى" رضى عنه وعن الصحابة أجمعين:
"يا أبا أيوب.. ألا أدلُّك على عمل يرضاه الله ورسوله..؟
"صل بين الناس إذا تباغضوا.. وقرِّب بينهم إذا تباعدوا".
إنه عليه صلاة الله وسلامه يعلم ما تزدحم به حياة الناس من مشكلات لا تفتأ تصيب علاقاتهم وإخاءهم بضربات الخصومة ومَحْق القطيعة.
ويعلم أن خير وسيلة لتداركُ هذا الخطر، تصفية المواقف اللافحة أولاً فأولاً.
وذلك لا يتأتى إلا إذا حمل الناس مسئولياتهم تجاه بعضهم البعض، لا سيما مسئوليتهم عن درء غوائل الخصومة وإفشاء مواهب المحبة والتآخى، فاتحين أعينهم

على كلمات الرسول فى هذا السبيل، ومُلْقين السمع لقول الله سبحانه:

﴿ لا خَيرَ فِى كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُم إلاَّ مَن أَمَرَ بِصَدَقَة أَو مَعْرُوف أَو إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاس. وَمَن يَفعَل ذَلِكَ ابتِغَاءَ مَرضَاةِ الله، فَسوف نُؤتِيه أَجرًا عَظِيمًا.. ﴾

وصدق ربنا العظيم..

* * *

ولنعد الآن إلى حقوق الضيافة فى وضعها الخاص بها، بعد أن رأينا حقها كوسيلة طيبة للتزاور ودرء القطيعة والهجر..

والضيافة أوسع من الزيارة، إذ هى فى الغالب زيارة مُسافرة مُرتحلة.. فيها سفر ونصب، وانتقال من بلد إلى بلد..

ويبدأ الرسول فيجعل إكرام الضيف من آيات الإيمان:

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه"

وتُبصر انعكاس وصيته بالضيف، وتزكيته هذا اللون من العلاقات ـ على أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ـ فى هذه الواقعة التى كان بطلها أحد الأنصار..

فذات مساء نزل على مسجد الرسول بالمدينة ضيف، وقال عليه السلام: "من يضيف هذا الليلة"؟ فقال رجل من الأنصار أنا أضيفه يا رسول الله..

وانطلق به إلى داره، فقال لزوجته: هل عندك شيء..؟ قالت: لا.. إلا قوت صبيانى.

قال: "فعلِّليهم بشيء ـ أى اسرحى بهم فى الحديث حتى يناموا ـ فإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم.. فإذا دخل الضيف فأطفئى السراج، وأريه أنَّا نأكل معه"..

ففعلت ما أمرها به.. وجلسا مع الضيف، يوهمان فى الظلام أنهما يأكلان معه.. وأكل الضيف، وباتا طاويين جائعين.

وفى الصباح يغدو الأنصارى على رسول الله. فلا يكاد يراه حتى يتهلل له فيقول:

"قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما".!!

أجل.. لقد رأى الله وسمع ما كان بين الرجل وزوجته وإيثاره الضيف، ليس على نفسيهما فحسب، بل وعلى فلذات أكبادهما.. فأنبأ رسوله ﷺ ليفرح بأصحابه. ونزلت الآيات تمجد هذا الصنيع الرفيع، وتقول:

﴿ ويُؤثِرونَ عَلى أنفُسِهم، ولَو كَانَ بِهم خَصَاصَة.. ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِه، فَأُولئِكَ هُم المُفلِحُون ﴾

الحق أننا لا نعرف دينًا.. ولا فلسفة، ولا حضارة، تمنح العلاقات الإنسانية فى شَتّى نماذجها ومواقعها من الرعاية والتكريم ما يمنحها إياه الإسلام ورسوله الأكرم ﷺ.

إن الرسول لم يَدْعَمْ هذه العلاقات بمجرد الدعوة إلى رعايتها.. بل كان يرسم لها قانونًا ملزمًا، وتقاليد مرعية.

ففى هذه النقطة مثلاً - لا يوصى بالضيافة وصَاةَ مُحبِّذ ثم ينتهى الأمر.. بل يضع لها قانونها، فيجعل للضيف حقًّا واجبًا مفروضًا فى الضيافة ثلاثة أيام.

"للضيف على من نزل به من الحق ثلاث".

ويسأله أحدُ الصحابة: ما كرامةُ الضيف يا رسول الله؟ فيجب عليه السلام:

"ثلاثة أيام، فما زاد بعد ذلك فهو صدقة".

إننا هنا أمام رسول يُشَرِّعُ للعلاقات الإنسانية ولا يتركها لمجرد التحبيذ والتعاطف.

فهو يعطى الضيف حقه ثلاثة أيام، فإن زاد المضيف عليها فله أجر الزيادة وفضلها.. ثم إنه عليه السلام يوصى الضيف ألا يزيد عن الثلاث حتى لا يُحرج أهل البيت ويُسبب لهم الضيق والضجر.. لنقرأ هذا الحديث الكريم:

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه..

"جائزته يوم وليلة..

"والضيافة ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة.

"ولا يحل له - أى الضيف - أن يثوى عنده - أى المضيف - حتى يُحرجَه!!.

فإذا كان الضيف عابرًا ومتعجلاً، فجائزته يوم وليلة.. وإن كان مقيمًا، فحقه فى الضيافة ثلاثة أيام، ومن الخير له ألا يطيل بعدها مكثه، حتى لا يحرج مضيفه ويُؤثمَه..!!

وطبيعى أن هذا التوجيه لا يحجر على الضيافات الخاصة كضيافة الأقربين رَحِمًا أو صداقة والتى يسعد أهل المنزل باستطالة مداها..

والرائع الباهر فى تعاليم الرسول هذه، ليس تنظيم الضيافة وتقنينها فحسب، بل والروح الذى يعالج به أمرها..

فهو عليه السلام إذ يدرك أنه يُشرع للعلاقات الإنسانية، يحرص على أن تظل خفيفة الظل والوقع على الأنفس.

إنه - عليه السلام - لا يريد علاقات شكلية.. بل يريدها وثيقة العُرَى بالروح ويكل ما في الروح من حب وحيوية وغبطة. من أجل هذا يقول:

"ولا يحلُّ له أن يثوى عنده حتى يُحرجه".

ويزيد ذلك تفسيراً فيقول عليه صلاة الله وسلامه:

"وعلى الضيف أن يرتحل - أى بعد الأيام الثلاثة - حتى لا يُؤَثِّم أهل المنزل".

إنه لا يريد أن يقوم أهل المنزل بالضيافة وهم لها كارهون، فتصبح الضيافة وتصبح العلاقات الإنسانية عبئًا ثقيلاً، وواجبًا كريهًا، لا - إنه يريد أن تبقى هذه العلاقات وتبعاتها سابحة فى تيار الرغبة الصافية والإثيار التلقائى، والحب الوثيق..

وهو لهذا، وتتمة لما سبق يُوصى المضيف ألا يشقَّ على نفسه فى التكلُّف لضيفه حتى لا يملُّه ويمل ضيافته.. كذلك يوصى الضيف أن يهشَّ لكل ما يقدم إليه مهما يكن متواضعًا ويسيراً، وأن يتقبله بقبول حسنَ، وروح شاكرة..!!!

يقول عليه الصلاة والسلام:

"نُهيتُ وأمتى عن التكلُّف".

ولنُصغ إلى "عبد الله بن عميرة" يقص علينا هذا النبأ:

"دخل على "جابر" صاحب رسول الله ﷺ نفرٌ، فقدم إليهم خبزًا وخَلاً - وقال: كُلوا فإنى سمعت رسو الله ﷺيقول: نعم الادمُ الخلّ.."

"ثم قال: إنه هَلاك بالرجل أن يَدْخل إليه النفر من إخوانه، فيحتقر ما فى بيته أن يقدمه إليهم..

"وهلاك بالقوم أن يحتقروا ما قدم إليهم".!!

فالصحابى الجليل "جابر" يقدم الخبز والخل لضيفانه غير متحرج ولا آسف، لأنه لم يكن يقدر على غيرهما يومئذ.. ولكنه فى مرة ثانية أو مرات أُخر سيقدم طعامًا أشهى وأطيب، لأنه سيكون ساعتها فى مقدوره..

وهو يخبرنا أن الناس يظلمون أنفسهم ويظلمون العلاقات الإنسانية معهم حين

يضايقهم ويزعجهم ألا يجدوا للضيف إلا القليل.. كما يظلمون أنفسهم حين يستقلُّ الضيف ما يقدَّم إليه ولو كان خبزًا وخَلاً..

* * *

ولا تكون العلاقات الإنسانية إنسانية إلا بقدر ما يُبذل فيها من جهد إيجابى يتناول خدمة الناس وتخفيف لأوَاءِ الحياة وشدتها عنهم.

وإذا كان هذا الجهد يتمثل فى بذل جاه، أو مال، أو عمل؛ فإنه لا ينبغى أن يبخل به أبدًا.

إن الذى يُقرض أخاه ليفرج كربه، إنما يقرض الله الذى يضاعف الحسنة إلى عشرة أمثالها.. إلى سبعمائة ضعف.. والذى يُساند بعونه من يحتاج إلى هذا العون إنما يساعد نفسه فى ذات الوقت.

وهذا هو الحق الذى يؤكده الرسول حين يقول:

".. والله فى عون العبد، ما كان العبد فى عون أخيه".

والذين يفزع الناس إليهم فى حوائجهم، عليهم أن يشكروا الله سبحانه على هذه النعمة، إذ جعلهم مَفْزعًا ولم يجعلهم الفازعين.. وجعلهم مَقصِداً ولم يجعلهم قاصدين..

يقول عليه السلام:

"أحب الأعمال إلى الله عز وجل.. سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كُربة.. أو تطردُ عنه جزعًا.. أو تقضى عنه دينًا".

ويقول عليه السلام:

"من كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته..

"ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كُرَب يوم القيامة".

* * *

ولما كان المال قوام الحياة، كان البذل منه فى سبيل غوث الآخرين وخدمتهم من أجل القربات إلى الله سبحانه.. ثم من أوثق أسباب التواصلُ بين الجماعة..

وحين يفشو فى مجتمع الحرصُ الكَنودُ على المال، والشح به ومنه؛ فإن العلاقات الإنسانية فى هذا المجتمع تتفسّخ وتنهار انهياراً يُقوّض أو يكاد يقوض المجتمع كله.

من أجل هذا قال الرسول يحذرنا:

"اتقوا الشُّحَّ؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم.. حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهُم".

كيف يحمل الشح الناس على سفك الدماء واستحلال المحارم..؟

وما علاقته بهذا..؟

علاقته واضحة.. فتفشِّي الشح فى جماعة يعنى نُضوب العلاقات الإنسانية فيها بكل ما تمثله من تعاطف وتعاون وإيثار وإغاثة.

وإذا ضاع من مجتمع كل هذا فى زحمة شُحِّهُ وهلعه وأنانيته، انفتح الطريق لموبقات سفك الدماء، وانتهاك الحرمات..

يقول الرسول أيضًا:

".. وإياكم والشح؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالشح..

"أمرهم بالقطيعة؛ فقطعوا.. وأمرهم بالبخل؛ فبخلوا.. وأمرهم بالفُجور، ففجروا".

إن الشح مرتبط دائمًا بعقوبة الهلاك..

وكلما تحدث الرسول عنه قرنه بالهلاك، كما رأينا فى الحديثين السالفين، وكما نرى فى أحاديث أخرى كثيرة:

يقول عليه السلام:

"ثلاثٌ مُهلكات..

"شح مُطاع.. وهوى مُتَّبع.. وإعجاب المرء بنفسه".

بينما هو يرفع قدر السخاء ويجعله زينة الدين، ومناط السيادة فى الدنيا.

يقول صلى الله عليه وسلم:

"إن الله استخلص هذا الدين لنفسه، فلا يصلُحُ لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق..

ألا فزيِّنوا دينكم بهما".

ثم يُسأل من السيد فى أمتك..؟ فيجيب عليه السلام:

"رجل أعطى مالاً، ورُزق سماحة"..!!

* * *

وكل الأسباب والأعمال والقُربات التى تزكّى العلاقات الإنسانية وتباركها وتنميها ـ إنما يُتَوجها أولاً وأخيرًا كلمتان ثقيلتان فى الميزان خفيفتان على اللسان ـ هما: حُسْن الخلق!!.

أجل.. خفيفتان على اللسان، بيد أنهما فى ميزان الصلاح والخير ترجحان شَوامخَ من الأعمال..

يقول عليه السلام:

"ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن"

ويقول:

"إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم"

أى الذى يصوم نهاره ويقوم ليله..!!

إن "حسن الخلُق" هو الطاقة التى تستمد منها علاقاتنا الإنسانية خير زادها وأبقاه وأهناه.. ذلك أن كثرة عدد الأخيار فى المجتمع تعنى على الفور زيادة رصيده من أفضل العلاقات وأزكاها. ولا يزداد عدد الأخيار إلا بقدر ما يزداد حسن الخلق.

فأكثر الناس خيراً، هم أحسنهم أخلاقًا..

وأحسن الناس إسلامًا، هم أحسنهم أخلاقًا..

وأحب الناس إلى الله وإلى رسوله، هم أحسنهم أخلاقًا.. بهذا كله نادى الرسول ﷺ وتحدث.

وحسب "حسن الخلق" جمالاً وجلالاً: أن الله العلى الأعلى حين أراد أن يزكى عبده ورسوله، لم يزكّه بأحسن من الخلق فقال سبحانه:

"وإنك لعلى خلق عظيم".

ثم حسبه بعد هذا أن يقول الرسول ﷺ فيه:

"ذهب حَسَنُ الخلُق بخير الدنيا والآخرة".

ومن أجل أن يسود فى المجتمع حسن الخلق الذى يُفىء على علاقاته العافية والمودة، راح الرسول يرفض ويستبعد الشحناء.. والغضب، والحسد، والكبر ـ بوصفها جميعًا من إفراز الحماقة الرعناء التى تُدَهور العلاقات إلى الهوة الفاغرة، بلا مبرر حقيقى.. إنما هو الطيش والنزق والغرور.

لطالما كان الرسول ﷺ يُركّز وصيته فى كلمة واحدة.. هى:

"لا تغضب".

وإنه ليكشف عن البطولة الحقة فيقول:

"الصُّرَعَةُ - أى القوة - كل الصُّرعة الرجل الذى يغضب، فيشتد غضبه، ويحمرّ وجهه، ويقشعر جلده.. فَيصرع غضبه"!!!

صورة باهرة يسرد فيها الرسول كل مظاهر الغضب وتوتُّراته، وتَشنُّجاته.. ثم فجأة يتقدم ضبط النفس فيمحو فى لحظة ما رسمه الغضب من ألوان قاتمة، وينتصر حسن الخلق..!!

والرسول عليه السلام يعلم أن نزعة الغضب ضاغطة، وأنها بحاجة إلى تدريب مستمر للخلاص منها.. لهذا يأمر من فَجَأهُ الغضب أن يغير من حالته، فإن كان قائمًا قعد أو مشى.. وخير من هذا أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويغادر المكان كله.. أو يتوضأ ويصلى ركعتين إن كان ذلك ميسراً له.

وحتى إذا تملَّك الإنسان الغيظُ فعليه أن يكظمه.

يقول عليه السلام:

"ما من جُرعةٍ أعظم عند الله، من جُرعة غيظٍ كظمها عبد ابتغاء وجه الله".

فإن غضب الإنسان وأفلت الزمام من يده، فعليه أن يتخلص سريعًا من وطأته، فبذلك يظل فى دائرة السلامة والأمن.

يقول عليه السلام، وهو يتحدث عن أصناف الذين يغضبون:

".. ألا وخيرُهم بطىء الغضب، سريع الفىء أى الرجوع عن غضبه..

وشرهم سريع الغضب، بطىء الفىء".

* * *

ويستنقذ الرسول الكريم علاقات الناس من الغضب، لتنجو بعد هذا من عواقبه ومضاعفاته - الشحناء والقطيعة..

فالشحناء والسِّباب والمهاترة - كل هذه حالقة تحلق أواصر الود والإخاء والمحبة والألفة بين الناس..

وإن الشحناء لتبدأ بين اثنين. ثم لا تلبث أن تجر إلى وبائها عائلات وشِيعًا..

من أجل هذا، حذرنا الرسول منها ولم يُخف عنا ما تفضى إليه من طرد وعقاب.

إنه عليه الصلاة والسلام ليتحدث عن نفحات القبول التى يُنعم الله بها على عباده فى بعض المناسبات الفاضلة التى تمتد بركاتها إلى كثير من الناس:

"... فيغفر الله عز وجل فى ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئًا، إلا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول سبحانه، اتركوا هذين حتى يصطلحا".!!

وإنه عليه السلام ليقول فى جوامع كلمه:

"لا تقاطعوا.. ولا تدابروا".

"ولا تباغضوا.. ولا تحاسدوا".

"وكونوا عباد الله إخوانًا".!!

فالشحناء، والحسد، والقطيعة، وباءُ يحذر الرسول ﷺ منه على أنفسنا، وعلى أخلاقنا، وعلى علاقاتنا الإنسانية التى هى من أجمل مباهج الحياة.

واستخدامُه فى التعبير الألفاظ الدالة على تبادل الإساءة مثل التقاطع والتباغض والتحاسد إشارة إلى أن هذه الخطايا تبلغ ذروتها القاتلة عندما يستجيب الطرف الآخر لإغوائها، فيُجابهُ مُبغضه ببغض مثله.. وحاسده بحسد مثله.. وخصمه بخصومة مثلها.. بدلاً من أن يلقى ذلك بالتسامح والعفو.!!!

إن الرسول لا يريد أن يتحول جميع الناس إلى حمقى!! فإذا ارتكب أحد اثنين حماقة الشحناء والسفه، فليكن الثانى أكثر بالعلاقات بالإخاء براً.. ولن يضيع عند الله ولا عند الناس أجره..

وهكذا يقول عليه السلام:

"ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا"..

أجل.. فبينما نظن نحن أن كرامتنا رهن الانتقام الأشد ممن يسيء إلينا ـ إذا الرسول عليه السلام يكشف جهلنا، ويخبرنا أن الكرامة والعز فى العفو وفى الصفح الجميل..!!!

* * *

وإن الرغبة الشريرة فى القصاص والانتقام بحجة الحفاظ على الكرامة، منشؤها البعيد آفة الكبر.

والكبر لهذا ولغير هذا، من ألدّ أعداء الحياة الهادئة المتسامية وأكثر من غيره

افتراسًا للعلاقات الإنسانية.

من أجل هذا صَبَّ الرسول ﷺ عليه قوارع زجره وامتهانه.

* "من تكبَّر قصمه الله، وقال: اخسأ؛ فهو فى أهين الناس صغير"!!

* "ألا أخبركم بشر عباد الله..؟ الفَظُّ المستكبر".!

إن المستكبر لايكون إلا فظًّا.. فالكبر والفظاظة وجهان لأردأ عملة بشرية.. وحسب العلاقات الإنسانية أن تسمع كلمة "فظ" لتولى الأدبار ناجيةً بنفسها، والمستكبر طُفَيْلِىّ فى المجتمع الإنسانى، ولا مكان له فيه. من أجل هذا استُبعد من صفوف هذا المجتمع فى الجنة..

يقول عليه السلام:

"لا يدخل الجنة إنسان فى قلبه مثقال حبة من خَرْدَلٍ من كبر"!

ولقد بلغ من وقع الأحاديث المتوعدة على أنفس الصحابة أن حاول بعضهم ترك التجمّل المشروع فى ملبسه خشية أن يَزُجَّ به ذلك فى المستكبرين، لولا أن طمأنهم الرسول وأعطاهم تفسيرًا علميًّا لآفة الكبر فقال:

"الكبر بَطَر الحق، وغَمط الناس".

فالاستعلاء على الحق، والتعالى على الناس والنظر إليهم من علٍ ـ هما شر مظاهر الكبر.

ولماذا يستكبر أولئك الحمقى..؟ وما مزيتهم على الناس إذا هم فقدوا الخلق الكريم، وأول شمائله التواضع..؟

"انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود، إلا أن تَفْضُلَهُ بتقوى".

هكذا يتحدث الرسول ﷺ .. فهل ينظرون..؟؟

إن الخلق الكريم ـ كما قيل ـ شىء هين ـ وجه طليق، وكلام لين.. يقول عليه السلام:

"لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق".

ويسأله أحد أصحابه عما يُدخله الجنة، فيقول له ـ فيما يقول:ـ

"أطب الكلام"..

إنه عليه الصلاة والسلام يدرك ما تفعله الكلمة الطيبة، والبسمة المتهللة، والنظرة

الودود فى شد أزر العلاقات الإنسانية وبعث حيويتها، وإرواء تألقاتها..

من أجل هذا يوصى بها ويُثيبُ عليها، ولا يترك لفتة مهما تكن عابرة إلا أمر باستخدامها فى توثيق عرى المحبة والأخوة بين الناس..!!

ها هو ذا عليه السلام يُسأل:

"أىّ الإسلام خير..؟"

فيجيب.

"تطعم الطعام..

وتقرأ السلام على من عرفتَ، ومن لم تعرف".

إنه يريد إفشاء السلام ـ على من نعرف، ومن لا نعرف ـ إنعاش أواصر الحب بين الناس، وإرواء علاقاتهم دومًا بذوب الحنان..

من أجل هذا يقول:

"ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم..؟

أفشوا السلام بينكم"..

* * *

وبعد..

فلا يزال هناك كثير طيب مما أفاءه الرسول من أحاديثه وتوجيهاته ورعايته على العلاقات الإنسانية.. ولئن بدا أن هذا الكتاب قد شُرفتُ صفحاته بالكثير من هذه الأحاديث الكريمة؛ فلنعلم أن هذا الكثير ما هو إلا قليل مما غمرت به الأحاديث النبوية الكريمة موضوعنا هذا.

والذى يُطالع فى تراث الكلم الطيب للرسول العظيم ما اختص به "العلاقات الإنسانية" من حفاوة وحنان وتوقير، سيرى إلى أى غاية مذهلة كان احتفاء الإسلام ورسوله الكريم بقضايا الحياة وقضايا الإنسان..

والجليل الباهر فى الموضوع، أنه وهو يصوغ لنا بأحاديثه وبقدوته وبسلوكه أجمل وشائج التواصل والتكامل فى علاقتنا الإنسانية لم يكن ينشد الكمال فيها لأتباع دينه فحسب.. بل للناس جميعًا.!!

ولقد رأينا كيف كان فى أكثر هذه الأحاديث يستعمل كلمة "الناس و"عباد الله".

وحين كان عليه السلام يستعمل كلمة "مسلم" أو "مؤمن" فلكى يضع المؤمن أو

المسلم تجاه مسئوليته كقدوة لغيره وكمثل وهاد ودليل يسير على دربه الذين لا يعرفون..!!!

لقد سئل يومًا عن أفضل الأعمال، فقال:

"بَذلُ السلام للعالَم"

وما أعرف، ولا يعرف أحد أروع ولا أجمع من هذه الكلمات الثلاث، يقولها رسول يحدث الناس عن الدين، لا عن السياسة..

ومتى..؟ منذ ألف وأربعمائة عام.!!

بذل السلام.

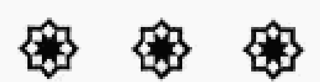
ولمن..؟؟

للعالم.. ليس للعرب قومه، ولا للمسلمين أمته.. بل للعالم.. للعالم كله.. وليس عالم جيله وعصره.. بل عالم الأجيال والعصور، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد كان يعرف النور الذى خُلق منه، والدور الجليل الذى اصطفى له.

وعاش يحيا فى نور قول الله له:

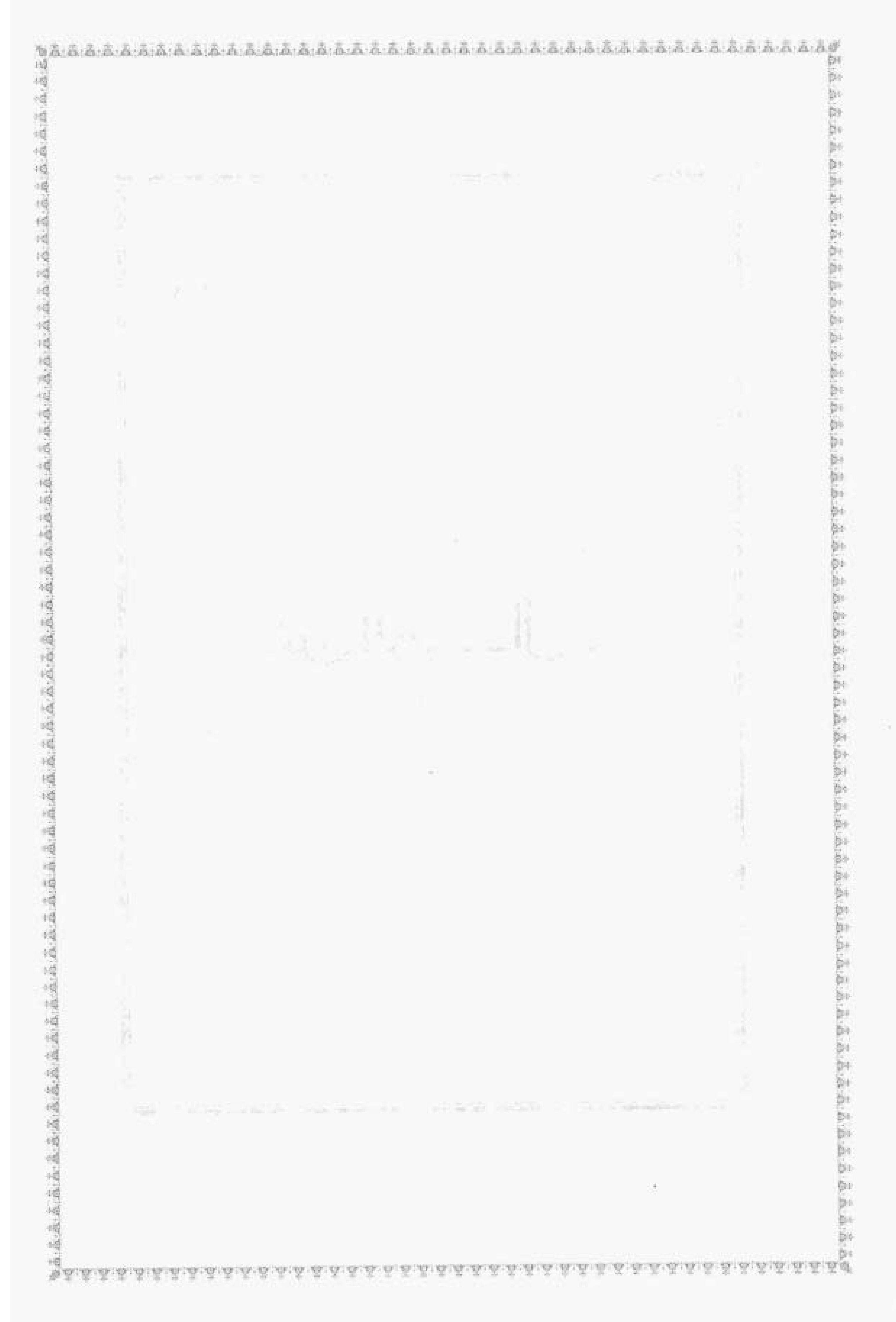
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً للعَالَمِين ﴾





الفصل السابع

عن المال..



جعل الله المال للناس قيامًا.. ومنذ بدأ الناس يتداولونه ويتعاملون به، وهو آخذ بنواصى حياتهم، يكاد يُصرِّفها كيف يشاء ذات اليمين وذات الشمال.. صوب الفضيلة وفى اتجاه الرذيلة.

ومنذ بدأ الفكر الإنسانى يشرع فى تفسير الحياة واكتشاف قوانينها وضع كلتا عينيه على المال كقوة سائدة فى حياة البشر ومُهيمنة عليها..

والفلاسفة الذين وقفوا طويلاً مع مشاكل المال كثيرون. تتفاوت نظراتهم، وتتعارض مذاهبهم ـ بَيدَ أنهم جميعًا يلتقون فى وفاق كامل عند اهميته البالغة ومركزه العريق بين كل قُوى الحركة والبناء فى حياة الإنسان..

* * *

وما كان المال بكل مزاياه ومشاكله ليخفى دوره على معلم البشرية وأستاذها سيدنا "محمد" رسول الله إلى الناس كافّة.

وإنا لنبهر حين نُواكبُ أحاديثه عليه صلاة الله وسلامه وهى تستعرض المال فى شتّى قضاياه ومجالاته وازماته: فمن أين يأتى..؟ وكيف..؟ وأين يُنفق..؟ وكيف..؟

وما نوع العلاقات التى يُنشئها ويفرضها على حياة الناس، ويُشكّل بها ظروف المجتمع..؟

وأى هذه العلاقات يكون موضع القبول والتعضيد..؟

وأيها يستحق الدَّحض والرَّفض..؟ وما نوع الأزمات التى تُزجيها تناقُضاته الكثيرة..؟ وما انعكاسها على حياة المجتمع وسلوك الناس..؟ وأين نجد الحلول السعيدة التى تُصفّى تلك الأزمات وتجعل المال دومًا فى مكانه المشروع ـ خادمًا مطيعًا.. وليس سيدًا مستبدًا..؟؟

كل ذلك تُحصيه أحاديث الرسول عددًا، وتغمره ضياء، وتُجلّيه فى حكمة ويُسر ما

لهما من نظير..

ولنبدأ بهذا الحديث.

يقول عليه السلام:

"إن هذا المال خَضِرٌ حلو..

"ونعم صاحب المسلم هو، لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل..

"وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة"..!!

فالمال "خَضِر حلو"؛ لأنه قوام الحياة وسبيل إيناعها بكل مباهج الخير والنعمة والتقدم، وهو للمسلم نعم الصاحب والأخ والصديق؛ ما دام يُعطى المكرمات حقها ويرعى به وفيه حقوق الآخرين الذين يتلمسون عون القادرين ثم هو لا يؤخذ انتهابًا، ولا استلابًا، ولا اغتصابًا..

أجل.. لا بد أن يُؤخذ بحقه ويُنال بوسائل مشروعة تضبطها قواعد الشرف والأمانة والتعفّف...

وأخيرًا فهو ليس وسيلة متاع فحسب، بل هو بوسائل تحصيله وبطريقة إنفاقه، شاهد على نوع الحياة التى يحياها صاحبه، وله كلمة فاصلة فى تقرير مصير هذه الحياة..!!

فالمال الذى يدخل جيوبنا ثروة، ويخرج منها نفقة، ليس مجرد صفقة نستخدمها فى تحقيق مطالبنا وإسعاد حياتنا..

بل إنه سيكون علينا شهيدًا..

وهو يقرر بطريقة حاسمة مصايرنا فى هذه الحياة، وعند الله..!!

ولسوف تزيدنا أحاديث الرسول الكريم علمًا بهذا الدور الخطير للمال فى حياتنا وفى حياة أولادنا وذرارينا..

إنه عليه السلام يؤكد قيمة المال حتى لا نُخدع عن أهميته..

ثم يؤكد قيمة المشروعية فى تحصيله واكتسابه، حتى لا ننخدع له..

ها هو ذا عليه السلام يعيد علينا القول فى حديث آخر..

"إن هذا المال خَضِرٌ حلو

"فمن أخذه بسخاوة نفس، بُورك له فيه

"ومن أخذه بإشراف نفس ـ أى بطمع وشره ـ لم يبارك له فيه، وكان كالذى

يأكل ولا يشبع"..!!

إن سخاوة النفس تعنى هنا، القناعة والتعفّف والشرف. شرف الوسيلة وشرف القصد.. وإن إشراف النفس يعنى التهالك الشّره، والتهافُت المرذول.

وهكذا، وحين يخبرنا الرسول أن المال حلو خضر.. يخبرنا فى ذات اللحظة أنه ليس كذلك إلا حين يحتفظ بازدهاره وبنضارته..

وهذا الازدهار، وهذه النضارة مرتبطان أوثق ارتباط بما تتضمنه وسائل اكتسابه من طهر ونزاهة ومشروعية..

* * *

والرسول الكريم حين يمنح المال هذا الوصف الأنيق والدقيق "خَضِرٌ حلو" لا يعنى إطراءه بكلمة شاعرية.. إنما يعنى تبيان أهميته وخطره..

فهو "خَضر" لأنه ماء الحياة وباعث النَّماء فيها ـ سواء فى ذلك حياة الأفراد والجماعات والشعوب..

وهو "حُلو".. تستطيع حلاوته أن تجعل الحياة بهيجة إذا أحسن استثمارها.. وتستطيع أن تفتن الناس وتستدرجهم إلى المهاوى الفاغرة إذا أسىء استخدمها..

من أجل هذا يبدأ عليه صلاة الله وسلامه بخلق "ضمير المال" فى نفس الإنسان.

إنه لا يعالج قضايا المال بأسلوب الأرقام الذى يعالجها به فلاسفة الاقتصاد والاجتماع.. بل يعالجها بروح الرسول وببصيرة المعلّم..

وإنه لا يربط مشاكل الثروة والمال بحركة الأسواق، وحركة التاريخ.. بل يربطها أولاً وقَبْلاً بحركة الضمير ونَبْع الروح.

من أجل هذا، يبدأ بتخفيف وطأته،، ونفى ضراوته.

إنه عليه الصلاة والسلام يعلم إغراءه الشديد القاتل، ويدرك ما تفرضه ضرورات العيش وجلبة المنافسة من تكالُب وتهوُّر واستماتة. ومن ثَمَّ يبدأ بتذكير الناس بربهم ورب المال.. وهو بهذا يدعوهم لاستخدام "الفرامل" خلال زحفهم وعَدْوهم فى عالم التحصيل والارتزاق.

"يا أيها الناس...

"اتقوا الله، وأجملوا فى الطلب، فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها..

"فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب...

"خذوا ما حَلَّ، ودَعُوا ما حَرُم"!!

هكذا يبدأ رسول رب العالمين فى رسم علاقتنا بالمال ـ الإجمال فى طلبه وتحصيله. وهذا الرفق الذى يدعونا إليه الرسول ﷺ، خلال اكتسابنا الثروة والمال، يتحقق ـ بادىء ذى بدء ـ بالتزام الحلال، وتجنُّب الحرام.

"خُذوا ما حَلَّ، ودَعُوا ما حَرُم"

إن المال رزق الله وعطاؤه وفضله.. والذى يبتغى لنفسه ولأهله من عطاء الله، ورزقه، لا ينبغى له أن يتحدّى الله بارتكاب المأثم فى طلب هذا الرزق وذاك العطاء.

وفى هذا يُعلمنا الرسول فيقول:

"... ولا يحمِلنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله؛ فإن الله لا يُنال ما عنده إلا بطاعته".

إنك إذا ذهبت تطلب المال من غير حِلّه، وبغير حقه، سيتركك الله وما تريد. وقد تظفر منه بالكثير الكثير.. ولكن الكارثة تنتظرك لا محالة على الطريق؛ لأن الله رفع يده عنك، وويل لمن يكون هذا مثواه ومصيره.

يقول عليه السلام:

"لا يُعجبنّك رَحبُ الذراعين بالدم، ولا جامع المال من غير حِلّه، فإنه إن تَصدَّق به لم يُقبل منه. وما بقى كان زاده إلى النار..!!

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يُشكّل "ضمير المال" أجمل وأصدق تشكيل وهو يردُّ يقيننا إلى الله إبّان تحصيل المال واكتسابه.

"يا أيها الناس...

"إنى ما آمركم إلا بما أمركم الله، ولا أنهاكُم إلا عمَّا نهاكُم الله عنه، فأجمِلوا فى الطلب. فوالذى نفسُ أبى القاسم بيده إن أحدكم ليطلبُه رزقهُ كما يطلبه أجله"...

إنه يريد لنا أن نكون "سادَةَ" المال، لا "عَبيدَه"... وذلك لا يتم إلا بالكرامة فى طلبه وبالأناة فى السعى إليه.

ولا شيء يغرس هذه الكرامة فى أنفسنا اللأهثة وراء المال والثروة مثل اليقين بأن الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين.. ومثل اليقين بأن الثروة الصالحة النافعة، لا تقاس بالكثرة، فكم من ثروات تتعاظم العدَّ والإحصاء ذهبت مع الريح مُخلِّفة وراءها الخراب والحسرات.

وهنا يُعلمنا خير المعلِّمين فيقول:

"إن الغِنى ليس عن كثرة العرض.. ولكنَّ الغِنَى غِنى النفس".

أجل.. هنا يضع الرسول ﷺ أيدينا على جوهر القضية كلها، ويُبوِّئ علاقتنا بالمال أرفع مكان.. فالغِنَى لا تقرره الأرقام، إنما يقرره الرضا واليقين.

وما أكثر الهلع والشقاء اللذين يُصيبان من يرتبط المال فى رُوعه بالترف، لا بالكفاية.. وبالكثرة لا بالبركة.

وما أجزَل السعادة التى يُفيئها الرضا واليقين.

من أجل هذا، تبدأ نقطة البدء فى تصحيح علاقتنا بالمال من السيطرة الحكيمة على اشتهائه وتطلُّع النفس إليه.

يقول عليه السلام:

"طُوبى لمن هُدِيَ للإسلام..

"وكان عيشه كفافًا..

"وقَنِع.."

فالقناعة التى يظن الحمقى أنها عزاء العاجزين هى أثمن ما يمتلك الإنسان الرشيد من خير الدنيا وعطائها ومتاعها..!!

وحين يقول لنا الرسول الكريم:

"من أصبح آمنًا فى سربْه..

"مُعَافى فى بَدنه..

"عنده قُوتُ يومه..

"فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها"

حين يحدثنا الرسول هذا الحديث، فإنه لا يقوله للتصبير ولا للعزاء.. بل لتقرير حقيقة صادقة، يستطيع كل منا من خلال حياته هو أن يَصْدَع بصدقها العظيم. فالأناة، والرفق، والقناعة فى اكتساب المال نقطة البدء فى المسلك الصحيح والرشيد.

وحتى لا يجرفنا تيَّار التطلُّع إلى ثراء الآخرين يُوصينا الرسول فيقول:

"إذا نظر أحدكم إلى من يفضُل عليه فى المال والرزق؛ فلينظر إلى من هو أدنى منه.. فذلك أجْدَرُ ألأ تزدروا نعمة الله عليكم"!!!

أجل.. فَدُون كل مُقلٍّ مُقلُّون كثيرون.. ونعَمُ الله على عباده لا تتمثل فى المال وحده، فهناك الصحة، والتوفيق، والستر، والعافية..

هناك عشرات النعم التى يتمنى كثيرون من الأثرياء أن ينالوها ولو بكل ثرواتهم ولكنهم لا يستطيعون..!!

إن الله سبحانه يُعطى ويَدَع..

وليس الذين يُقَلِّل لهم فى العطاء بأدنى منزلة لديه..

بل إنه سبحانه كثيراً ما يكلُ قومًا إلى ما ملأ به قلوبهم من الغنى والخير..

يقول عليه السلام:

"إن الله يعطى الدنيا من يُحب، ومن لا يُحب..

"ولا يُعطى الآخرة إلا من يُحبّ"..

فالرضا بالقليل هو الكثير.. ورَوْح الحياة وريحانها ليسا فى كثرة المال.. بل فى غنى النفس وترفعها ورضاها.

يقول عليه الصلاة والسلام:

".. وإن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوح والفرج فى الرضا واليقين..

"وجعل الهمَّ والحزن فى السَّخط"..

* * *

ويُواصل الرسول عليه السلام توجيهه الحكيم فى تصحيح علاقات الناس بالثروة وبالمال؛ فيفتح بصائرنا وأبصارنا على ما للمال من ضراوة أشدَّ وأنكى من ضراوة الخمر..

ويكشف عليه الصلاة والسلام عن جانب من طبيعتنا البشرية يحفزنا دومًا إلى حب المال والتهالك عليه، ويدعونا إلى الحذر الشديد من تسلُّط هذه الآفة على مشاعرنا ومَسلكنا.

يقول عليه السلام:

"قلب الشيخ شاب على حب اثنتين ـ طول الحياة، وكثرة المال"!!

أجل.. فمن المهد إلى اللحد، والنفس تَوَّاقة أبداً إلى المزيد ثم المزيد من المال ومن الثراء.. بَيْدَ أنّ الحرص الذى تولده الرغبة المسعورة فى هذا المزيد، يُشكل فى تقدير الرسول خطراً رهيبًا على ضمير المرء ودينه؛ حتى إنه عليه السلام ليرى أن انطلاق ذئاب جائعة فى غنم هاجعة تمزق لحومها وتلتهمها أدنى ضرراً وأقل خطراً مما يصنعه بدين المرء حرصُه المسعور على جمع المال.!!!

ولطالما كان عليه السلام يتعوَّذ بالله من "نفس لا تشبع"..

إن الرسول يقرر أن الشَّغف بالمال ويجمعه قَصْدٌ محتوم لطبيعتنا.

وكما أننا لا نستسلم لنزغات السوء فى طبيعتنا هذه؛ فإن الإفراط فى التعلق بالمال واحد من تلك النزغات التى أمرنا بتوقِّيها.. يقول عليه الصلاة والسلام:

"لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثًا..

ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب..

"ويتوب الله على من تاب"..!!!

ويتألق نفس المعنى فى كلمات أخر من حديثه الكريم:

"لو أن ابن آدم أعطى واديًا من ذهب، أحبَّ إليه ثانيًا..

"ولو أعطى ثانيًا، أحبَّ إليه ثالثًا..

"ولا يسدُّ جوف ابن آدم إلا التراب..

"ويتوب الله على من تاب"

فتلك طبيعة الإنسان إذن، والقدر المشروع من هذه الطبيعة خير والمَال حينئذ خَضِرٌ حُلو.. أما إذا تخطّينا تُخوم التعفف والقناعة والقصد والرضا، فآنئذ لا يسد جوف ابن آدم إلا التراب.. ويبقى على الإنسان أن يقوم بواجبه الفوريّ فى تصحيح علاقته بالمال..

".. ويتوب الله على من تاب"!!.

* * *

وإذا كانت الطبيعة الإنسانية مُفرطة الشغف بالمال، واسعة الحيلة فى التَّكالُب عليه، دائمة التطلع إلى المزيد منه، فلا بد إذن أن تكون لها شكائم تخفف من لهفتها وتكالُبها..

وهناك من الأفراد من يحققون بطولات روحية وأخلاقية فى الترفع والزهد.. بيد أنَّ الكافة من الناس لا يقدرون على مثل هذا التفوق البعيد - فليكن حسبهم أن يقفوا عند حدود الله فى المال والثراء.

وأول هذه الحدود أن يكتسبوا ثروتهم من حلال، وألا يجاوزوا المشروع الذى أحلّه الله وأباحه.

وهنا تُفيض أحاديث الرسول وتوجيهاته لتدعم حُبَّ الحلال واحترام المشروع فى قلوبنا.. فما لم يتقيد الإنسان فى طلب الثروة بالمشروع وما لم يتجنب الحرام والبغى، فإن مصيره ومصير المجتمع إذا ساده هذا السلوك يكون وبيلاً.. ها هو ذا رسول الله يقول:

"طلب الحلال واجب على كل مسلم"

فالحلال أول ما يعطى المال صفة القبول والاحترام، وكل ثروة لا تأتى عن هذه الطريق، فهى وباء.. يقول عليه الصلاة والسلام:

"والذى نفس محمد بيده، إن العبد ليَقذفُ اللقمة الحرام فى جوفه ما يُتقبَّل منه عملٌ أربعين يومًا.

"وأيُما عبد نبت لحمه من سُحت فالنار أولى به"..

إن المال الحرام عقيم. لا خير فيه لصاحبه فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وبعض الناس تدفعهم البلاهة إلى الظن بأن بعض الخير يصنعه بماله الحرام وكسبه المشبوه كفيل بأن يضع عنه وزره..!

وإلى هؤلاء يوجه الرسول ﷺ حديثه:

"من اكتسب مالاً من مأثم، فوصل به رحمه، أو تصدَّق به، أو أنفقه فى سبيل الله جُمع ذلك كله فقذف به فى جهنَّم"..

ويفسِّر الرسول ذلك بقوله:

"إن الله تعالى طيب، لا يقبل إلاَّ طيبًا".

فالذين يفعلون الخير قُربى إلى الله وابتغاء وجهه الكريم، عليهم أن ينتقُوا أطيب ما عندهم من الطيبات. لا أن يُقدموا الخبيث الذى اكتسبوه بغير حق.

والرسول الكريم حريص على تذكيرنا دومًا بإغراء الحرام وتحذيرنا منه، لا سيما فى عصور التدهور الأخلاقى، حيث لا يردع الناس عن طلب الثراء الحرام رادع:

"يأتى على الناس زمان لا يُبالى المرء ما أخذ، أمن الحلال أم من الحرام"

وحين تتقهقر القيم الفاضلة إلى وراء، وتأخذ مكانها حوافز النفعية والوصولية والطمع، يُمسى الاستغناء عن المال الحرام سذاجة أو ضعفًا أو رذيلة فى أعين الجاهلين من الناس وما أكثرهم حينذاك..!!

وفى مثل هذه الفترات المرهقة للشرفاء يرسل الرسول عزاءه الحق وحكمه الصادق:

"لا تَغبطنَّ جامع المال من غير حلّه، أو من غير حقّه؛ فإنه إن تصدّق به لم يُقبل منه. وما بقى كان زاده إلى النار".

والرسول عليه السلام يربط دومًا كل نشاطنا وأعمالنا فى الدنيا بجزائها فى الآخرة.

وهو بهذا لا ينسى أن يُذكرنا بمسئوليتنا تجاه ثرائنا وأموالنا ـ عند الله تعالى يوم القيامة:

"لا تزول قدمًا عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع:

* عن عمره، فيم أفناه؟

* وعن شبابه، فيم أبلاه؟

* وعن ماله، من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟

* وعن علمه، ماذا عمل فيه؟"

* * *

ولكى نتجنب المال الحرام علينا أن نبتعد تمامًا عن منطقة الخطر كلها ـ وذلك لا يُتاح لنا إلا إذا تجنبنا فى كسبنا الشُبهات.

ومن ثَمَّ كان الرسول عليه السلام حريصًا على فتح عيوننا على الخطر المحدق بكل كسب تَغْشاه الشبهة والرِّيبة.

".. فمن اتّقى الشُبهات، استَبْرَأ لدينه وعِرضه.

ومن وقع فى الشبهات، وقع فى الحرام"..

ويتناول الرسول بالتفصيل مواطن الحرام وكثيراً من مواطن الشبهة فى مجال اكتساب المال على النحو الذى سنراه قريبًا.

بيد أنه يسبق ذلك كله بأن يضع الميزان فى قلب الإنسان وضميره:

"استَفْتِ قلبك..

والبرُّ ما اطمأنَّتْ إليه النفس واطمأنَّ إليه القلب.

والإثم ما حاك فى القلب وتردَّدَ فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفْتَوْكَ"!!

إن كل إنسان يعرف التَّمرة من الجمرة..!! وفى مسائل المال خاصَّة ليس ثمَّت غموض، فمصادره المشروعة واضحة كالنهار.. ولا عُذر لآكل الحرام، فالحلال هنا بيّن، والحرام أكثر بيانًا وظهورًا.

وحين يضع الرسول ﷺ الميزان فى قلب الإنسان وضميره ويؤكِّد بذلك وضوح الطريق..

وحتى لا يتردَّد الإنسان فى غير مَدْعاة للتردد، يحسم الرسول الأمين الأمر كله بهذه القاعدة الباهرة:

"دَعْ ما يَريبُكَ، إلى ما لا يَريبُكَ"

هذا هو الميزانُ الصادق.. وفى مقدرة كل إنسان الاحتكام إليه والاهتداء به ـ فكل مآتى الكسب التى تريبُك، ويُرسل ضميرك عندها إشارة التردد والحذَر، دَعْها دون تلكُّؤ أو تردد إلى الأخرى التى لا تريبك والتى تطمئن إليها النفس ويسكن القلب.

* * *

ولكن أمام صُور الحرام الواضحة والصارخة، ليس هناك سوى الرفض المطلق لها، حتى يظل المال وتبقى الثروة خيرًا لصاحبها لا نقمة تدمِّر حياته وتفدحه بأسوأ مصير.

وتقف بنا أحاديث الرسول طويلاً أمام صور هذا الحرام وآفاته.

إن شهوة المال أعتى شهوات الإنسان، وما لم توضع لأسباب اكتسابه وتحصيله ضوابط حازمة، فإن الفوضى تعمُّ المجتمع لا محالة، وتتحول الجماعة إلى ذئاب وكلاب.. والرسول ﷺ فى كل توجيهاته بشأن المال حريص أنبل الحرص على أن تظلَّ "الوظيفة الاجتماعية" للمال على رأس النوايا والحوافز التى تدفع الناس إليه وتحفزهم لتحصيله.

والوظيفة الاجتماعية للمال تتمثل فى سلامة الأسباب المفضية إليه.. ثم فى سلامة المنهج الذى يتمُّ به إنفاقه واستثماره والانتفاع به.

وعلى الطريق التى يزدحم الناس فيها ليكتسبوا الثروة والمال، تتربص بهم مغريات ضارَّة، وآفات مهلكة.

وتنهض أحاديث الرسول ﷺ بكل ضيائها لتكشف لنا هذه الآفات.

* * *

وعلى رأس هذه الآفات المهلكة يجيء الاحتكار.. والرسول عليه الصلاة والسلام يرفض كل ثروة تجيء من هذه الطريق.

يقول عليه السلام:

"الجالبُ مرزوق، والمحتكر ملعون".

والجالب هو الذى يجلب احتياجات الناس من مطعم وملبس.. يجلبها من مواطنها البعيدة أو القريبة، ثم يضعها فى متناول الناس بأسعار هادئة بارَّة.

هذا الإنسان يدعو له الرسول ﷺ بوفرة الرزق ويبشره بها.

أما المحتكر الذى يُوصد على تلك الحاجيات أبواب مخازنه ليبيعها فى السوق السوداء أو بالسعر الفادح الشَّره، فهو ملعون لا تفتأ اللعنة تطارد أمواله حتى تجعلها هباء ولو بعد حين.

يقول عليه السلام:

"بئس العبد المحتكر..

إن أرخص الله الأسعار حزن.. وإن أغلاها فرح"!!

فمجرد الحزن حين ترخص الأسعار، ومجرد الفرح حين تربو وتزداد، قَذَرٌ يُلوِّث المال؛ لأنه يشى بنفس طامعة خبيثة تفرح لحزن الآخرين، وتحزن لفرحهم..!!

أجل.. فالسعر الرخيص تهوى إليه أفئدة الملايين من المستهلكين.. والرجل الحصيف فى جمع ماله، النبيل فى تحصيل ثروته ورزقه هو الذى يمضى بمشاعره ومسلكه فى نفس الاتجاه الذى يرجو الناس منه يُسر عيشهم وضرورات أرزاقهم.

إن الرسول ﷺ حريص على أن تظلَّ مصادر الرزق للناس بعيدة عن كل مناورة ومؤامرة.

وكل تاجر يتسبب بأنانيته فى احتكار هذه الأرزاق أو فى رفع أسعارها، لا يجد له فى رحاب الله ولا فى رحاب رسوله مكانًا..

يقول عليه السلام:

"من احتكر طعامًا، فقد برئ من الله وبرئ الله منه".

ويقول:

"من احتكر على المسلمين طعامهم، ضربه الله بالجُذام والإفلاس"

ويقول عليه السلام:

"من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليُغْلِيَه عليهم، كان حقًا على الله تبارك وتعالى أن يُقعده بعُظمٍ من النار يوم القيامة".

فليس الطعام فقط هو الذى يتوعَّد الرسول محتكره..

وليس الاحتكار فقط هو الذى يجلب لصاحبه الدمار واللعنة..

بل إن مجرد المساومة أو المزايدة التى تُفضى إلى إغلاء سعر شىء - أىْ شئ مما يحتاجه الناس، كفيل بأن ينزل صاحبه مكانًا سحيقًا من غضب الله وعذابه.

إن هذه الأحاديث الكريمة التى تتفجّر حكمة، مثلما تتفجّر ثورة ونقمة على الذين يتوسلون إلى الثراء والمال بإنزال الضُرّ بالآخرين لتُلْقى ضوءها الكاشف على جرائم القُوى التى تحتكر فى الصناعة أو فى الزراعة أو فى التجارة مصادر الرزق ومفاتيح الحياة للأمة والمجتمع.

وحين يقول الرسول عليه السلام:

"الناس شركاء فى ثلاثة، المال والكلأ، والنار"

فإنما يشير أيضًا إلى تلك الضرورات التى لا ينبغى لفرد ولا لأفراد أن يحتكروها من دون المجتمع والناس.

وتنقلنا أحاديث الرسول ﷺ إلى صورة أخرى من صور الحرام الذى نُواقعه إبَّان سعينا لتحصيل الثروة والمال.

ذلكم هو الغشّ فى كل أزيائه وأشكاله.

والغش من أكثر الخطايا احتمالاً للتأويل والتماس العذر والتبرير.. فما أيسر أن يخدع الإنسان نفسه بأن هذا الذى يقترفه ليس حرامًا؛ لأنه مثلاً لم يسرق، ولم يُكره ضحيته على ما أراد.. ولكن كقضية عامّة يُرسل النبى ﷺ نذيره هذا:

"بئس العبد عبدٌ يستحل المحارم بالشُبهات"

فشبهة الغِش كشبهة السرقة البَواح.. وكما أننا نكره أن نُخدع فى أى معاملة نتعاملها، أو سلعة نشتريها، ونذهب نتحرَّى أمرنا حتى نضمن سلامة ما أخذنا - فكذلك

يجب أن نتحرَّى الأمر بالنسبة للآخرين حتى نكون على يقين بأننا لم نغشّهم ولم نخدعهم.

يقول عليه السلام:

"من غَشَّنا، فليس منّا"

"والمكر والخداع فى النار"

إن هذا الربط الحكيم بين الغش والخداع والمكر، يقطع الطريق على أولئك الذين يستخدمون ذكاءهم الشرِّير فى غش الناس أولاً.. ثم فى إقناع أنفسهم بأنهم لم يقترفوا خطيئة ولا إثمًا..!!

ويحدثنا "أبو هريرة" رضى الله عنه فيقول:

"مرّ رسول الله ﷺ على صُبْرة طعام - أى كومة طعام - فأدخل يده فيه فنالت أصابعه بللاً، فقال:

ما هذا يا صاحب الطعام..؟ قال: أصابته السماء - أى المطر

فقال الرسول: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس..؟ مَن غشّنا فليس منّا"..

فالذين يجمعون المال، ويُنَمُّون ثرواتهم بالغش أيًّا كان سَمْتُه ولونه، لا مكان لهم فى صفوف الأمة الراشدة.

فالراشدون المؤمنون يتحلَّون أول ما يتحلون بالأمانة والتناصُح.

يُروى عنه عليه الصلاة والسلام:

"المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحَةٌ وَادُّون، وإن بَعُدت منازلهم وأبدانهم..

والفَجَرَةُ بعضهم لبعض غَشَشَةٌ مُتخاونون؛ وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم"!!!

أجل.. إن التناصح أوضح آيات الإيمان، وهو فى مواطن الإغراء أكبر قداسةً، وأكثر لزومًا.

من أجل هذا يقول الرسول:

"لا يُحلُّ لأحد يبيع شيئًا إلا بَيَّن ما فيه..

ولا يحلُّ لمن علم ذلك إلا بَيّنه"

فالكشف عن حقيقة الشيء، وتبيان عيوبه وسوآته - أى شيء يكون - ليس واجبًا فرديًا، ويُناط بصاحب المنفعة فيه وحسب.. بل هو واجب اجتماعى وجماعى، يُنادى إليه كل الذين يعلمون ويعرفون.

وكما يُحرِّم الرسول عليه السلام الغش حين يكون تمويهًا فى نوع السلعة، يحرمه بقوة أيضًا حين يكون تمويهًا وتطفيفًا فى وزنها وكَيْلها. ويُحاذر الرسول الكريم من خطيئة التطفيف، لا على الفرد المطفف وحده، بل وعلى الجماعة التى تشيع فيها هذه الخطيئة.. فيقول عليه الصلاة والسلام وهو يذكر مئات من الناس يحقُّ عليهم عذاب الله وغضبه:

".. ولا نَقَص قومُ المكيال والميزان إلا قطع الله عنهم الرزق".

ويقول فى حديث آخر:

".. ولم يَنقُصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشِدَّة المئونة وجور السلطان عليهم".

فاكتساب المال عن طريق السرقة فى المكيال والميزان يمثل سعيًا حثيثًا إلى الخراب والوبال، وإن بدا لصحابه أنه سبيل للاستكثار.

إن البيع والشراء من أكثر، بل لعلهما أكثر مصادر المال وأرحب مجالات حركته، وفرص الزيف والاختلاس والمخاتلة وافرة فى مجال التجارة لمن يشاء.

من أجل هذا حرص الرسول الرحيم على تحذيرنا العميم والدائب من مزالق هذا السبيل. وهو فى نهيه عن تطفيف الكيل والميزان، إنما يريد أن يحررنا من إغراء ما فى البيع والشراء من أهواء.

من أجل هذا أراد لكل بيع أن يكون سليمًا نظيفًا سديدًا.

وكل شائبة تُغرى بربح حرام، يحذر الرسول منها.. ولكى تسلم الصدور تمامًا من شوائب البيع والشراء أمر البائع أن يكون واضح الأسلوب واضح النوايا.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"لا يحل لأحد يبيع شيئًا إلا بَيَّن ما فيه.
ولا يحلُّ لمن علم ذلك إلا بيَّنه"

فكشف مثالب الصفقة مطلوب قبل كشف مزاياها، ومن ستر عيوب صفقته فقد خان وخسر.

يقول عليه السلام:

"من باع عيبًا لم يُبينه لم يزل فى مقت الله"

وحين يتحرَّى الرجل الحلال فى كسْبه، فيعرض سلعته عرضًا واضحًا لا غـش فيـه، لن يكون بحاجة إلى مواقعة خطيئة أخرى ـ تلك هى خطيئة اليمين الكاذبة الغَمُوس التى يستخدمها آثمًا فى الترويج لسلعته:

يقول عليه السلام:

"الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب".

وفى حديث آخر يقول عليه السلام:

"اليمين الفاجرة منفقة للسلعة، ممحقة للكسب"

فتصريف السلعة باليمين الفاجرة الكاذبة أو حتى بتعوُّد اليمين الصادقة عمـل غير صالح، لأن العادة ـ أىّ عادة ـ تملك قوة الاستدراج.. فإذا جعل التاجر الحلف بالله علـى طرف لسانه دومًا مطمئنًا لصدقه فستسدرجه عادة الحلف إلـى الكـذب حتـى يُواقعه غير متحرج ولا متردد.

ولكى يُبارَك للبائع فى كَسبه، وللمشترى فى حاجته رسم الرسول النهج الذى يغنـى كلا منهما عن التحايل والمضاررة.

يقول صلى الله عليه وسلم:

"البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا..

فإن صدَق البيِّعان وبيَّنا، بُورك لهما فى بيعهما..

وإن كذَبا وكتَما، فعسى أن يربحا ربحًا مَّا ويمحقا بركة بيعهما".

فالبيعان ـ البائع والمشترى ـ فى خيار من أمرهما إلى أن يتفقا.. وعلى كل منـهما أن يحرص على ألاَّ يبخس الآخر حقه.. فإن احتال أحدهما ونجحت حيلته فـى أن يـأخذ ما ليس له بحق فسيربح فعلاً ربحه العاجل، ولكن المحق والتَّلف والخســران.. كـل ذلـك سيحيق سريعًا بالحرام الذى أخذ!!

* * *

ويحرص الرسول ﷺ حرصًا جليلاً ونبيلاً على أن يكون كَسْبنا طيبًا ها هو ذا يُبَشِّر ويقول:

"طُوبى لمن طاب كسبه وصلحَتْ سَريرتُه وكَرُمَتْ علانيته، وعزل عن الناس شرَّه".

والذى يطيب كسبه ويعزل عن الناس شره، ليس هو من يتجنـب الغش والاحتكـار

والكذب فحسب.. بل هو مع ذلك وقبل ذلك، من يتجنب الاتجار فيما حرَّم الله من مطعم حرام ومشرب حرام وسلعة حرام.. يقول عليه صلاة الله وسلامه:

"إن الله تعالى حرم بيع الخمور، والميتة، والخنزير والأصنام".

وذات مرة حدث تساؤل فى مجلسه عليه السلام حول بيع الخمر فقال:

"إن الذى حرّم شربها، حرَّم بيعها"..!!

فالاتجار فى كل ما هو محظور ومُحرَّم سبيل للكسب الخبيث والثراء الدنس. ومن ثَمَّ نهى الرسول عنه وحذّر منه.

"ولا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تُعلموهن. ولا خير فى تجارة فيهن.. وثمنهن حرام".

فالجوارى اللائى يُبَعْن لمتعة الجسد أو متعة اللهو والسماع سبيل كَسْب قذر وحرام.. والمؤمن الصادق طيّب، يسعى إلى الطيبات ويتجنب الخبائث ولا ينمّى لحمه من سُحت، ولا يضاعف ثروته بالحرام..

* * *

ويتعقب النبى الكريم آفات المال والثروة حتى يبلغ آفة الربا وجريمته فيُدَمْدم عليها ويجعل أصحابها نكالا..

فالربا استغلال بشع لحاجة الإنسان وضعفه وبؤسه.

ثم هو يخلق طبقة من الأثرياء العاطلين الجشعين الذين كثيراً ما يتحوّل المال بين أيديهم إلى سوط عذاب..

من أجل هذا، جعله الرسول ﷺ واحداً من شَرِّ الموبقات التى دعا إلى تجنُبها والهروب منها..

يقول عليه السلام:

* "اجتنبوا السبع الموبقات..
* الشرك بالله..
* والسحر..
* وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق..
* وأكل الرِّبا..

* وأكل مال اليتم..

* والتولّى يوم الزحف..

* وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"

فجريمة الربا تأخذ مكانها إلى جوار الشرك بالله وقتل النفس بغير حق.

وكل مال يُسهم الربا فى إنشائه وإنمائه، فإنما ينتظره المحق الـذى توعَّـد الله فـى قوله الفصل:

﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ﴾

ولبشاعة هذا النوع من الكَسب، لم تُصَبُّ اللعنة على صاحبه وحده. بل وعلى كـل مشترك فيه.

يقول "جابر بن عبد الله" صاحب رسول الله ﷺ:

"لعن رسول الله ﷺ آكل الربا.. ومُؤكِلَه.. وكاتبه.. وشاهده..

"وقال: هم سَوَاء"!!

فالذى يُعطى الربا، والذى يأخذه، والذى يحرر عقده، والذى يشهده.. كـل هـؤلاء تغطيهم لعنة هذا الإثم.. أفلا يدل ذلك على ما فى الربا من ضلال وما له من وبال..؟!!

ويحدثنا "عوف بن مالك" رضى الله عنه:

"قال رسول الله ﷺ: إيّاك والذنوب التى لا تُغفر..

* الغلول ـ فمن غَلَّ شيئًا أُتِى به يوم القيامة.

"والربا ـ فمن أكل الربا بُعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط.. ثم قرأ قوله تعالى: الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقـوم الـذى يتخبَّطه الشيطان من المسّ".

فالغُلول ـ وهو اختلاس الأموال العامة وسرقتها..

والربا ـ وهو الإقراض بالفوائد المضاعفة ـ كلاهما ـ كما يقول الحديث من الذنوب التى تكاد من فرط بشاعتها لا تُمَنّى بغفران..!!

والغُلول ليس سرقة فحسب، وليس كَسْبًا حرامًا فحسب، ولكنـه مع ذلك تخريب وبيل وخيانة مُبينة، لأنه عدوان على أموال عامة، لا يملكها فرد. إنما تملكها الجماعة

والأمة.. وهى لكثرتها وكثرة الأيدى العاملة فيها تُغرى بحملقة لأعين، ونزعات الأنفس؛ فإذا تحوَّل ذلك إلى فعل؛ فسرعان ما تتسع دائرة العدوى به وتكثر الأيدى الناهبة والمختلسة، فتقع الأموال العامة التى هى حق الأرملة والضعيف والعامل والكادح واليتيم والمريض والمسكين، والتى تقوم بها وعليها مصالح الأمة وضرورات حياتها.. تقع هذه الأموال فريسة الاختلاس والغلول والضياع.

وللأموال العامة حرمة لو يعلمها الناس ما جرؤ احد على العبث بها.

وهى لا تتمثل فى النقود وحسب.. بل وفى كل ما تتكون منه الثروة العامة للأمة.

يقول "أبو هريرة" صاحب رسول الله:

"قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظَّم أمره حتى قال: لا ألفينَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء، يقول يا رسول الله أغثنى.. فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبْلغتُك..

"ولا ألفينَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرَس له حَمحَمة، يقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لاأملك لك شيئًا، قد أبلغتُك..

"ولا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة، على رقبته شاة لها ثُغاء، يقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبْلغْتُك..

"ولا ألفينَّ أحدكم يجىء يوم القيامة، على رقبته نفس لها صياح، يقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك..

"ولا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة، على رقبته رقاع تَخفق. يقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك..

"ولا ألفينَّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت، يقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك".

ففى هذا الحديث الكريم تعداد لبعض الأصناف التى تتكون منها الثروة، وقد جاء المال فى ختامها وهو الذى عبَّر عنه الرسول بالصامت. فالصامت هو المال ذهبًا أو فضة أو أوراقًا نقدية.

وكل اختلاس أو انتهاب لما ليس لك حق ستحمل وزره الفادح فى دنياك ويوم

يقوم الناس لرب العالمين.

وأحاديث الرسول الزاخـرة عن الاختلاس والغـلول تبلغ ذروتهـا في واقعة "رفاعة بن يزيد"..

ورفاعة هذا كان يعمل في خدمة رسول الله بعد إسلامه القريب والحديث. وفي إحدى الغزوات اختص نفسه بشملة من الغنائم - والغنائم أموال عامة - لا ينبغي لأحد أن يأخذ منها شيئًا إلا بعد حَصرها وقَسمِها وفق القواعد المشروعة.

وذات مرة أصاب "رفاعة" سهمٌ قاتل من كمين للعدو كان يتربص بالمسلمين..

وسمع الرسول بعض أصحابه يغبطونه على استشهاده فقال والأسَى يكسو وجهه..

"إن الشملة التي أخذها من الغنائم لتشتعل عليه ناراً"..

أو بعد هذا نذير ووعيد للذين يعيثون في الأموال العامة للأمة وللدولة، فسادًا ونهبًا وغُلولاً..؟!

ولطالما كان عليه الصلاة والسلام يُحذِّر أصحابه الذيـن يعملـون وُلاة أو قوّامين على أمور الناس من الأموال العامّة. ويضرب لهم المثل برجل بعثه ساعيًا على قوم فغلَّ نَمرَة أي بُردة من صوف.. يقول عليه السلام:

".. فَدُرِعَ مثلها من نار"..

أي عوقب على فعلته هذه بعد موته بأن ألبس درعًا من نـار تتلظى بها روحه في برْزَخها.

* * *

وإذا كان الغُلول يعني الاعتداء على الأموال العامـة بطريق مباشر كالاختلاس والسرقة. فإنه يعني أيضًا العدوان بطريق غير مباشر وذلك بالامتناع عن إعطاء ما في أموالنا من حق معلوم..

فالضرائب العادلة المشروعة حق للدولة والأمة، والأموال المتحصلة منها أموال عامة.. فامتناعك عن دفع ما عليك من حق ضريبي يعني أنك غَلَلْتَ وسرقت من الأموال العامة نفس القدر الذي كان يجب عليك دفعه.

وهذا المعنى يوضحه لنا سرّ اهتمام الإسلام بالزكاة.

فالزكاة ضريبة تناهت في العدل والرحمـة، فهي لا تُكلِّف المموِّلين من أمرهم عُسْرًا، بل تأخذ منهم القليل الهيِّن، وتفرض عليهم اليسير المستطاع.. ثم هي ترجع بكل

خيرها إلى فقراء الأمة ومرافق الدولة..

ومن ثمَّ كان حديث الرسول عن الزكاة حديثًا فى صميم قضية المال وموضوعه.

وكعادته دومًا عليه صلاة الله وسلامه، يحاول أن يجعل الضمير هو القانون.

فهو إذ ينادينا إلى الزكاة، يؤكد لنا فى صدق عظيم أنه يدعونا إلى ما يُزكِّى أنفسنا ويطهر أرواحنا، بل ويُنمِّى أموالنا.

"حَصِنوا اموالكم بالزكاة"

فالزكاة ليست ضريبة عليك.. بل هى قبل هذا ضريبة لك..

وهى لأنها حق الفقراء عندك، فإن الله يبارك لك إذا أعطيت هذا الحق.

يقول عليه السلام:

".. تُخرج الزكاة من مالك؛ فإنها طُهرة تطهرك"

إنها لا تطهر المؤمن من إثم النكوص عن إحدى فرائض الديـن فحسـب. بـل هـى تطهر روحه من كل شوائب الافتتان بالمال والتكالُب عليه والشُّحِّ به، كما تطهره من أحقاد المحرومين وحسد الحاسدين.

يقول عليه السلام:

"إذا أدَّيت زكاة مالك، أذهبت عنك شرَّه"

هكذا يربط الرسول الكريم فريضة الزكاة بالضمير أكثر مما يربطها بالقانون.. فـهو يريد للمؤمن أن يكون ربَّانيًا.. لا يخدم المال وإنما يستخدمه فى كل ما يرضى الله وينفـع عباده. من أجل هذا يريد الرسول أن نُعطى زكاة أموالنا مهما بلغ حجمها وقدرها بمشاعر الرضا والحبور، لا التأفُف والضجَر. يقول عليه السلام فى معـرض حديثـه عـن النمـوذج الصالح للمسلم الصالح.

".. وأعطى الزكاة، طَيِّبةً بها نفسُه"..

وهو ﷺ لا يفرض الزكاة على المال وحده.. بـل وعلـى أنـواع أخـرى مـن مصـادر الثروة ـ كالزروع والثمار والأنعام.. ولأنه يريد للزكـاة أن تكـون عطـاء روح وضمـير، لا إكراه سلطة وقانون، فقد دعا المؤمنين ألا يقفوا العطاء عند مقادير الزكاة وحدهـا.. بـل عليهم أن يجاوزوها إلى المزيد من العطاء.

سئل عليه السلام يومًا عن أشياء لم تُفرض فيها الزكاة. فكان جوابه:

".. ما أنزل عليَّ فيها إلا هذه الآية الفذَّة الجامعة: فمن يعمل مثقال ذرَّة خيرًا يره.. ومن يعمل مثقال ذرَّة شرًا يره"

فكل عون تبذُله للناس من مالك خير يتألق في رصيدك عند الله.

عن "أنس بن مالك" رضى الله عنه يقول:

"أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. إنى ذو مال كثير، فأخبرنى كيف أصنع..؟ وكيف أنفق..؟

"فقال الرسول: تخرج الزكاة من مالك، فإنها طُهرة تُطهِّرك.. وتصل أقرباءك.. وتعرف حق المسكين. والجار، والسائل.."

ففى المـال حقوق كثيرة تقتضيها إنسانية الإنسان مع الحق الذى تقتضيه فرائض الدين.

وإذا كانت الزكاة قد فرضت على المسلم، فلكى تضمن الحق الأساسى والضريبة المحتومة أولاً..ثم لتكون تدريبًا للأنفس المجبولة على الشح، والأخرى المهيأة للبر والخير، كى تُنمّى فيها الأريحية الكريمة المعطاءة.. والزكاة عند الرسول قُربى يشكر العبد بها ربه على نعمائه.

من أجل هذا يدعونا الرسول أن نعطيها حين نعطيها بأعين قريرة وأفئدة فرحة محبورة.. كما يدعونا أن نقدمها بشعور الإهداء.. نعطيها وكأننا نقدم إلى ربنا هدية..!!

يقول عليه الصلاة والسلام:

".. ويُؤتى الزكاة مُحتسبًا، طيبةً بها نفسُه"..

ويقول فى حديث آخر:

"..وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدةً عليه كل عام، ولم يُعط الهرمة ولا الدَّرِنَة ولا المريضة..

"ولكن من وسَط أموالكم؛ فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشرِّه".

والزكاة فريضة يتقاضاها القانون، إذا عجز الضمير الرشيد عن هداية المانعين لها. يقول عليه صلاة ربنا وسلامه:

"من أعطى زكاة ماله مؤتجرًا ـ أى راغبًا فى ثوابها من الله ـ فله أجرها"

"ومن منعها، فإنَّا آخذوها وشَطْر ماله. عَزْمَةٌ من عَزَمات ربنا".

فمانع الزكاة، الأنانى بماله، المغتال حقوق الله فى هذا المال لا يُترك فى غيِّه. بل تُؤخذ منه الزكاة، ويُؤخذ منه المزيد ردعًا له وعقابًا.

ولقد رأينا خليفة رسول الله ﷺ "أبا بكر الصدِّيق" رضى الله عنه وأرضاه، يهتف فى وجه الفتنة التى خاضها قوم قرروا الإضراب عن دفع الزكاة!

"والله لأقاتِلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال.".

"والله لو مَنعونى عَناقًا أو عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتُهم على منعها".

والعناق هو الأنثى من ولد المعز.. والعقال هو الحبل الذى تُربط به الدابة.

والحق أن موقف الرسول من الزكاة، وموقف الإسلام عامّة ليكشف عن الإنسانية الباهرة للرسول ولدينه.

فهو عليه السلام يراها دائمًا وأبدًا حق الفقراء فى أموال الأغنياء.

ثم هو يحمى الفقراء ويذود عن حقهم هذا بكل سبيل..

ثم هو بعد ذلك وقبل ذلك لا يكلف الأغنياء عُسرًا، ولا يفرض عليهم رهَقًا.

ولنُصغْ لهذا الحديث يرويه ابن عباس، ابن عم الرسول:

"بعث رسول الله ﷺ مُعاذًا إلى اليمن فقال له: إنك تقدُم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى."

"فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تُؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ على فقرائهم"

"فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم"

"وتَوَقَّ كرائم أموالهم"..!!

بالله ما أبهاه، وما أحناه، وما أروعه..!!

انظروا ـ إنها من الأغنياء إلى الفقراء.. ثم..

"توَقَّ كرائم أموالهم"..

حتى الأغنياء الذين يُؤخذ منهم لا يريد الرسول أن يسيئهم.. ومن أجل هذا جاءت وصيته الكريمة:

"توَقَّ كرائم أموالهم"

ولكن، ماذا إذا تحجَرت الضمائر وقست القلوب، ووقعت النفوس فى براثن الشح والهوى الاكتناز..؟

وماذا، إذا لم يجد الناس ضميراً يدفعهم، ولا قانونًا يردعهم..؟

هنالك يخبرهم الرسول أن القصاص فى أثرهم، وأن عقاب الله مُدَّخر لهم. يقول عليه الصلاة والسلام:

"ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفُحت له صفائح من نار، فأحُمى عليها فى نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره.. كلما بَرَدت أعيدتْ له".

وحين يتحول منع الزكاة من عصيان فردى إلى عصيان جماعى.. أى حين تصبح السِّمة الغالية على المجتمع الإسلامى تجاهل الزكاة ومنعها، فآنئذ تغيض من هذا المجتمع منابع رزقه وتغشاه أزمات العيش والحياة يقول عليه السلام:

".. ولم يُمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء".

ومنع القطر هنا لا يعنى منع الأمطار وحدها، بل يعنى نُضوب مصادر الثروة وأسباب الرزق، كما يعنى تفشِّى التدهور واندلاع الأزمات..

* * *

ولا يرى الرسول فى الزكاة أداء لحق المال فحسب، بل هى كذلك خير تحصين له وأوثق تأمين. يقول عليه الصلاة والسلام:

"حَصِّنُوا أموالكم بالزكاة"

فالزكاة سبيل لنماء المال وحفظه عند الله وعند الناس.. أما عند الله؛ فلأن الزكاة تعنى شكر الله على نعمائه والله سبحانه يقابل الشكر على النعم بإعطاء المزيد منها..

وأما عند الناس؛ فلأن الزكاة حين تُنفق فى سُبُل المعروف والبِّر، فتَصلُ رحمًا، وتفرج كَربًا، وتُغيث ملهوفًا، فإنها تترك فى نفوس الناس ذكرى طيبة ومودَّة دافئة لهذا الذى أدَّى زكاة ماله.. وحين يُحاط الثراء بالمحبة بدل الحقد، وبالرضا والدعاء مكان التربص والمقت، فإنه بهذا يكون فى مأمن عظيم ونُزُل كريم..

ويتجلى إدراك الإسلام لأهمية العلاقات التى يطرحها المال على الجماعة والناس

تجَليًا ثاقبًا حين يطالعنا موقف الرسول من الديون..

فَللدَّين فى تعاليم الرسول وأحاديثه ما يُشبه القداسة.. ولنبدأ بهذا الحديث الذى يرويه لنا "أبو سعيد الخُدرىُّ" صاحب رسول الله:

"سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والدَّين.."

"فقال رجل: يا رسول الله، أتَعدل الكفر بالدَّين..؟"

"قال الرسول: نعم"!!!

إن الديون حين يَستَمْرئها الناس تُلحق بالحرمة التى يريدها الإسلام للمال خطرًا محدقًا وضررًا ماحقًا.

فالدين، الذى هو هم بالليل وذلٌّ بالنهار، لا يركن إليه فى الأعم الأغلب، سوى أولئك الذين يُؤثرون المأخذ السهل، ويتنكبون طريق المعاناة، والصبر والسعى الدءوب.

وهؤلاء قلما يُضمرون نوايا السداد، وقلما يقدرون عليه.. ومن ثم كان زجر الرسول لهم قويًا، لأن هذا المسلك حين يفشو فى مجتمع مًا فاشيته يضعضع روح الثقة فى الجماعة، ويتسبب فى تحريف علاقات الناس بالمال عن طريق الخير والتعاون والرشد إلى طريق الشحّ والضَنْ والانطواء.. ثم إن استمراء الدين، لا سيما إذا كان ثَمّة عزم على المطل أو عجز عن السداد، يعنى الرغبة فى أكل أموال الناس بالباطل ـ الأمر الذى يرفضه الرسول ويحذر منه أشد تحذير.. والرسول بهذا، يريد أن يُريح الناس من همٍّ ثقيل يقض المضاجع ويحنى الجباه، ويُذل الأنفس.

إنه عليه السلام يقول:

"لا تُخيفوا أنفسكم بعد أمنها.. قالوا: وما ذاك يا رسول الله..؟ قال: الدين"!!

ويحدثنا الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنهما.

"كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين فيسأل الرسول: هل ترك لدينه قضاء..؟

"فإن حُدِّثَ أنه ترك وفاء لدَينه صلى عليه.

وإلاَّ قال: صَلُّوا على صاحبكم..

"فلما فتح الله عليه الفُتوح قال: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فمن تُوفى وعليه دين فعَلَىَّ قضاؤه.. ومن ترك مالاً فلورثته".

إلى هذا المدى الرهيب تبدو مسئولية الدين واضحة وفادحة.

فالرسول الذى هو بالمؤمنين رءوف رحيم، وهو على الموتى من المؤمنين أكثر حدبًا وعطفًا وبهم أكبر رحمة ورأفة، يتحرَّج عن الصلاة على ميت مدين لم يترك وفاء لدينه.. حتى إذا أفاء الله عليه من مغانم الفتوح، كان أول ما يبادر به إليه سداد الدَّين عن كل مسلم يموت وعليه دَيْن..

هنا تبدو حرمة الحقوق عند رسول رب العالمين.!!

إنها حرمة تشبه القداسة، وقلّما نجد لها فى كل تشريعات البشر ـ مذ وُجدوا نظيراً..

وليس معنى هذا الزجر المدمدم عن الديْن؛ أنه محظور أوحرام..

إنه مباح فى حدود الضرورة، وفى حدود العزم الصادق على الوفاء.

يقول عليه صلاة الله وسلامه:

"من أخذ أموال الناس يريد أداءها؛ أدَّى الله عنه..

"ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها، أتلفه الله"

ويقول عليه السلام:

"ما من عبد كانت له نيَّة فى أداء دينه، إلا كان له من الله عون"

فالرسول إنما يزجر عن الدَّيْن الذى يُوَرِّط الناس به أنفسهم فى مواقف الحرج والبوار والمماطلة، وهو لا يريد لأحد أن يصير الدَّيْن قاعدة حياته، أو مصدراً من مصادر عيشه ورزقه.

كما لا يريد أن تفسد بسبب الدين علاقات الناس التى ينشد لها أقصى منازل الوئام والوُدّ والثقة.

من أجل هذا مقت المَطل، وقال:

"مَطْلُ الغَنىِّ ظُلم"

أى أن امتناع القادر على الوفاء بما عليه من دين ظلم وإثم.

وفى الجانب الآخر من المشهد نرى حنان الرسول ﷺ يفيض غَدَقًا على المدين الذى اضطرته ظروفه القاهرة فاستدان، ثم اضطرته مرة أخرى للعجز عن الوفاء.

هنا يتقدم الرسول بتعاليمه الحانية مُوصيًا بإنظار المُعسر، أى إعطائه مهلة أخرى

وفرصة جديدة يتأتى له فيها السَداد فى غير مشقة أو عُسر.

يقول عليه السلام:

"كان فيمن قبلكم تاجر يُدايِن الناس، فكان إذا رأى مُعْسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه؛ لعلَّ الله يتجاوز عنا.. فتجاوز الله عنه"..

ويقول الرسول الأمين أيضًا:

"من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفَّس عن مُعسر أو يضع عنه"..

فإرجاء موعد الوفاء بالدين ومدُّ أجله أمام المعسر المعْوز عمل نبيل له من الله ثواب جزيل، وأروع منه أن يضع الدائن المقتدر عن مدينه العاجز بعض الدَّيْن أو جميعه.

هكذا يُمسك الرسول العظيم بالميزان فى حكمة باهرة. فهو ينهى عن التورط فى الديون، واستمرائها.

ولكن إذا فرضتها الظروف على قوم خفَّ إليهم بالنجدة.. وهو يوصى بهم دائنيهم ويَعدُهم على رفقهم الرحمة وحسن ثواب..

وإن عطفهُ على المدين ورحمته به لتحمل حاجة المدين إلى أعتاب الفضل الإلهى، فيعلمهم أن يقرعوا بعجزهم باب الله، ويضرعوا إليه كى يَنْضُوَ عنهم أوزار الديْن وأثقاله.

دخل ﷺ المسجد ذات يوم فى غير وقت صلاة، فوجد صحابيًا من الأنصار يسمى.. "أبا أمامة".

فسأله الرسول:

"يا أبا أمامة، ما لى أراك جالسًا فى المسجد فى غير وقت صلاة..؟؟

قال أبو أمامة: هموم وديون لزمتنى يا رسول الله..

ويبدو أن النبى لم يكن معه يومئذ ما يقضى به دين صاحبه، فدلَّه على الفيض الرحيب قائلاً له:

"أفلا أعلمك كلمات إذا قلتها أذهب الله همَّك، وقضى عنك دينك..؟

"قل إذا أصبحت وإذا أمسيت:

* اللهم إنى أعوذ بك من الهمِّ والحزن

* وأعوذ بك من العجز والكسل

* وأعوذ بك من البخل والجبن

* وأعوذ بك من غَلَبة الدَّيْن وقهر الرجال"

يقول "أبو أمامة": فلزمت هذا الدعاء حتى أذهب الله به همى وقضى دينى..

* * *

هكذا يتلقى المال من أحاديث الرسول الكريم فلسفته الرحيمة والحكيمة.

ولئن كُنَّا لم نأت إلا على النَّزر اليسير من أحاديث الرسول عن المال وقضاياه ومشكلاته إلا أننا فى هذا القليل المبارك نستطيع أن نرى نَمطًا فريدًا فى عرض قضية المال، ونستطيع بهذا القليل المبارك أن نهتدى إلى أمثل منهج وأهدى سبيل يصوغ علاقتنا بالثروة وبالمال.

ولقد هدى إلى هذا المنهج رسول الأمَّة "الوسط" والدِّين "القيِّم"..

الرسول الذى كان يستعيذ بالله من شر فتنة الغنى.. وشر فتنة الفقر..

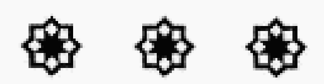
والرسول الذى بقدر ما دعا إلى التعفف فى جمع المال والقناعة فى اكتسابه، دعا بنفس الحفاوة إلى الحفاظ عليه وحذَّر من إهداره وتضييعه..

والذى اختار "الوسَط القَوَام" طريقًا لجمعه واكتسابه - فلا تهالك ولا تقصير.. وطريقًا لبذله وإنفاقه - فلا إسراف ولا تقتير.

والذى جعل جوهر علاقة الإنسان به ماثلاً فى أنه - أى المال - خادم مطيع، لا سيد مستبد..

وأن ما قلَّ منه وكفى، خير مما كثُر وألهى.. وأنه وسيلة الإنسان الصالح إلى الحياة الصالحة.. لا أكثر من ذلك ولا أقلّ.

"فمن أبْصَر، فلنفسه
ومن عَمِيَ، فعليها
وما ربك بظلاَّم للعبيد"



[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفصل الثامن

عن العمل ...

ذات يوم كان صلوات الله عليه وسلامه يجلس مع نفر من أصحابه ومر بهم رجل يتفجَّر نشاطًا وعافية، يُسرع الخطى نحو غايته وعمله.

وبَهر جَلَدُه ونشاطه وحيويته بعض الأصحاب فقال قائلهم متعجبًا:

- يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله..؟

فقال الرسول عليه السلام:

"إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله..

وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله..

"وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعِفُّها، فهو في سبيل الله..

"وإن كان خرج يسعى رياء ومُفاخرة، فهو في سبيل الشيطان"..

بهذا المشهد، وبهذه الكلمات نستهلُّ غُدُوَّنا مع أحاديث رسول الله وهي تحدثنا عن العمل حديث مُعلِّم عظيم ورسول كريم.

وصدق رسول الله وهو يتحدث بنعمة الله عليه فيقول:

"أوتيتُ جَوامعَ الكَلم، واختُصِرَ لي الكلام اختصاراً".

ففي هذه الكلمات الوجيزة جدًا التي تحدَّث بها عن الرجل الذي بهر أصحابه بجلده وبنشاطه، كاد - عليه السلام - يُلخص كل ما يمكن أن يُقال عن العمل من كلام طويل وأحاديث مفيضة.

وفي سرعة وَمْض الضوء وضعتنا كلماته الحكيمة الوجيزة أمام العمل بكل جوهره، وبكل قِيَمِه، وبكل أبعاده..

فالرجل الذي غبطه أصحابه على حيويته ونشاطه، وتمنَّوا لو بذل طاقته العارمة في سبيل الله اتخذ منه الرسول ومن المشهد كله مادَّة لبيان قضية العمل كلها.

فالعمل ليس بظاهره وشكله.. بل ببواعثه وغاياته.

وكل عمل وراءه العزم على اداء واجب، وفعل خير، فهو فى سبيل الله.

والإخلاص روح العمل.. فكل عمل يبتغى به صاحبه الرياء ويغشاه الضلال فى القصد وفى المسلك، فهو فى سبيل الشيطان.

والعمل الرشيد ليس هو الذى يَسدُّ فراغه ويؤدى دوره فحسب.. بل هو مع ذلك وقبل ذلك ـ الذى لا يعطى أحداً فرصة الكسل والتقاعس والعالة. بل يشد زناد الحركة والعمل والاهتمام لدى الآخرين.. وهذا ما يكشف عنه سرَّ التخصيص والتحديد فى قول الرسول ﷺ:

"إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً..

وقوله..

"وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين..

وقوله:

"وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعفُّها..

فتحديد الأولاد بالصغار، والأبوين بالعجزة الكبار.. بل وتخصيص الغاية فى السعى على النفس، بأن تَعفَّ عن المسألة وتُكفى مئونتها، لا أن تنتفخ بالمال، وتبطر وتختال.. هذا التحديد يشير إلى الحكمة الباهرة التى يدرك بها الرسول الكريم أذكى وأعمق خصائص العمل السديد والرشيد.

إن كل سعى على الأولاد ـ وإن كانوا كباراً ـ عمل مشروع ومقبول..

وكل سعى على الآباء والأمهات ـ وإن كانوا صغاراً ـ عمل صالح ومشروع..

وكل سعى على النفس ولو لطلب المزيد من الثراء والنّعمة، عمل مشروع..

فلماذا التخصيص فى هذا الحديث بالأولاد "الصغار" وبالآباء والأمهات "العجزة الكبار"..

ثم لماذا ربط السعى على النفس بالتعفف، لا بالاستكثار، ولا بالتبذُّخ..؟؟

إنها اللفتة الذكية الثاقبة نحو جوهر العمل النافع والعظيم.. فالعمل العظيم النافع، هو الذى لا يُفرز بخدماته أناسًا من المتبطلين والعاطلين الذين يعيشون عالةً على ما يقدمه عمل الآخرين من خدمة وعطاء..

والعمل النافع العظيم هو الذى يبتغى به الإنسان تحقيق الحياة الآمنة فى رزقها ـ لا

الحياة المترفة الطامعة الشرِهَة..

وإذا كان العمل ضرورة كل حَىٍّ وكل حياة، فحق الجميع إذن أن يعملوا .. وواجب الجميع أن يعملوا.. حتى الأبناء الذين يمكن أن يعولهم الآباء ـ عليهم أن يعملوا ما داموا كبارًا.. وحتى الآباء الذين يمكن أن يعولهم أبناؤهم، عليهم أن يعملوا ما داموا قادرين.. وهو مثل يُضرب لكل قادر على العمل من بنى الإنسان.

ويرتفع الرسول الكريم بالعمل الرشيد إلى مكانة مرموقة تسمو على كل ما يُعيده العمل علينا من منافع الدنيا ومباهجها وأرباحها.

فهو ليس وسيلةً للتقدم والنجاح ودعم الحياة وحسب.. بل هو فوق ذلك كله.. طاعة وعبادة وقُربى.. أجل ـ هو فى سبيل الله !!!

* * *

لقد أحب الرسول العمل وعشقه وداوم الحثَّ عليه والدفع إليه بشكل يبهر الألباب. والحق أن علاقة الرسول بالعمل وتقديره له، من أوضح أمائر التكامل المطلق فى شخصية الرسول العظيم..

فالرسول الذى دأبه النُسك والعبادة، والذى يحمل راية دين لا يعرف الدنيا إلا معبرًا للآخرة، يَحْفل بالعمل ويحتفى به حفاوة تكاد تجعله، بل هى تجعله نُسكًا وعبادة وفريضة من فرائض الدين..!!

والعمل الذى نتحدث عنه هنا ـ هو العمل عامَّة، والعمل فى شتى صوره ومجالاته.. والعمل فى الوظيفة، وفى التجارة، وفى الحقل، وفى المصنع.. فى الطب، فى التدريس، فى الهندسة.. فى كل ما يزاول الناس من عمل، وكل ما يمارسون من نشاط، وكل ما يحترفون من حرفة.. شريطة أن يتم فى نطاق الذمَّة والشرف والاستقامة والإتقان.

فالعمل الصالح الذى يتَسم بل يتشكَّل من كل عناصر الصلاح والخير هو الذى يعنيه الرسول حين يتحدث عن العمل..

وهذا العمل هو فى تعاليم الرسول وأحاديثه عصب الحياة وسِرُّ بقائها.. ومن ثم فهو واجب الأحياء حتى الرمق الأخير فيهم.. وهو حق الحياة حتى الرمق الأخير فيها..

ولست أعرف ولا أحسب غيرى يعرف أروع ولا أجمع ولا أزكى من هذا الحديث فى هذا المجال:

"إذا قامت الساعة، وفى يد أحدكم فَسيلةٌ فليغرسها"..!!

هاتوا كل ما كتب فلاسفة البشر وعباقرتهم عن توكيد الأمل وتقديس العمل فى الحياة، فلن تجدوا مثل هذا الذى قاله الرسول أبداً ..!!!!

إن الفَسِيلة هى الواحدة من صغار النخل تُقتطع من الأم أو تقلع من الأرض ثم تغرس فيها لتنمو بعد هذا وتكبر.

والرسول فى حديثه الباهر هذا، يقول للناس:

- إذا قامت القيامة بغتة، وكان أحدكم يتهيأ لغرس فَسيلَة، فلا يُلقها من يده لأن القيامة قامت، والحياة انتهت..

لا.. بل عليه أن يتم عمله ويغرس فسيلته كما لو كان موكب الحياة لا يزال يمضى ويهدر..!!

أى إيمان بالعمل هذا الإيمان..؟

وأى إذكاء لروح الأمل بعد هذا الإذكاء..؟

فى هذا الحديث النبوىّ الكريم يبدو العمل، وكأنه غاية ذاته.. فليس وسيلة لشىء، ولا يحدد غايته شىء آخر سواه.

فحتّى فى اللحظة المباغتة التى تعلن انتهاء الحياة، وتعلن قيام الساعة لتُجزى كل نفس ما عملت وما كسَبَتْ.. حتى فى هذه اللحظة الحاسمة الحازمة حيث لا يصير للعمل جدوى - لا سيما إذا تمثَّل العمل فى زرع نبتة، أو غرس فَسيلة، يوصى الرسول الجامع لكل حكمة، ولكل فضل أن نمضى فى العمل وكأن شيئًا ما لم يحدث.

أجل..

"إذا قامت الساعة، وفى يد أحدكم فَسيلَةٌ، فليغرسها"..!!!!

* * *

والعمل فى تعاليم الرسول كرامة.

"ما أكل أحد طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده.

"وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده"

فإذ تعمل وتكدح، ثم تأكل من عملك هذا وكدحك وعرق جبينك، فهذا نمط رفيع من أنماط الكرامة والشرف.

"ما كسب الرجل كسبًا أطيب من عمل يده"

وشرف العمل وكرامته يرجعان إلى ذات العمل وفضائله.. وليس إلى نوعه

أو درجته.

"لأن يأخذ أحدكم أحْبُلَه ـ أى حباله ـ فيأتى بحزمة من حطب على ظـهره فيبيعـها فيكُفَّ الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس ـ أعطوه أم منعوه"..

فإن يأخذ رجل حبلاً ليوثق به حزمة من حطب احتطبه وجمعه، فهذا عمل يبدو فـى أعين الناس تافهًا وصغيراً.

لكنه فى الموازين الصحيحة للعمل، جليل وعظيم لأنه جُهدٌ بُذل فى سبيل اكتساب رزق حلال شريف.

ولقد سئُل الرسول عليه السلام:

ـ أىُّ الكَسْب أطيب..؟

فقال ﷺ:

"عَمَلُ الرجل بيده وكل بيع مبرور"

وتركيز الرسول على "عمل الرجل بيده" إعلاء لشأن الحرف التى تبدو فـى أعيـن الناس شاقة أو مهينـة، وتزكيـة للحرفيـن والصنـاع الذيـن يمارسـون بأيديـهم المجـهدة والمجاهدة أعمالهم وما يصنعون.

وإن رسول الله ليزيد هؤلاء بَهاءً حين يقول:

"إن الله يحب المؤمن المحترف"

وحين يلقى واحداً من أصحابه ذات يوم ولا يكـاد يصافحـه حتـى يجـد فـى كفـه خشونة غير مألوفة، فيسأله الرسول:

"ما بالُ كفَّيك قد أمْجَلتَا؟؟

فيجيبه الصحابىُّ: من أثر العمل يا رسول الله..

فيرفع الرسول كفيه على ملأ من أصحابه ـ ثم يقبلهما ويُلـوِّح بـهما كأنـهما رايـة، ويقول مباهيًا بهما ومُطريًا لهما:

"كَفَّان يحبهما الله ورسوله"..!!!!

والحق أن حنان الرسول الكريم على الذين يعملون بأيديهم لا ينتـهى أبـداً. وإنـه ليرجو لهم كل مَثوبة وخير.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"مَن أمسى كالاً من عمل يده، أمسى مغفوراً له"

إن للرسول عليه الصلاة والسلام طريقته الفذّة فى السمو بالجهد الإنسانى دومًا إلى ما هو فوق كل مغانم الدنيا وعطاياها.

إنه يربط الجهد الإنسانى الكادح والنبيل بالجزاء الأوفى والعطاء الأبقى.. ثواب الله وعطائه.. فمع أن الذى يُمسى كالاً من عمل يده لا يُحرَمُ ثمار عمله وكدِّه، إلا أن الرسول الكريم يرنو دائمًا ويرجو دائمًا ما هو أبقى من هذه الثمار العاجلة وهكذا راح يبشر العاملين والكادحين:

"من أمسى كالاً من عمل يده، أمسى مغفوراً له"

فمغفرة الله ورضوانه هما المثوبة الباقية التى يبشر بها الرسول كل عامل وكادح.. وليس فقط ما يُفيئه العمل من ثمار وعطاء.

* * *

وإجلال الرسول للعمل، يساوى تمامًا مقته ورفضه للمسألة التى يُزجيها عدم العمل.. وكأنه ـ عليه السلام ـ فى زجره الشديد عن المسألة، إنما يدفع الناس إلى العمل بكلتا يديه، بوصفه ـ أعنى العمل ـ الوسيلة الوحيدة اللائقة بالمؤمن كى يحصل على رزقه وعيشه، وكى يُسهم مع العاملين فى عِمَارة الحياة.. وإنه عليه الصلاة والسلام لَيُدَمدِم على الذين يخلدون إلى البطالة والكسل، ثم يتسوّلون من جهود الآخرين ما يعيشون به فى مذلة وهوان.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من سأل الناس تكثُّرًا ؛ فإنما يسأل جمرًا ، فَلْيستقلَّ أو ليستكثر"

ويقول عليه السلام:

"المسألة كلُوح فى وجه صاحبها يوم القيامة"

ويبايع النبى أصحابه فيما يُبايعهم على ألا يسألوا الناس شيئًا. ويدرك الصحابة رغبة الرسول الكبيرة فى أن يعتمد أصحابه بعد الله سبحانه على أنفسهم وأن يواجهوا أمورهم بالتحمُّل والتجمُّل والصبر.

فيذهبون فى ترك المسألة مذهبًا بعيدًا.

يحدثنا أبو عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعى صاحب رسول الله فيقول:

"كنا عند رسول الله ﷺ، فقال:

"ألا تبايعون رسول الله..؟

"وكُنا حديثى عهد ببيعته.. فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله..

"فقال عليه الصلاة والسلام: ألا تبايعون رسول الله..؟

"فبسطنا أيدينا، وقلنا: علامَ نبايعك..؟

"فقال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا.. والصلوات الخمس.. وتسمعوا وتطيعوا.. ولا تسألوا الناس شيئًا..

"فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحدًا يناوله إياه"..!!!

لقد تحرَّجوا وتورَّعوا عن سؤال الناس إلى هذا المدى البعيد.. فإذا سقط سوط أحدهم وهو يركب ناقته أو دابته، نزل ليأخذه بنفسه، رافضًا أن يسأل أحد إخوانه أو أحد العابرين أن يناوله إياه.

ولا يجيز الرسول المسألة إلا فى الضرورات القاهرة..

ها هو ذا عليه السلام يوصى أبا بشر قبيصة بن المُخارق فيقول:

"يا قُبيصة.. إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة:

* رجل تحمَّل حمالة ـ أى أنفق ماله فى سبيل صلح بين فئتين متقاتليتن، أو فى ضمان أو دية ـ فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك.

* ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلَّت له المسألة حتى تصيب قوامًا من عيش.

* ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوى الحِجَى من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش.

"وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت.. يأكلها صاحبها سحتًا"..

إن الرسول عليه السلام، يخشى ويُحاذر أن يعتمد فريق من الناس على المسألة ويتركوا العمل.. وليست المسألة المنهى عنها هى تلك القاصرة على صورة التسول المعروفة.. فهذه أدنى صور المسألة وأشكالها.. ثم لها بعد ذلك صُور شتَّى وأشكال كثيرة.

وكلها هوان نعوذ بالله منه.. هوان لا يريده الرسول الكريم للمؤمنين أبدًا.

يقول عليه السلام:

"اليد العليا خير من اليد السفلى

"والعليا هى المنفقة.. والسفلى هى السائلة"

ويقول عليه السلام:

" .. فاستعِفَّ عن السؤال، وعن المسألة ما استطعت" ..

ويقول:

"ومن يَسْتَعِفَّ، يُعِفَّه الله ومن يستَغْنِ، يُغنه الله، ومن يتصبَّر، يُصبِّره الله" .

وحتى لا تكون المسألة استجابة لشره النفس ورغبتها فى احتواش المزيد من أى سبيل، يهيب بنا الرسول عليه صلاة ربنا وسلامه أن نجعل القناعة والأناة على رأس فضائلنا، ويعلِّمنا أن كرامة النفس خير وأبقى.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس"

وفى حديث جليل يقول لنا عليه السلام:

"عش ما شئت، فإنك ميِّت..

"واعمل ما شئت؛ فإنك مَجْزِىٌّ به..

"وأحبب من شئت، فإنك مفارقه..

"واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل.

"وعِزُّه استغناؤه عن الناس"

فعز المؤمن فى استغنائه عن الناس، ليس الاستغناء الذى يعنى اعتزالهم والتخلِّى عن مشاركتهم أخذًا وعطاء.. بل الاستغناء الذى يعف النفس عن كل تطلع غير كريم..

"قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنع" ...

وارتباط النهى عن المسألة بالدعوة للعمل فى تعاليم الرسول يعنى أن غياب أحدهما يؤكد وجود الآخر.

فالذى يؤثر الفراغ والكسل والتبطل، لن يجد أمامه شاء أم أبى سوى سبيل المسألة والاقتراض والتهالك فى هوان وشِقْوَة..

والذى يجد العمل ويعمل ويكدح ويجنى ثمار عمله تعفَّ نفسه، وتعلو يدُه، ويحيا حياة طيبة وكريمة.

من أجل هذا كان البديل الصحيح لحياة الفقر والمسألة والشَّظف هو العمل.. ثـم المزيد من العمل.

ولْنُصغ إلى "أنس" رضى الله عنه يحدثنا فيقول:

"جاء رجل من الأنصار إلى النبى ﷺ فسأله..

"فقال النبى: أما فى بيتك شىء..؟

"قال: بلى.. حِلْس ـ أى كساء غليظ ـ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْب نشرب فيه الماء..

"قال الرسول: ائتنى بهما..

"فأتاه بهما فأخذهما الرسول بيده، وقال: من يشترى هذين..؟

"قال رجل: أنا آخذهما بدرهم.

"قال رسول الله: من يزيد على درهم..؟

"قال رجل: أنـا آخذهما بدرهمين.. فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال: اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُومًا وائتنى به، فأتاه به فشَدَّ الرسول فيه عودًا بيده ثم قال: اذهب فاحتطب وبع ولا أرَيَنَّكَ خمسة عشر يومًا.

"ففعل، وجاء وقد اصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا. وببعضها طعامًا.

"فقال رسول الله: هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة"

فالعمل كان البديل الفورى الذى دفع الرسول السائل إليه فأفاء الله عليه بركة العمل خيرًا كثيرًا ووفيرًا.

وبركة العمل لا تجىء من الجهد المبذول فيه وحسب.. بل تجىء قبلاً من رضوان الله، ومن تكفُّله بإنجاح كل عمل طيب وكل كدح شريف.

فالله سبحانه يعد عباده العاملين وعدًا كريمًا وناجزًا إذ يقول فى قرآنه العظيم:

﴿ لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَى بَعضُكُم مِن بَعض ﴾

لذلك، ولكي تظلَّ رحمة الله وتوفيقه قريبين منا ونحن نعمل، يوصينا الرسـول عليـه السلام بواجبات العمل وآدابه..

وأولها ـ الإتقان ..

يقول عليه السلام:

"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه"

وإتقان العمل لا ينفصل عن العمل.. بل إن إتقان العمل هو العمل ذاته.

فالآلة التى تصنعها أو تصلحها بغير إتقان، يمكن أن تؤدى إلى كارثة ـ كان الخير ألاَّ تصنعها أو ألاَّ تصلحها..

وإن كل تقدم صناعى أو علمى ـ أو حضارى بصفة عامة، لا يرجع إلى ما تقـوم بـه الأمة المتقدمة من أعمال بقدر ما يعود إلى الإتقان الذى تُنجَز به هذه الأعمال.

وعدم إتقان العمل ـ أىَّ عمل ـ يجاوز صفة الإهمال إلى جريمة الغش.

وهنا يقول الرسول عليه السلام:

"مَن غَشّنا فليس مِنَّا"

ولقد كان الرسول دائم الدعاء إلى الله:

"اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل"

وعلّمنا أن نضرع بهذا الدعاء دومًا.. لأن العجز والكسل لا يقعـدان بالنـاس عـن العمل فحسب.. فكثيرًا ما يجد الناس أنفسهم مضطرين لأن يعملوا لكـى يعيشـوا.. إنمـا خطر العجز والكسل فى أنهما يقعدان بنا عن الرنُـوّ إلـى الكمـال المسـتطاع والطمـوح الخيِّر الذى يحضُّنا على إجادة أعمالنا وإتقانها.

* * *

ويدعونا الرسول إلى جانب إتقان العمـل إلـى الإقبـال عليـه فـى حيويـة ونشـاط وشغف.. من أجل هذا يوصى بالبكور فى السعى إلى العمل ويبشرنا بأن هذا البكور سبيل إلى وفرة الرزق وبركته..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"اللهم بارك لأمتى فى بُكورها"

ثم يقول:

"باكِرُوا الغُدُوَّ فى طلب الرزق، فإن الغدُوَّ بركة ونجاح"

وتخبرنا السيدة "فاطمة الزهراء" بنت الرسول عليه وعليها صلاة الله وسلامه - أن الرسول زارهم ذات يوم صبحًا فوجدها مضطجعة فناداها:

"يا بُنَيَّة، قومى اشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين"

أجل.. فكل الأعمال.. حتى أعمال المنزل العادية يطالب الرسول بحقها فى البكور وفيما يُفيئه البكور من حيوية وتفتح ونشاط..

من أجل هذا، كان الرسول يكره لأصحابه أن يناموا بعد صلاة الفجر، وكان يدعوهم أن يواصلوا اليقظة والصحو حتى يشهدوا بواكير النهار، ويُدْلفوا إلى أعمالهم ناشطين مُوَفَّقين.

* * *

ويعلمنا الرسول عليه السلام أن نمارس العمل فى حكمة وأناة وتعفُّف. فالتهالك والإفراط خوفًا من فوات رزق، أو طمعًا فى ما ليس لنا بحق، يفسد العمل ويُغَشِّيه بغواشى الحرص والشَّرَه.

"يا أيها الناس، اتقوا الله وأجْمِلوا فى الطلب، فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبْطأ عنها.

"فاتقوا الله وأجْمِلوا فى الطلب"

"خذوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حُرِم"..

هكذا ينادينا الرسول ويعلمنا.. إن الرزق يبحث عنا بقدر ما نبحث عنه.. ولن تموت نفس حتى تستوفى رزقها المقدور وأجلها المعلوم - فالتهالك والطمع والأنانية لن تزيد رزقك شيئًا.. إنما تُفقدك سكينة النفس وشرفها وكرامتها، كما تفقد العمل بهاءه ونقاءه.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"وإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا ينالُ فضله بمعصية"

هنا يضع الرسول العمل فى إطاره السوى الصحيح.. فكثيرًا ما تجمح بنا الرغبة فى تحسين دَخلنا إلى البحث عن المال من أى طريق.. وفى أى عمل.. وفى سبيل ذلك كثيرًا

ما نزحم جهدنا بأعمال مُبْتسرة وغير مُتقنة.

يعلمنا الرسول ألا نستبطئ الرزق، وإن استبطأناه فلْنُحاذر أن نتعجله بوسائل غير مشروعة، لأننا بهذا نُعرض أنفسنا لمقت الله.

إن أكثر ما يحرص عليه الرسول الكريم وهو يحض على العمل ويدعو إليه - أن نمارس أعمالنا فى قناعة وشرف.. وألا نجعل العمل يستعبدنا نُشدانًا للمزيد الطاغى من الثراء أو الجاه، أو النجاح.

يقول عليه السلام:

"إن الغنَى ليس عن كثرة العَرض، ولكن الغِنَى غِنَى النفس"

ويقول:

"إن الرزق ليَطلُب العبد، أكثر مما يطلبه أجلُه"

ويحدثنا "أبو ذرّ" صاحب رسول الله. فيقول:

"جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية - ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ - فجعل يرددها ويقول: يا أبا ذر.. لو أن الناس أخذوا بها لكَفَتْهُم"

والعمل عند الرسول لا ينفصل عن فضائله أبداً.. وفضائل العمل لا تتمثل فى طريقة ممارسته فحسب.. بل وفى النية التى تدفعنا إليه، والغاية التى نرجوها منه.. والعمل - أى عمل - يفقد روحه إذا فقدنا النُبْل فى نواياه وأغراضه.. وآنئذ يصبح العمل عبئًا ثقيلاً، وروتينًا كريهًا، ويُحرم البركة والسكينة:

يقول عليه السلام:

"من كانت الدنيا هَمَّه، فرَّق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له"

إننا مطالبون بعمارة الحياة. ولكن ليس معنى هذا أن نتحول إلى أطماع مسعورة لا نعرف سوى الدنيا داراً.. وتنحصر اهتماماتنا فى أنفسنا وحدها ومصالحنا وحدها..

إن العمل فى هذا الطريق المسدود يُحرَم عون الله وتوفيقه.

أما العمل الذى يتوخى الخير العام مع خير صاحبه، وتَحفزُه النوايا الصالحة، لا

الأنانية المغلقة، فهو الجدير بحب الله ورعايته..

يقول عليه السلام:

"من لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم

"ومن لم يُصْبح ويُمْس ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامَّة المسلمين، فليس منهم".

فالعمل الذى تنحصر اهتماماته فى صاحبه وحده عمل مبتور.

وكلما كثرت اهتمامات العمل وتَفتحت على آلام الآخرين وآمالهم، كان فى ذلك سداده ورشاده.

* * *

من أجل هـذا يجـب أن نمـارس أعمالنـا بعيـداً عـن التنافُس الحـاقد والسّباق المجنون، يقول الرسول:

"لا يَبغ بعضُكم على بعض"

فكل مُزاحمة غير مشروعة لأخيك فى العمل ـ تجارة كان أم صناعة، أم وظيفة، بغى عليه.

ويقول عليه السلام:

"لا يَبعْ أحدكم على بيع أخيه"

إن أرض الله واسعة، ورزقه أوسع ـ فمنافسة الآخرين بحيث يلحقـهم الأذى والضـر تُفقد العمل مروءته وشرفه..

* * *

ويُتابع رسولنا الكريم خصائص العمل الرشيد وفضائلـه وآدابـه فـى كـل مجالاتـه وحِرَفه.

فالعمل فى التجارة ـ مثلاً ـ آفته الكذب، والغش والأنانية والطمع ـ فيُزيح الرسـول كل هذه الآفات بتعاليمه ووصاياه.

وينادى التجار إلى خير ما يزكّيهم يزكى أموالهم وأعمالهم عند الله وعند الناس..

فيقول ﷺ:

"إن أطيب الكسب، كَسْبُ التجار:

* الذين إذا حدّثوا، لم يكذبوا
* وإذا ائتمنوا، لم يخونوا
* وإذا وَعدوا، لم يُخلفوا
* وإذا اشتَروا، لم يَذُمّوا
* وإذا باعُوا، لم يَمدَحُوا
* وإذا كان عليهم، لم يَمْطُلوا
* وإذا كان لهم، لم يُعَسّروا

عليك صلاة الله وسلامه يا خير المعلّمين..!!

إن العمل فى التجارة يبلغ شأوَهُ العظيم حين تصبح هذه صفاته وأخلاقه.

والتاجر الذى يحقق هذه الخصال، يبشره الرسول أكرم بُشرى فيقول:

"التاجر الصّدوق الأمين مع النبيين والصّدّيقين والشهداء والصالحين يوم القيامة"

أما حين يتخلّى التجار عن فضائل عملهم وواجباته فإنهم يمحقون بهذا أنفسهم وأعمالهم وأموالهم ـ وفى هؤلاء يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

"إن التجار، هم الفُجّار"

قال أصحابه:

ـ يا رسول الله. أليس قد أحل الله البيع..؟

قال الرسول:

"بلى.. ولكنهم يُحلفون فيأثمون ويُحدّثون فيكذبون"

فأخلاق العمل التجارى تزكو بالصدق، وتزكو بتجنب الحلف الذى يُروّج به التجار بضاعتهم.

يقول عليه السلام:

"خاب وخَسِر ـ المنفق سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذب"

ولقد خرج ﷺ يومًا على أصحابه وهم يتبايعون فقال:

"يا معشر التجار..

فرفعوا إليه أبصارهم وأعناقهم مُصْغِين إلى نداء الرسول وكلماته..

واستأنف النبى حديثه إليهم قائلاً:

"إن التجار يُبعثون يوم القيامة فُجّارًا ، إلاّ من اتقى الله، وبَرّ، وصدَق"

ويحذر الرسول التجار قائلاً:

"إياكم وكثرة الحلف فى البيع، فإنه يُنفّق، ثم يَمْحق.."

أى أن الحلف قد يساعد التاجر فى بيع بضاعته، ولكنه لما يسببه من غضب الله سبحانه يمحق ذلك الربح وينزع منه بركته.. لهذا يقول الرسول:

"ويل للتاجر من (بلَى والله..) و(لا والله).

ويقول عليه السلام:

"رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع..

وإذا اشترى.. وإذا اقتضى.."

وفى التجارة يكون إغراء الحرام ضاريًا.. وتذهب النفس مذهبًا بعيداً فى اهتبال هذا الحرام إذا كانت طالحة.. وإذا كانت صالحة فقد يغشاها الضعف فتذهب تحتال. وتحاول أن تكسو الحرام كِسَاء الحلال.

وهنا يرسل الرسول نذيره:

"إياكم والشُبُهات..

"من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه..

"ومن حام حول الحمَى، يُوشك أن يقع فيه"

ولقد وعى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما لتوجيهات الرسول هذه من قيمة، فكان يدعو التجار أن يتفقّهوا فى الدين حتى يعرفوا حلال الأمر من حرامه.

وكان رضى الله عنه يقول:

"لا يَبِعْ فى سوقنا إلاّ من تفقّه فى الدين"

* * *

وحين يكون العمل فى مجال الصناعة، نرى الرسول ﷺ يرسم له فضائله وتبعاته.

"ويل للصانع من (غَدٍ) و (بعد غد)"!!

هذه أولى آفات الصناعة والصانع.. غدٌ الذى لا ينتهى، والذى يتمادى ويتمطّى حتى يصير شهورًا ..!!

فهنا كما فى أى عمل آخر، يصبح الصدق ضرورة، واحترام الكلمة والموعد

المضروب واجبًا وشعيرة..

والصناعة قوامُها الإجادة والإتقان..

وهنا يقول الرسول حديثه المضيء:

"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه"

وفى الصناعة أكثر من غيرها يكثر الأجراء الذين يعتمدون فى معاشهم على أجرهم اليومى أو الأسبوعى.

وهنا يقول الرسول عليه السلام:

"أعطوا الأجير أجرَه، قبل أن يَجِفَّ عرقُه"

أى تعبير يمكن أن يحمل من السمو والرحمة والمعدلة ما تحمله هذه الكلمات الحانية الوجيزة:

"قبل أن يَجِفَّ عرَقُه"..؟!!

إن رحمة الرسول تعظُمُ دائمًا وتزداد كلما كان المقام مقام ضعف وضعفاء.

ولطالما كان يقول:

"ابْغونى ضعفاءكم

"فإنما تُنصرون وترزقون بضعفائكم".

أجل.. إنهم الضعفاء مالاً.. والضعفاء حالاً ـ أولئك الذين يقفون وراء المحراث فى الحقل، ووراء الآلة فى المصنع، ووراء المدفع فى الميدان.. والذين بجهادهم يُحرَز النصر، وبجهدهم وعملهم يجىء الإنتاج والرزق..

"إنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم"

* * *

وحين يكون العمل فى مجال الزراعة يبدأ الرسول ﷺ بالحضّ على الجهد المبتكر الخلاّق؛ فهو عليه الصلاة والسلام يكافئ من يسبق إلى أرض مواتٍ مهملة، فيصلحها ويعمرها ويحولها إلى أرض زراعية خضراء مُعطية ـ يكافئه بأنه يجعل الأرض له.

يقول عليه السلام:

"من أحيا أرضًا مَيْتةً فهى له"

ويقول: "مَن عمر أرضًا ليست لأحد؛ فهو أحقُّ بها"

ويهتم الإسلام بالعمل الزراعى، حتى إنه ليُجيز أخذ الأرض ممن يهمل أمرها ولا يزرعها ويستثمرها.. إلى جوار هذا يرفض الرسول أى عدوان على الغير.

إن تجاور الأراضى المزروعة وتلاصقها كثيراً ما يثير النزاع والخصومة حين يحاول الجار أن يختلس من أرض جاره ما ليس له بحق.

وفى هذا يقول الرسول محذراً:

"من ظلم قيدَ شبر من الأرض طوِّقه إلى سبع أرضين" إن الجزاء من جنس العمل..!!

والزارع الذى لم يقنع بأرضه، فراح يلتهم من أرض جاره بضعة أشبار، يُجازيه القدر جزاء ساخراً..

لكأنه يقول له: أتريد المزيد من الأرض..؟ خذ ما تريد من سبع أرضين، لا من أرض واحدة..؟!!

يقول عليه السلام:

"من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه طوِّقه من سبع أرَضِين".

ولقد سئل الرسول يومًا:

- أى الظلم أظلم..؟

فقال عليه السلام:

"ذراع من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه وما من حَصاة من الأرض يأخذها إلا طوِّقها يوم القيامة إلى قعر الأرض"

إن فى مثل هذا العمل المنكر عدوانين..

عدوانًا على ملك غيره..

وعدوانًا على حق جاره..

ويزداد هذا المعنى وضوحًا فى قول الرسول:

"تجدون الرجلين جارين فى الأرض أو فى الدار، فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعًا.. فيُطوِّقه من سبع أرضين"..

* * *

ويُبشِّر الرسول العاملين فى حرث الأرض وزراعتها بأجر آخر يأتيهم من حيث لا يحتسبون، فيقول عليه السلام:

"ما من مسلم يزرع زرعًا، أو يَغرس غرسًا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة".

ولقد رأينا من قبل حفاوة الرسول ببناء الحياة حين ضرب لهذا مثلاً بفسيلة النخيل فقال:

"إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها"..

* * *

وحين يكون العمل فى مجال الوظيفة، يحدثنا الرسول حديثًا جامعًا ويبدأ الرسول الكريم فيعلمنا أن كل شاغل وظيفة إنما هو فيها راع لأمانتها وراع لمصالح الناس فيها.

"كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته"

إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسرّ الباهر الذى تحمله، والحكمة الثاقبة التى تمنحها..

والحديث الذى نتلوه الآن من هذا النمط الرفيع الذى نردده بألسنتنا دون أن ننفذ إلى أعماقه الزاخرة الباهرة.

"كلكم راع..

وكل راع مسئول عن رعيته"

ليس هناك كلمات تضع مسئولية الفرد الإنسانى فى مكانها الصحيح مثل هذه الكلمات.

أجل.. إنه ليس الراعى هو الحاكم وحده.. وليست المسئوليات الضخمة التى يحسب لها حساب، هى مسئوليات الحكام الكبار وحدهم.. بل إن لكل مسئولية أهميتها وقدرها فى ميزان العمل والجزاء.. وأيضًا فإن لكل عامل ومسئول أهميته وقدره فى ميزان الحياة وعالم الأحياء.

"كلكم راع...."

وكل إنسان يشغل وظيفة، فهو راع لا تقل مسئوليته ولا تقل أهميته عن الراعى الأول فى الجماعة والأمة وهو الحاكم.. لأن أهمية الحاكم وخطر مسئولياته إنما هى فى الحقيقة مجموع أهميّات ومسئوليات الرُعاة الآخرين.. العاملين والموظفين من أدناهم شأنًا إلى أعلاهم منصبًا.

"وكل راع، مسئول عن رعيته"

وكل إنسان فى محيط عمله، كَبُر أم صَغُر.. مسئول عن كافة المصالح التـى ائتُمن عليها .. مصالح الناس الذين عليه أن يرعاهم ويرعى قضاياهم بضمير يقظان.

إن حوائج الناس تظفر من قلب الرسول ومـن تعاليمـه وهديـه بـالحظ الأوفـى مـن الحنان والإكبار..

"من وَلاّه الله شيئًا مـن أمـور المسـلمين فـاحتجب دون حاجتـهم وخلّتـهم وفقرهم ـ احتجبَ الله تعالى دون حاجته، وخَلّتِه وفقره يوم القيامة"

لننظر إلى قوله عليه السلام "شيئًا" ..

"مَنْ ولاّه الله شيئًا"

إنها تدلنا على ما للمسئولية مهما صَغُرَت من رهبة وحساب فأى عمل ـ وأى شـىء يناط بك عمله، تتساوى مسئوليتك عنه بالأعمال الكبار والمسئوليات الجسام ـ لا سـيما إذا كان هذا العمل، أو هذا الشىء موصول العُرَى بحوائج الناس.

لقد رأينا أن كل مسئول عن وظيفة أو عمل، إنما هو راع مسئول فلنقرأ الآن هـذا الحديث:

"ما من عبد يسترعيه الله رَعيَةً يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيتـه، إلاّ حـرَّم الله عليه الجنَة"

هكذا ترسم الأحاديث الكريمـة النبويـة شـخصية العمـل الوظيفـى ـ إنـه رعايـة، وصاحبه راع، وكل راع مُحاسب ومسئول.

* * *

وتتتبّع أحاديث الرسول بعض صفوف هؤلاء الرُعـاة والعـاملين الموظفيـن، مُبشّرة محسنيهم، ومُحذّرةً المسيئين.

وشرُّ هؤلاء هم الذين يأكلون حقوق الناس ويفسدون عليهم حياتهم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن شرَّ الرُعاء الحُطمة"

والرُعاء هم الرُعاة..

والحُطمة.. هو الذى يأكل ما ليس له بحـق، ويُفسـد فـى الأرض، ويُسـبّب للنـاس الأزمات والمشكلات..

ثم تضع الأحاديث النبوية بعض هؤلاء تحت المجهر والضوء.

الأمراء والعُرَفاء، والأمناء، والشرطة وجُباة الأموال والضرائب، وآخرون.. فتحدد أحاديث الرسول ﷺ الذين يزيغون عن الحق من هؤلاء، ويركبون هواهم، ويستسلمون لغرور سلطانهم..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"ويل للأمراء.. ويل للعرفاء.. ويل للأمناء..

ليتمنَّينَّ أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم مُعلَّقة بالثُّريَّا، يتذبذبون بين السماء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء".

فالنَّمط الرديء من الأمراء، والعرفاء وهم رؤساء الجماعات والأعمال، والأمناء على الأموال ومصالح الناس.. ينتظرهم جزاء جنوحهم عن الحق عذاب شديد.

ويحدثنا المقداد بن مَعْد يكرب رضى الله عنه فيقول:

"ضرب رسول الله ﷺ على مَنْكبى، ثم قال:

أفلحتَ يا قُدَيم إذا متَّ ولم تكن أميرًا ولا عريفًا"

ويقول الرسول لصاحبه؛ "أبى ذَرّ" رضى الله عنه:

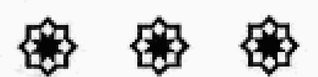
"يا أبا ذرّ"..

"إنى أراك ضعيفًا، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى

"فلا تأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تولينَّ مال يتيم"..

* * *

إن الرسول ﷺ الذى تلقَّى من ربه كتابه الحكيم.. هذا الكتاب الذى لا يذكر الإيمان - على كثرة ما يذكره - إلا مقرونًا بالعمل الصالح، لَهُو أكثر العالمين إدراكًا لدور العمل وقيمته وأوفى العالمين ذمَّة لواجباته ومسئولياته..



الفصل التاسع

عن الصداقة والصحبة..

قال عنه ربه جل جلاله، وهو يقدمه للناس ويَمُنُّ به عليهم:

﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رءوفٌ رحيم ﴾

وأراد عليه صلاة الله وسلامه أن يعرفنا بجوهر رسالته، ويرفعنا إلى مستوى الإدراك السديد لدعوته، فقال:

"إنما بُعثت لأتمِّمَ مكارم الأخلاق"

فالرسول الحريص علينا، الرحيم بنا، يعلم أن خيرنا كله ماثل فيما بُعث من أجله ـ مكارم الأخلاق.

وعلى رأس مكارم الأخلاق، يجيء "حسن الصحبة"

ولستُ أعرف فى أدب الصحبة وحقوقها أروع ولا أجمع من قول الرسول الكريم:

"إن الله يسأل عن صُحبة ساعة"

صحبةُ ساعة.. لقاءٌ عابر مع إنسان آخر يُشكِّل موقفًا يسألنا الله عنه..!! هذا إجلال للصحبة ليس له نظير..!!

والصحبة فى تعاليم الرسول تبدأ بالنفس فنحن لا نصاحب أحدًا أبدًا أكثر ولا أطول مما نُصاحب أنفسنا ؟

من أجل هذا، تبدأ حقوق الصحبة والتزاماتها بنوع علاقتنا بأنفسنا.

كيف نُصاحب أنفسنا، وكيف نصادقها، وكيف نتعامل معها..؟ يقول عليه السلام:

"ابدأ بنفسك"

فحين نكون أصدقاء طيبين لأنفسنا، نكون أو نصير أصدقاء طيبين للآخرين.. والصحبة الأمينة الصالحة للنفس، تتمثل فى ألاّ نشقّ عليها، أو تَشُقّ علينا.. أى أن يمضى الإنسان بنفسه على صراط مستقيم ـ صراط الله وهَدْيه ونوره..

والتدريب الحقيقى لآداب الصحبة، يبدأ بترويض النفس وتعليتها.. هذا العمل المجيد الذى أعطاه الرسول وصفه الحق حين قال لأصحابه:

"رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس"

وجهاد النفس الذى يتم بعيداً عن مُناخ الصداقة لها والصحبة معها كثيراً ما يزيدها ضلالاً وإباقًا.

فتعذيب النفس واضطهادها، والاعتماد فى ترويضها على القسوة والقسْر، كثيراً ما يُفضى إلى المزيد من تُمرُّدها - يقول عليه الصلاة والسلام:

"عليكم بالرفق، فإن الرفق خير كله"

"ما كان الرفق فى شىء إلا زانه.. ولا نُزع الرفق من شىء إلا شانه.."

وينهانا عن أن نَغْلُوا فى الدين والعبادة:

".. فإن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهراً أبقى"

ويأمرنا بالقصد والاعتدال والأناة فى ترويض أنفسنا، وفى تعبُّدنا، وفى أمرنا كله.

يقول عليه السلام:

"القصد والتُّؤَدَة وحسن السمت، جزء من خمسة وعشرين جُزءًا من النبوة"

وكثيراً ما يُعبِّر الرسول عن النفس تعبيراً يُوحى بالحنان ويوصى بالرفق، إذْ يقول:

".. نَفْسُكَ التى بين جَنْبَيْكَ"!!

أجل. وهل هناك ما هو أقرب إليك وألصق بك مما هو بين جنبيك؟ وإذا كان أول واجبات الصحبة أن تكون صادقًا مع صاحبك وناصحًا أمينًا له؛ فإن هذا أيضًا هو أول واجباتك تجاه نفسك.

وفى هذا يقول الرسول:

"الكيِّس من دان نفسه، وعَمِل لما بعد الموت..

والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانىّ".

فمحاسبة النفس فى غير إذلال، وتقويمها فى غير قتال - هو أول ما تفرضه عليك حقوق صحبتها ومعايشتها..

أما تركها فى هواها، وترك النُّصح لها. فخيانة لها ولحقوق الصحبة معها.

والموازنة بين التسامح والمؤاخذة، وبين الرفق والضغط - هى أكثر ما تستقيم به الصحبة مع أنفسنا ومع الآخرين.

ولما كان الناس أسرع ميلاً بالطبع إلى الشدة والغلظة. جاءت وصايا الرسول بالرفق كثيرة ومُباركة..

"إن الله رفيق يحب الرفق، ويُعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يُعطى على سواه"

إن الرسول الكريم إذ يضع "العُنف" مقابلاً "للرفق" إنما ينبهنا إلى أن أى انزلاق يبعدنا عن الرفق، سيوقعنا من فوره فى نقيضه ـ العنف ـ كما يُوقعنا فى نقيض آخر له، هو الحماقة والخُرْق..

يقول عليه السلام فى حديث آخر:

"إن الله عَزَّ وجَلَّ ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخُرْق"

ثم يدلنا على حصيلة كل من الرفق والخُرق فيقول:

"الرفق يُمن، والخُرق شؤم"

وإنه عليه السلام لا يجعل الرفق خُلقًا وفضيلة فحسب.. بل هو سِمَةُ أمته وعلامتها المميِّزة..

يقول عليه السلام:

"إنما بُعِثتم مُبَشِّرين، ولم تُبعثوا مُعسِّرين"

وتصف السيدة عائشة رضى الله عنها النهج الدائم للرسول، فتقول:

"ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيْسَرَهُما، ما لم يكن إثمًا.. فإن كان ثَمَّ إثم كان أبعد الناس منه"

* * *

وحين تحسنُ صحبة الإنسان لنفسه وتَستقيم، تحسُن وتستقيم صحبته للآخرين.

وهنا تعلمنا أحاديث الرسول إلى أن أولى الآخرين بُحسن الصحبة هم الأهل والأقربون.

فالأقربون أولى بالمعروف لأن لهم حَقّيْن. لا حقًا واحدًا.. حق الرَّحم، وحق الصحبة. والإنسان الذى لا خير فيه لأهله، لا خير فيه لغيرهم.

ومن هنا يؤكّد الإسلام على صلة الرحم.. ويستوصى بها الرسول خيراً، ويوصى بها فى حفاوة بالغة.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من سرَّه أن يبسط الله تعالى له فى رزقه، وأن يَنْسأ له فى أثَره - أى أجله - فلْيَصِلْ رَحِمَه".

* * *

ومن الأهل والأقربين، يبدأ الرسول ﷺ بحقوق الصحبة بين الزوجين فليس هناك مُعايشة أطول وألصق من معايشة الزوجين.

وأوسع مجال لتدريب النفس على فضائل الصحبة والتزاماتها - هو هذا المجال. فالذى يُخفق فى إضفاء المودة والاحترام على حياته الزوجية والعائلية، يكون أكثر إخفاقًا فيما وراء ذلك.

من أجل ذلك، ولما للحياة الزوجية من حُرمة وجلال - تعطيها أحاديث الرسول وتوجيهاته الكثير الطيب من الاهتمام.

"لو كنتُ آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها"

ويدعو الأزواج لحسن الصحبة مع الزوجات فيقول:

"استوصوا بالنساء خيرًا"

ويقول عليه السلام:

"لا يَفْرَكُ - أى لا يكره - مؤمن مؤمنة..

إن كرهَ منها خُلُقًا، رضى آخر".

إن الرسول يضع على كاهل الرجل واجبات كثيرة ليؤدى حقوق الصحبة مع الزوجة أفضل أداء.

"أكمل المؤمنين إيمانًا، أحسنُهم خلقًا.. وخيارُكم خياركم لنسائهم".

هكذا يعلمنا الرسول، ويدعونا إلى التأسِّى به حين يقول:

"خيركُم خيركم لأهله.. وأنا خيركُم لأهلى".

* * *

وتنقلنا أحاديث الرسول إلى أوسع رحاب الصداقة والصحبة.

ولما كان الصَّديق والصاحب هو الوجه الآخر لنا والعنوان الدالُّ علينا؛ فإن أوَّل ما يدعونا إليه الرسول - أن نُحسن اختيار صحابتنا وأصدقائنا.

يقول عليه السلام:

"المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل"

ومن كتابنا "الوصايا العشر" أنقل هذه السطور.

- "إن اختيار الصديق يشكل فى حياتك أهمية بالغة. ذلك لأن كُلاً منا تفتقد حياته جوانب يتمنى إدراكها.

وكل منا يودُّ لو استطاع أن يختار حياته.. أما وذلك غير ممكن فإننا نلتمس العوض عند أصدقائنا، فنختار منهم الذين نستطيع أن نستدرك بهم ما فات حياتنا من فرص الخير والتفوق.

ذلك أن الصديق بحياته وبفضائله يصير امتداداً لك وتتمّة..

وإن حياتك لتتأثر به، وتنعكس عليها كل مناقبه ومزاياه.

فإذا اخترته وأحسنت اختياره، كنت كأنك اخترت حياتك من أولى لحظاتها، فمزاياه التى تنقصك، تصبح ملكًا لك.. والفضائل التى ضاعت منك فى زحام الحياة، تعود إليك مع هذا الصديق.

والحياة السامقة التى كنت تود أن تحياها وتكونها تقترب منك إذا أخذت صديقك على غراره ومن طرازها..

لا تختر الصديق لثرائه ولا لجاهه؛ فالحياة كثيرًا ما تسخر من أصحاب هذا الاختيار بأن تخبئ لهم فى الطريق خيبة أمل عريضة تفاجئهم بها فى قهقهة وشماتة.

إنما عليك أن تختار الصديق لثراء روحه، ووجاهة خصاله، وأناقة نفسه، ووثاقة خُلقه، وتماسك بنيانه.

لا تختره مهذارًا ثلأبًا. يُسلّيك بالتندر على الناس، فهذا هو الذى يهبط بحياتك إلى الحضيض.. والذى يقول اليوم "لك" ليضحكك.. سيقول غداً "عنك" فيبكيك!!

لا تختره حاقداً - شعار حياته: سحقًا للناجحين؛ فإن العواطف مُعدية.. وصحبتك لهذا التعس تجعلك مثله تعسًا.

لا تختره من الذين يرون الحياة لهوًا ولعبًا.. وسيجارًا وكأسًا؛ فإن الحياة فى صحبة هؤلاء تتحول إلى نفاية ويباب: بل اختر الصديق الذى يرى فى نجاح الآخرين نجاحًا له وحُسن ثواب.

اختر دافئ اللسان، عفَّ النفس، ريَّانَ الضمير.

اختر من لحياته قيمة - بما يبذل من جهد.. وبما يحمل من واجب.. وبما يُمارس

من دَور عظيم.. "أهـ

ومن نفس الكتاب [١] ومن ذات الموضع ننقل هذه السطور:

"من مادة لغوية واحدة، جاءت كلمتا "صدق" و "صداقة".. وكلمتا "صادق" و "صديق".. والصداقة التى هى أغلى مِنَح الحياة ـ تمتزج امتزاجًا بالصدق الذى هو أسمى فضائل الحياة..

لا تصدق أنك تستطيع الحياة بغير أصدقاء، ولا تصدق اليأس حين يلقى فى روُعك أن الصداقة أسطورة.. وأن الناس ـ جميع الناس ـ ذئاب!!

وليس عليك لكى تكتشف مزايا الصداقة وحتميتها ولكى تعلم أن الأصدقاء فى الدنيا كثيرون.. ليس عليك لتبلغ هذا إلا أن تبدأ أنت فتكون صديقًا طيبًا.

جرد من نفسك قاضيًا على نفسك وأدنْها قبل أن تقف من الآخرين قاضيًا وديّانًا.. فإذا بدا لك منها قصورها وتقصيرها.. وإذا تبينت أنه ينقصك الكثير من خصال الصديق وسماته؛ فاعلم أنه من هنا غُمّت عليك رؤية الصداقة ورؤية الأصدقاء، وابدأ بنفسك، وكن صديقًا طيبًا..

وابدأ هذه البداية بأن تعرف: ما الصداقة..؟ الصداقة سلوك تعبر به النفس عن حاجتها إلى نظير.

والصداقة مشاركة خالصة بين اثنين أو أكثر على مستوى رفيع من النبل والتفاهم والإيثار.

والصداقة ليست "اتفاقًا تجاريًا" بين اثنين..

بل هى "ميثاق" بين قلبين وحياتين وإنسانيّتين رفيعتين.

فزوّد نفسك بفضائل الصداقة، وعَبِّئها بهذا المدد الكبير من الحب والخير، ونمّ فيها نزعة الإيثار حتى تتّسع وتتراحب لإيلاف الناس جميعًا.

كن صديقًا لمن تعرف ولمن لا تعرف.. وأسهم فى حل مشكلات الذين يدفعهم إليك الأمل فيك حتى لو لم تربطك بهم رابطة دانية..

وتألم فى نبل للأسى الإنسانى حيث يكون..!

اجعل من نفسك مرفأ تأوى إليه الزوارق التائهة التى زلزل الإعصار والموج ثباتها، وليكن اسمك كنداء النجدة لا يكاد يسمعه المفزَّعون حتى تسكن ضلوعهم

---

[١] الوصايا العشر، للمؤلف.

الواجفة، وتعود إليهم طمأنينتهم الضائعة" أهـ

* * *

هذا إيجاز للفكرة التى ينبغى أن نكونها عن الصداقة والصحبة.

وإن رسول الله ﷺ ليلخص لنا كل ما للصداقة من تبعات وفضائل حين يقول فى وصيته الجامعة:

"كن خير ابنى آدم"

أى كلما كنت ثانى اثنين فكن خيرهما أو ثالث ثلاثة، أو رابع أربعة، فكن خيرهم.

وليس المقصود بالخيرية والأفضلية هنا التعاظم والتعالى.. بل كن خيرهم بأن تكون أكثرهم ولاء للصحبة، وحفاظا على حقوقها.

كن أكثرهم صفحا عند الغضب.. وأكثرهم بذلا عند الحاجة.. وأسرعهم رجوعا بالود عند القطيعة.. وأكثرهم التماسا للعذر عند الزلة..

كن أصدقهم نصيحة.. وأسبقهم إلى نجدة..

هذا هو المعنى بقول الرسول:

"كن خير ابنى آدم"..

ولكى تزدهر الصداقة وتنمو، يجنبها الرسول الكريم أخطار الوشاية. وإنه عليه الصلاة والسلام ليضرب المثل ويعطى القدوة إذ يعلم أصحابه قائلا:

"لا تبلغونى عن أصحابى شيئا؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم منشرح الصدر"..!!

حياه الله من معلم عظيم..

إنه ينشد للناس أقصى ما يستطاع من الطمأنينة والستر والسلام والعافية.

لقد نظر "عبد الله بن عمر" رضى الله عنهما ـ وهو تلميذ عظيم لرسول الله. نظر يوما إلى الكعبة متمثلا كل ما لها من حرمة وجلال. ثم قال:

"ما أعظمك وما أعظم حرمتك"

"وإن المؤمن لأعظم حرمة عند الله منك".

فإذا أضيف إلى حرمة الإيمان حرمة الصداقة والصحبة، فكم تكون المسئولية عنها كبيرة وخطيرة..؟!

والخلطة الذاتية بين الناس ينجم عنها قليل أو كثير من اختلاف وجهات النظر، ومن سوء التفاهم.

وهنا يوصى الرسول بالبلسم الشافى، وهو الصفح الجميل.

إن نسيان الإساءة وطيها تحت جناح المغفرة والصفح ـ أمر ضرورى لاستبقاء الصداقة وطيدة نقية شامخة..

من أجل ذلك يخبرنا الرسول أن أحبنا إليه، وأقربنا إلى نفسه وقلبه:

".. أحاسنكم أخلاقا..

الموطأون أكنافا..

الذين يألفون، ويؤلفون"

بينما يخبرنا أن أكثر الناس شرا هم:

".. الذين لا يقيلون عثرة

ولا يقبلون معذرة

ولا يغفرون ذنبا"..

فأن تجعل من نفسك "عدادا" لإحصاء زلات صديقك ـ فذلك يعنى أنك لا تصلح للصداقة أبدا.

أما أن تغفر زلاته، وتنساها، وتساعده على نسيانها ـ فذلك هو الموقف الأجدر بالصديق:

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من أتاه أخوه متنصلا ـ أى معتذرا ـ فليقبل ذلك، محقا كان أو مبطلا"..

تأملوا هذه العبارة:

"محقا كان أم مبطلا"

إن مجرد الاعتذار، اعتراف بالخطأ ـ ومن ثم يستوى أن يكون تفسيره لخطئه مصاحبا للحقيقة أو مجافيا لها، ما دام يقدم اعتذارا صادقا عن خطئه وزلته..

* * *

ويصون الرسول الكريم الصداقة من "الأرضة" الخبيثة التى تأكل الصداقة شيئا فشيئا ـ تلك هى النميمة.

ولقد ذهب النمامون بكل مقت الرسول وغضبه..

"إن أبغضكم إلى، المشاءون بالنميمة.. المفرقون بين الأحبة" ..

ويبوئ الرسول الصحبة مكانها الصحيح ويضعها فى مناخها الصحى والسوى، إذ يعلمنا أن الصحبة الخالصة هى التى تكون لقاء فى الخير وعلى الخير. والتى تتخذ سياجها من قول الله سبحانه وتعالى:

"وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان".

وإن الرسول عليه الصلاة والسلام ليبشر العائشين فى هذا الطراز من الصداقة والصحبة بأعظم ثواب. فمن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة:

".. رجلان تحابا فى الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه".

والحب فى الله ـ يعنى صحبة بلا غرض.. ويعنى صحبة بلا شر.. ويعنى صحبة تتعاضد وتتكاتف على حب الخير وفعله وإسدائه.

ولكى تبلغ الصحبة هذا المبلغ، يجب أن تكون نقية من الداخل، وأن تشاد على ركيزة قوية من التناصح والرشد فالصديق يخون الصداقة، ويخون صديقه إذا لم ينهه فى رفق إلى مساوئه، وإذا لم يكن مرآة صافية يرى فيها كل هناته.. وهنا يعلمنا خاتم المرسلين فيقول:

".. وإن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى، فليمطه عنه".

* * *

ويريد الرسول للصداقة وللصحبة أن تتنفس دوما هواء نقيا.. وهواؤها النقى يتمثل أول ما يتمثل فى الثقة المتبادلة.. فماذا يلتهم الثقة مثل هواجس الظنون العمياء..؟؟ من أجل هذا ينادينا بهذه الحكمة المتألقة:

"إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث"

هل الظن حديث؟

أجل. إنه حديث النفس، وهو كما يصفه من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ـ أكذب الحديث ـ

وأكذب الحديث هذا، يشكل خطرا ماحقا على الصداقة.

من أجل ذلك رأينا الرسول الأكرم يدحضه ويرفضه، ثم هو ـ عليه السلام ـ لا يكتفى بهذا، بل يقطع عليه سبيله وطريقه. فأنت حين تسىء الظن بصديقك تتجنبه،

ويتجنبك يكون سوء الظن قد حقق غرضه.

وهنا يعتبر النبى هذا التجنب هجرا وقطيعة، وينهى عنهما نهيا حازما فيقول:

"لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"

وكأنه ـ عليه السلام ـ رخص فى أيام ثلاثة لا غير، ليستطيع الإنسان خلالها أن تهدأ نفسه وتسكن ثائرته، ويتبين صوابه من خطئه، وتعود حرارة الصحبة بعدها عامرة غامرة..

* * *

وحتى المجاملات الرقيقة التى تنعش الصداقة وتورد محياها، يختصها الرسول بالكثير الطيب من وصاياه، وأحاديثه:

فتبادل الهدايا فى غير مشقة، يأمرنا به:

"تهادوا، تحابوا"

و"إياكم والتكلف"..

وإطراء الصداقة والتحدث بنعمة الله بها، يدعونا إليه:

"إذا أحب أحدكم أخاه؛ فليخبره أنه يحبه"

ولقاء صاحبك ببسمة ودود:

"من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق"

بل لنسمع قول الرسول أيضا:

"أحبهما إلى الله، أحسنهما بشرا لصاحبه"

وحتى حين يعطس صاحبك يأمره الرسول ﷺ أن يحمد الله، ويأمرك أن تقول له: يرحمك الله..

* * *

إنه تتبع ذكى باهر لكل احتياجات الصحبة وأخلاقياتها.

وإن الرسول لحريص على أن يتحول المجتمع المسلم كله إلى أسرة واحدة. يوقر صغيرها كبيرها. ويرحم كبيرها صغيرها.. أسرة صديقة تجرى المودة والمحبة فى كل أفرادها مجرى الدم فى الشرايين والأوردة والعروق.

من أجل هذا يستثمر فرصة الجمعة التى كتبها الله ضمن الصلوات المفروضة،

فيحض على شهودها بكل سبيل، راجيا أن يحقق هذا اللقاء الأسبوعى تجديد شباب الصحبة دوما وإرباء صفوفها.

يقول عليه السلام:

"الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة ما"..

فيجعل من حقوق الاجتماع والتجمع هذا اللقاء الذى يتيح للإخاء فرصة دائمة تملأه ريا وتنفحه شبابا..

ومثل ذلك أيضا فى الحض وفى الثمرة - صلاة الجماعة التى كان النبى دائم الوصاة بها والتبشير بالثواب عليها.

إن المجتمع الكبير يتكون من عدة صداقات تقوم بين أفراده وأعضائه.

وهذه الصداقات المبثوثة فى المجتمع هى الخلايا التى تمده بالحياة فإذا كانت خلاياه سليمة، سلم أمره وسلمت عاقبته.

وإن كانت خاوية تحطم الأمل فى مستقبله.. وليس أدل على تقدير الرسول لهذه الخلايا - أعنى هذه الصداقات المفردة التى تقوم بين اثنين أو أكثر منهما.. ليس أدل على تقدير الرسول لها من هذا الصنيع الجليل الذى صنعه غداة هجرته وأصحابه من مكة إلى المدينة..

فعلى الرغم من أن المسلمين جميعا - مهاجريهم وأنصارهم كانت تجمعهم أعظم أواصر الحياة.. وهى آصرة الإسلام والإيمان.. فإن الرسول عليه الصلاة والسلام راح يعقد آصرة خاصة وصداقة خاصة بين كل اثنين من أصحابه الأنصار والمهاجرين.

إن هذا لدرس باهر وعظيم يلقيه خير المعلمين وإمام المرسلين فى قيمة الصحبة وجلال الصداقة.

* * *

والصداقة والصحبة تتسمان فى تعاليم الرسول وأحاديثه حتى تنتظم الخيرين من البشر جميعا.. فأصدقاء الغيب - الذين لا نعرفهم ولم نلتق بهم - لهم من الود ومن الحقوق مثل ما لأصدقاء الشهادة - الذين نعرفهم وتقوم بيننا وبينهم صلات وعرى..

والنهج الذى تعبر به صحبتنا لمن لا نعرف عن نفسها يتراوح بين التوقير والحب. أجل.. فنحن مطالبون بتوقير من يستأهلون التوقير ممن لا تجمعنا وإياهم خلطة دانية، وهذا الخلق من صميم آداب الصحبة؛ لأننا فى حياتنا الفاضلة لا نصحب الناس إلا من

خلال أنفسنا..

وأنفسنا فى صحتها الأخلاقية لا تهب الحب والتوقير لمن تعرف وتـألف فحسـب..

إنما تهبهما لكل من هو أهل لهما وجدير بهما، يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن من إجلال الله تعالى ـ إكرام ذى الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير العالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط".

فهذه الأنماط من الناس يدعونا الرسول لصحبتها بالتوقير والاحترام حتـى إذا لـم تجمعنا بهم صداقة مباشرة. لأنهم يمثلون القيم الفاضلة التى تصون بهاء الحياة..

وصحبتنا لهم عن طريق توقيرهم واحترامهم تعبر فى صدق عن ولائنا للحياة.

ولهذا جعل الرسول إجلالهم من إجلال الله سبحانه.

وفى حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

"ليس منا من لم يرحم صغيرنا"

"ويعرف شرف كبيرنا"

إننا حين نتأمل هاتين الكلمتين (شرف كبيرنا) ندرك كم كان الرسول عظيما وهـو ينشئ العلاقات الاجتماعية فى أحسن تقويم..

فالكبراء بسنهم، والكبراء بأخلاقـهم، والكـبراء بخيراتـهم، والكـبراء بتاريخـهم وبعطائهم للحياة..

كل هؤلاء لهم "شرف" يجب أن يرعى ويصان.

وحين نؤدى لهم حق التوقير نكون قد صحبناهم خير صحبـة حتـى لـو لـم نعرفـهم ويعرفونا.

وفى هذا المعنى الجليل تحدثنا السيدة "عائشة" أن رسول الله ﷺ قال:

ـ "أنزلوا الناس منازلهم"

إن ذلك لا يعنى النزوع إلى طبقة أو امتياز.

إنما يعنى الفهم السـديد والـولاء الرشيد لأقدار النـاس الذيـن تتمثـل فيـهم، وبالتالى فى احترامهم فضائل الحياة واحترامها..

* * *

إننا إذ نحب أهل الخير نكون قد صحبناهم حتى من غير أن يتم بيننا وبينهم لقاء..

وتنال مثوبة هذه الصحبة التى لم تكلفنا شيئا ـ بأن نكون منهم ومعهم حتى لو لم ترتفع بنا مناقبنا إلى مستواهم..

سئل الرسول عليه السلام يوما:

"الرجل يحب القوم، ولما يلحق بهم..

فقال عليه الصلاة والسلام:

"المرء مع من أحب"

ويسأله أعرابى أيضا ويدور بين الرسول وبينه هذا الحوار:

الأعرابى: يا رسول الله. متى الساعة..؟

الرسول: وما أعددت لها..؟

الأعرابى: ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة..

"ولكن أحب الله ورسوله.

هنالك يقول له الرسول:

"أنت مع من أحببت".

إن "الصحبة الروحية" من أزكى أنواع الصحبة وأبقاها وأتقاها..

والصحبة الروحية هى تلك التى تجمع بين قلوبنا وأولئك الأفذاذ المباركين من عباد الله.. هؤلاء الذين نقرأ عنهم. أو نسمع بهم، أو نشم عبيرهم فى الحياة..

انظروا..

هذا "عمر بن الخطاب" رضى الله عنه مع جلال قدره وسبقه يظل يسأل الوفود القادمة من اليمن عن رجل لم يعرفه قط ولم يلقه من قبل أبدا.. لكنه سمع الرسول عليه السلام يتحدث عنه فى حب وتقدير ـ ذلكم هو "أويس بن عامر القرنى".

لقد عاش "عمر" سنين عددا تحمله أشواقه إلى هذا الرجل الصالح..

وكلما التقى بوفد من وفود اليمن سألهم عنه حتى التقى به ذات يوم فكان من أسعد أيام حياته.

قال له عمر حين لقيه: لقد أوصانى رسول الله إن لقيتك أن تستغفر لى..

فاستغفر له "أويس" ودعا له..

ثم سأله أمير المؤمنين وقد علم منه أنه يقصد الكوفة:

- ألا أكتب لك إلى عاملها؟

قال أويس: أكون فى غبراء الناس أحب إلى..!!!

* * *

إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا وما لها من حظوظ الخير والفضيلة.

لقد قال الرسول عن الأنصار رضوان الله عليهم:

"لا يحبهم إلا مؤمن"

"ولا يبغضهم إلا منافق"

فهؤلاء أبرار لم نرهم، وتفصل بيننا وبينهم قرون بعيدة، ومع هذا فحبهم وبغضهم مسبار للنفس الطيبة والنفس الخبيثة.

وهكذا كل الناس الطيبين الأبرار، نصحبهم بحبنا وتوقيرنا ومحاولة التأسى بهم، فنكشف عن جمال معدننا وصدق فطرتنا..

* * *

ولضعاف الناس حقهم فى صحبة كريمة نبيلة، حتى إذا لم يجمعنا بهم لقاء.

وحين علم الله رسوله قائلا:

"فأما اليتيم فلا تقهر"

"وأما السائل فلا تنهر"

كان الإسلام يرفع عاليا لواء الصحبة النبيلة والتواصى الرحيم الجليل لضعفة الناس..

إن حسن الصحبة لأولئك الذين وضعتهم ظروف حياتهم فى أول السلم الاجتماعى لتزن عند الله أقدارا عظيمة..

ولنطالع معا هذه الواقعة:

قدم أبو سفيان يوما بعد إسلامه على مجلس فيه سلمان، وصهيب، وبلال وبعض أصحابهم، فقالوا حين رأوه: ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها..

"فقال أبو بكر رضى الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم..؟

"وأتى النبى ﷺ فأخبره.

"فقال الرسول له: يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم.."

لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك..

"فأسرع أبو بكر إليهم معتذرا يسألهم: يا إخوتاه أأغضبتكم..؟

"قالوا: لا يغفر الله لك يا أخانا.."!!!

إنه أبو بكر الصديق بكل أدبه الجم العظيم وسجاياه الوادعة وشمائله الرحيمة الودودة.

ومع هذا يخشى الرسول أن يكون أغضب بكلماته هذا النفر من فقراء الصحابة الأجلاء.

أى أدب للصحبة فى أى زمان.. فى أى مكان.. يعدل أدب هذا المعلم الكريم عليه صلوات الله وسلامه وعلى آله الطاهرين وأصحابه الأكرمين..؟!

وبعد، فإن الصحبة فى الإسلام غالية.

ولعل من أوثق ما يكشف عن قيمتها فى أحاديث الرسول عليه السلام قوله:

"يقول الله تعالى: ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة"..

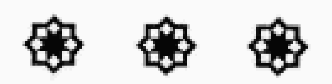
لقد تعودنا أن يكون العزاء لمن يفقد واحدا من أهله وذويه..

أما حين يفقد صديقا، فإن الإسلام لا يزجى إليه العزاء وحسب.. بل يجعل ثواب صبره على فقده الجنة..!!

وحين نتأمل كلمة "صفيه" نرى فيض تقدير الرسول للصداقة وللصديق.. لقد كان المسلمون جميعا يلتمسون من رسول الله الدعاء المستجاب. بيد أننا نجد الرسول الأكرم يقول لصاحب له مسافر وهو يودعه:

"لا تنسنى من دعائك يا أخى".

الحق أن هذه الكلمات من رسول الله عليه صلاة الله وسلامه لتمثل على صدر الصحبة وسام..!!



[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفصل العاشر

عن الثقافة والعلم..

ما نسميه اليوم بالثقافة، كان يُسمى في الزمن الأسبق، الفقه.. ليس ذلك الفقه بمعناه الاصطلاحي. أي العلم الذي يتحدث عن أصول العبادات والمعاملات.. بل الفقه بمعناه الموسوعي، أي البصيرة التي تكوّنها المعرفة الواسعة والتجربة الرشيدة.

وفي أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام نلتقي كثيراً بكلمتي "فقه وفقيه" تحملان هذا المعنى الذي تحمله اليوم كلمتا "ثقافة ومثقف".

فإذا كانت الثقافة اليوم تعني ما يعكسه العلم على صاحبه من ثراء العقل والروح.. بحيث يمتلك هذا المتعلم المثقف نور الشخصية، ونفاذ النظرة.. وبحيث يُؤتى القدرة على التفاهم مع عقل الحياة وجوهر الأشياء.. وبحيث تكون له دائمًا وجهة نظر نابعة من اقتناعه تجاه الحياة وقضاياها..

وبكلمة واحدة: إذا كانت الثقافة تعني "البصيرة العارفة" التي تهدي العقل. وتقود السلوك، وتُضيء الشخصية، فإن "الفقه" كما نراه في الكثير من أحاديث الرسول هو ذات الشيء الذي نسميه اليوم "ثقافة".

وحسبنا الآن أن نطالع هذا الحديث الكريم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"رُبَّ حامل فقه، لا فِقْهَ له

ورُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفْقَهُ منه".

(رُبَّ حامل فقهٍ لا فقه له..) أي رُبَّ حامل علم مختزن معرفة لا فقه له.. يعني لا يملك ذلك الشيء الثمين الذي يعكسه العلم وتُضفيه المعرفة على العقل والروح..

(ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقهُ منه).. أي رُب حامل علم وموسوعة معارف.. لا يُجاوز هذه التُّخوم؛ بينما هناك من يأخذ من علمه ويتتلمذ عليه، ثم يتفوَّق

عليه بالفقه المتمثل فى حسن الفهم وحسن التقدير.. وفى تألق الفكر وعبقرية الشعور..!!

وبعبارة أخرى فإن معنى الحديث تمامًا: كم من عالم غير مثقف..

وذلك وفق المفهوم الذى أسلفناه للثقافة، لا ذلك المفهوم الرخيص الذى تلوكه الألسنة فى غير تقدير للثقافة ولا توقير.

والفقه بمعنى الثقافة، واضح فى حديث الرسول الذى قدمناه، وُضوحه فى أحاديث أخرى ـ كان الرسول يعلمنا بها أنه ليس المهم أن تكون عالمًا ـ مجرد عالم ـ بل أن يجعل العلم منك إنسانًا فقيهًا.. مثقفًا.. لا تختزن المعرفة فحسب.. بل تحولها إلى مُناخ عقلى وروحى تحيا فيه ويحيا معك فيه خَلْق كثيرون.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إنما العلم بالتعلم"

"وإنما الفقه بالتفقه"

فإذا كان العلم يتطلب معاناة التحصيل؛ فإن الثقافة تتطلب معاناة النظر والفحص والتأمل الوثيق والتمثُّل العميق..

"إنما الفقه بالتفقُّه"

أى أن جوهر العلم فى تقدير الرسول يتمثل فى الفقه.. الفقه بمعناه الذى نتحدث عنه.

بيد أن العلم لا ينفصل عن الفقه، فهو مادته التى منها يجىء الفقه، وتتشكل البصيرة والثقافة..

والرسول وهو يتحدث عن العلم لا يعنى أبدًا مجرد التحصيل والاختزان.. بل يعنى تمامًا ما يعنيه بالفقه والتفقه.

وإذا كان يرفع من شأن الفقه الذى يُرادف مفهومه مفهوم الثقافة، فلكى ينبهنا إلى أن العلم كله يجب أن يكون فقهًا.. يجب أن يعكس جلاله وبهاءه ونوره على تفكيرنا وعلى ضمائرنا وعلى مسلكنا.

ومن ثَمَّ، فإن الأحاديث التى سنصاحبها الآن وهى تتحدث عن العلم وقيمته وفضله ومثوباته، إنما تعنى ذلك العلم البصير الذى يهب صاحبه نوراً، ويجعله نوراً..

إن الرسول عليه السلام لا يعرف العلم منفصلاً عن العمل، ولا يعرفه إلا موصولاً بغايته وأهدافه..

وغاية العلم خلق الإنسان المتكامل تفكيرًا، وشعورًا، وضميرًا، وإرادة..

* * *

والآن، ونحن نستقبل أحاديث الرسول الكريم عن العلم، أو الفقه، أو الثقافة.. فقد أوضحنا أن الثلاثة فى تقدير الرسول شىء واحد.

الان، ونحن نستقبل أحاديثه الكريمة عن هذا الموضوع، فلنبدأ بهذا الحديث الذى لا أعرف فى تقدير العلم وإجلاله وتكريمه ما يُناظره أو يُضاهيه.

والحديث يرويه "أبو مسعود البدرى" رضى الله عنه فيقول:

"كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة - أى يُسوّى الصفوف بيده -

يقول: اسْتووا ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم ليلنى منكم أولو الأحلام والنُّهى..

ثم الذين يَلُونَهُم.. ثم الذين يلُونَهم"

إن الصلاة فى الإسلام هى ذروته وعموده.. وهى قلب العبادة والنُّسُك.

والرسول - هو واقف فى الصلاة يؤمُّ المسلمين فى صَلَواتهم، يجعل الأولوية فى الذين يلُونه رأسًا فى صفوف الصلاة لا للأكثرين ورَعًا ونُسُكًا وعبادة.. بل للأكثرين علمًا وفقهًا.

"لِيَلِنى منكم أولو الأحلام والنُّهَى"

ليَلنى منكم ذوو العقول الراجحة المتَميِّزة بالعلم وبالحكمة وبالمعرفة.

وإذا كان هذا هو المكان الذى يُبَوِّئُه الرسول أهل العلم والنُّهى فى الصلاة، فهل يكون مكانهم أدنى من ذلك فيما وراءها من صفوف المجتمع ودنيا الناس..؟!

إن أمر الرسول عليه السلام أن يليه فى الصلاة العلماء والحكماء لا يعنى تكريم مقامهم وإعلاء شأنهم فحسب، بل يعنى مع هذا.. وقبل هذا.. تِبْيان مكانهم الحق ووضعهم الصحيح فى الجماعة والأمة.

فمكانهم دائمًا أمام الناس، يهدونهم للحق، ويرتادون لهم الطريق، ويُشِعُّون على الجموع بنُور ما معهم من حكمة وعلم وتجربة..

والرسول إذ يجعل مكانهم فى الصلاة أقرب المصلين إليه وأولاهم به إنما يؤكد فى نفس الوقت ما يعنيه بالعلم وبالحكمة وما يعنيه بالعلماء والحكماء.

وإنه ليزيد المعنى وضوحًا حين يقول:

"أفضل العبادة الفقه"

وقوله: "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهّل الله به طريقًا إلى الجنة".

فالعلم النافع المضىء الذى يهدى القلوب إلى الله، ويهدى العقول إلى الصواب، ويحقق للناس السلام والأمن وعافية الحياة. هو العلم. وأصحابه هم العلماء..

من أجل هذا يجعل الرسول طلب العلم فرضًا، فيقول عليه الصلاة والسلام:

"طلب العلم فريضة على كل مسلم"

ويجعل المعاناة فى تحصيله جهادًا ينتهى ساعة ينتهى بالاستشهاد.

يقول عليه السلام:

"من خرج فى طلب العلم، فهو فى سبيل الله حتى يرجع"

ويقول أيضًا:

"من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة".

"إذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات وهو شهيد".

ويخبرنا الرسول أن كل أمجاد الدنيا، كاذبة وزائلة، إلا مجد الاستقامة والعلم.. فالذين يقطعون أعمارهم وراء المال، أو الشهرة، أو الجاه، ثم لا يعمُرُ قلوبهم هدى، ولا يَعْمرُ عقولهم علم - إنما هم التعساء الضائعون.

يقول عليه السلام:

"الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها - إلا ذكْرَ الله، وما والاه.. وعالمًا، ومُتعلمًا".

من أجل ذلك فإن التنافس الذكى السَّديد ليس هو الذى يدور حول أىٍّ من مغريات الدنيا ومُضِلأتها.. بل هو ما كان موضوعه الخير والعلم.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

"لا حسد إلا فى اثنتين:

* رجل آتاه الله مالاً فَسلَّطه على هَلَكَته فى الحق

* ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها"

فالمال الذى ينفقه صاحبه فى كل وجوه البر والعون والخير..
والحكمة التى تهدى الناس إلى الصواب والحق..
هذان وحدهما، هما مَهْوى كل تنافُس واع وفاضل ورشيد..

* * *

إن عظمة العلم ماثلة فى أنه نور الحياة ونور الحياء.
فحتَّى العبادة والدين، يظلّ العلم نورهما..
من أجل هذا، يقول عليه الصلاة والسلام:
"فقيهٌ واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد"
ذلك أن الشيطان يجد طريقه سهلاً إلى كل عبادة لا يُضيئها نور العلم والفقه، بينما تُفلسُ كل محاولاته لتسَوُّر عبادة يَنْفَحُهَا العلم ويهديها ويُضيئُها.
ولقد ذكر للرسول رجلان ـ عابد، وعالم، فقال عليه السلام:
"فضل العالم على العابد، كفضلى على أدْناكُم"
أىُّ تكريم للعلم وللعلماء يفوق أو حتى يُقارب هذا التكريم.
لقد تعلم من ربه العلى فضل العلم حين كان أول أمر يتلقاه من ربه:
﴿ اقرأ بِاسْمِ رَبِكَ الذِى خَلَق ﴾
وحين نزل عليه الوحى بقول الله سبحانه:
﴿ إنمَا يَخشَى الله من عباده العُلمَاءُ ﴾
وحين تنزلت عليه عشرات الآيات القرآنية التى تَحُضُّ على التفكير والتدبُّر والبحث وتُعلن فى جلال عظيم أن الله سبحانه:
﴿ يُؤتى الحكمة من يشاء ومَن يُؤْتَ الحِكمَةَ فقَد أُوتىَ خَيرًا كَثِيرًا. ومَا يَذَّكَّرُ إلا أولو الألْبَاب ﴾
وهكذا تحدث عليه الصلاة والسلام عن العلماء فقال:
"إن العلماء وَرَثة الأنبياء..
"إن الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، ولكن وَرَّثوا العلم، فمن أخذه

أخذ بحظ وافر"

من كان يعرف فى تكريم العلم والعلماء أروع من هذا فليأتنا به..!!

ولنقرأ هذا أيضًا:

"إن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع".!!

ولكن أىُّ علم يريده الرسول..؟

إنه ـ أولاً ـ العلم الذى يُفسِّر للناس أمور دينهم ويدفع حياتهم فى طريق الفضيلة والخير، ويُوَثِّق أسباب اتصالهم بالله، بارئهم وربهم..

يقول عليه السلام:

"تعلموا الفرائض والقرآن، وعلِّموا الناس؛ فإنى مقبوض"

ويقول:

"نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها، وبلَّغها من لم يسمعها.

فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله، يأتى على رأس كل أنواع العلم وصنوفه. وذلك بما ينتظمه من تبيان لأحكام الشريعة وأسرارها. وبما ينهض به من أمر بمعروف ونهى عن المنكر..

وبعد هذا يجىء العلم بكل أشكاله، ما دام ينفع الناس ويُنمِّى عطايا الحياة.

فالعلم الذى يقود خُطى الحضارة فى رُشد، ويُسْهم فى دفع التقدم الإنسانى، فى كل ضروراته وفى مجالاته التى تعود على الحياة الإنسانية بالنفع والخير ـ علم ينال حظه الوافر من أحاديث الرسول وتعاليمه..

يقول عليه السلام:

"الحكمة ضالَّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها".

فالحكمة حيث تكون ومن أى مصدر تجىء ضالَّة المؤمنين ـ عليهم أن يبحثوا عنها ويحرصوا عليها.. بل هم أولى الناس بكل علم يُطوِّر مقدرة الحياة.

ويقول عليه السلام:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث:

* صَدقة جارية..

* أو علم يُنتفع به..

* أو ولدٍ صالح يدعو له.."

فقول النبى عليه السلام: [علم ينتفع به] ينتظم علوم الحيـاة التى تنفع النـاس، وتُيسر لهم وعليهم وسائل العيش؛ والتى تزيد ثراءهم العقلى والروحى.

لقد وعَى الرسول قول الله سبحانه وتعالى:

"وفوق كل ذى علم عليم"

"وما أوتيتُم من العلم إلا قليلاً"

فما هذا العلم الذى لامُنتهى لأبعاده ولا حصر لعلمائه..؟

إنه علم الدنيا والآخرة.. علم النُسُك وعلم الحياة.. علم الكون بكل ما يستطيع أن يصل إليه من كشوف وأسرار:

العلم الذى تتم به عمارة الأرض وإزهار الحياة، أينما كان وحيثما يكون.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"اطلبوا العلم ولو فى الصين"

فلا حدود من تُخوم الأرض، ولا حدود من تُخوم العقيـدة تـردُّ المسـلم عـن أخـذ العلم النافع والحكمة الصادقة.

فالجهل هو الخطيئة الفادحة التى يُعيذُ الرسول منها أمته.

وكل عِزٍّ ـ كما يقول الأحنف ـ لا يُوجد بعلم فإلى ذُل مصيره..

ولقد وعَى علماء الإسلام رُوح التوجيه النبوىّ الكريـم فتفوَّقـوا فـى كـل صنـوف العلوم، وتألقُوا، وعلّموا الدنيا وصنعوا الحضارات.

* * *

والرسول إذ يأمرنا أن نطلب العلم ولو فى الصين، يبشرنا بالجزاء الأوفى عن كـل مشقة نلاقيها وكل كبدٍ نُعانيه فى طلب العلم.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"من سلك طريقًا يلتمس فيها علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة"

ولأن العلم بهذه المَثَابَة والمكانة، فقد راح الرسول الكريم يُذكّر بأخلاق العلمـاء وأخلاق طُلاب العلم.

وراح يهدى إليها ويدلُّ عليها.

يقول عليه السلام:

"تَعلّموا العلم، وتَعلّموا للعلمِ السَّكينة والوقار
وتواضعوا لمن تتعلمون منه"

إيجاز يتفجَّر حكمة وهُدى.. فأن يتعلم الناس العلم - مجرد العلم - لا يأتون أمرًا مَذكورًا.

أما أن يتعلموا مع العلم أو قبله تلك الصفات الخُلقية العالية التى تجعل العلم نورًا وقدوة ورحمة، فذلك هو العلم حقًا.

وهنا يقول الرسول مشيرًا إلى بعض تلك الصفات:

".. وتعلّموا للعلم السكينة والوقار"

ويُجلُّ الرسول العلم عن أن يتخذه أصحابه وسيلة وغرضًا للزهو الكاذب.. فالعالم الحق هو الذى يزداد تواضعًا وتفانيًا كلما ازداد علمًا.

يقول عليه الصلاة والسلام:

"لا تَعلموا العلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السفهاء، ولا - لتَحتَازُوا - به المجالس..

فمن فعل ذلك.. فالنار .. النار.."

فالعلم كما يعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أجلَ وأعلى من أن يُتخذ قُوتًا لغرور الأنفس الصغيرة وزَهوها الرخيص.

إن الرسول يريد العلم خالصًا لوجه الله، مُضَمَخًا بفضائل النفس، بعيدًا عن مزالق الهوى..

يقول عليه السلام:

"من تَعلَّم صَرف الكلام - أى فصيحه - ليَسْبى به قلوب الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفا"

فالعلم - لا سيما حين يكون دعوة إلى الله، يجب أن يَبْرأ من رغبة النفس فى الوصول به إلى أىٍّ من أغراض الدنيا الباطلة، ويجب أن يبرأ من خطيئة التعالى به والرياء.

* * *

ويُجلُّ الرسول العلم عن أن يكون زُلفى لذى سلطان، أو أن يوضع فى خدمة سلطان ظالم، يستعين به على تبرير ظلمه ودَعْم سلطانه..

بل حتى إذا ظن العلماء أنهم قادرون على تَحامى فتنة السلطان حين يقتربون من أصحابه، يبادر الرسول فَيُدحضُ هذا الوهم ويحذر من سوء العاقبة:

يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن ناسًا من أمتى، سيتفقّهون فى الدين، يقرأون القرآن - يقولون نأتى الأمراء فنصيب من دنياهم، و - نحتفظ - بديننا..

"ولا يكون ذلك.. فكما لا يُجْتَنى من القَتاد إلاّ الشوك، كذلك لا يُجْتَنَى من قُربهم إلاّ الخطايا".

* * *

ويريد الرسول الكريم للعلم أن ينشر عن سَعَة، وألا يبخل به أهله وذووه..

"ما من رجل يحفظ علمًا فيكتمه إلا أتى يوم القيامة مُلْجُومًا بلجام من نار".

إن الجزاء من جنس العمل.. وكما ألجم هذا نفسه حين بخل بالمعرفة وبالعلم على الناس - يُلْجَم نفس اللجام يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والعلم ينبغى أن يكون دعوة إلى الخير وتأييدًا له وتوكيدًا أما تسخيره للشر ومشايعته الباطل فإثم يُحذر منه الرسول:

"من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا يَنقُص ذلك من أجورهم شيئًا..

"ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا".

فمسئولية العلم والعلماء ذات خطر عظيم.. وكل علم يهتف بالخير ويَدْعَم الفضيلة والسلام والحق، ينتشر نوره وتعظم عند الله مَثوبته..

وكل علم يُسَخَّر لخدمة الباطل، فإن عقابه يكون وبيلاً.

من أجل هذا يُرسل الرسول فينا هذا النداء الجليل:

"تَناصَحوا فى العلم؛ فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانته فى ماله..

"وإن الله مُسَائِلُكُم".

ويقول عليه السلام:

"لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع:

* عن عمره فِيم أفْناه..

* وعن شبابه، فيمَ أبلاَه..

* وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيم أنفقه..

* وعن علمه، ماذا عَمِل فيه"

فالعلم - لا علم الدين وحده، بل وعلوم الدنيا أيضًا - لا مكان له، ولها. ولا مجال سوى خدمة الحق وإسداء العون للبشرية. فإذا عمل بعيدًا عن هذا المجال فقد يتحول إلى لعنة على صاحبه وعلى الناس، من أجل هذا، كان الرسول يتعوَّذ كثيراً ويقول:

"اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع.."

* * *

ودَوْرُ العلم فى القدوة الصالحة موضع اهتمام الرسول وحرصه.

* ولكى يبلغ العلم مبلغ القدوة النافعة، ثم لكى تكون لقدوته قوة التأثير والإقناع يجب أن يكون مُيسَّرًا سمحًا..

يقول عليه السلام:

"حدِّثوا الناس بما يعرفون؛ أتُحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله"؟!

فغموض العلم وتعاليمه، عملٌ غير صالح يرى فيه الرسول افْتياتًا - ليس على حق الناس وحدهم - بل وعلى حق العلم ذاته، وحق الغايات الجليلة التى يعمل العلم فى سبيلها..

* كذلك يجب أن يكون العلم فى خدمة الحق والحقيقة وحدهما..

وكل محاولة لِزَجِّ العلم فى متاهات الهوى والباطل والنفاق وَبَالٌ على العلم وعلى الناس.

من أجل هذا يقول الرسول الكريم:

"إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى، كلَّ منافق عليم اللسان"..

فالذين يتبذَّخون بالعلم ويتوسلون به لإحراز الوجاهة والجاه والنفوذ، مُضَحِّين بكرامته فى سبيل أطماعهم الرخيصة ونفاقهم اللاَّهِث - هم خطر ماحق على الأمة التى يُعايشونها.

* والعلم الصحيح يبحث عن الصواب دومًا .. ومن ثَمَّ فالجدَل الذى يُمثل معارك ذكاء، باطل ينهى عنه الرسول ويُحذر منه.

إن المناقشة التى تبحث عن الصواب، وإن الحوار الذى يُيَمِّمُ وجهه شَطْرَ الحق - هما اللائقان بالعلم وبالعلماء.. أما الجدال لمجرد الرغبة فى الغَلَبة، والزَّهْو بالذكاء، فباطل وضلال. وهنا يقول الرسول عليه السلام:

"ذَرُوا المِراء لقلة خيره..

"ذروا المراء؛ فإن المؤمن لا يُمارى..

"ذروا المراء؛ فإن المُمَارى قد تَمّتْ خسارته"

ويقول صلى الله عليه وسلم:

"ما ضَلَّ قوم بعد هُدَى كانوا عليه إلاَ أوتوا الجدَل".

فكل جَدل لا يبتغى أصحابه به رؤية الصواب والحق، ليس سوى هُراء وضلال.

ويُقيم الرسول ميزانًا لقضايا الفكر والعلم حين يقول:

"إنما الأمور ثلاثة:

* أمر تبيَّن لك رُشده، فاتَّبعه..

* وأمر تبيَّن لك غَيُّه؛ فاجتنبه..

* وأمر اختُلف فيه؛ فَرُدَّه إلى عالم."

وإذ يأمرنا الرسول أن نردَّ ما نختلف فيه إلى عالم، فإنه لا يعنى أن نكون مجرد مقلدين وإمَّعات..! إنما يعنى أن نعرض عقولنا وأفكارنا على عقول الآخرين وأفكارهم الذين هم أكثر منا فى موضوع الخلاف تخصصًا وأوسع علمًا.

أما أن يتنازل الإنسان عن عقله وتفكيره، فأمر لا يعنيه الحديث..

يقول عليه الصلاة والسلام:

"لا يكونَن أحدكم إمَّعَة، يقول إذا أحسن الناس أحْسَنْت.. وإذا أساءوا أسأْت"..

* * *

لقد درَّب الرسول الكريم عقول أصحابه وعقـول المسلمين على التأمل والنظر أبلغ تدريب.

ولقد كانت حفاوته وحفاوة دينه بالعلم وبالعلماء تفوق كل نظير.

وإن هذا الوصف الباهر الذى يصف العلم به واحد من أصحـاب الرسول، ليدلُّنـا على عمق الولاء الذى غرسه النبى فى أفئدة أصحابه للعلم وللعلماء.

يقول صاحبُ رسول الله "معاذ بن جبل" رضى الله عنه:

"تعلّموا العلم؛ فإن تعلُّمـه لله خشية.. وطلبه عبادة.. ومذاكرته تسبيح.. والبحث عنه جهاد.. وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة.. وبذله لأهله قُربة..

"إنه معالم الحلال والحرام.. ومنارُ سبُل أهل الجنة..

"وهو الأنيس فى الوحشة.. والصاحب فى الغُربة.. والمحدِّث فـى الخلوة.. والدليل على السرَّاء والضـرَّاء.. والسـلاح علـى الأعداء.. والزَّيـن عند الأخلاء.."

"ويرفع الله به أقوامًا فيجعلهم فى الخير قادة تُقْتَصُ آثارهم، ويُقتدى بفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم."

"ترغب الملائكة فى خَلّتهم، وبأجنحتها تمسهم، ويستغفر لهم كل رَطب ويابس."

"وإن العلم حياة القلوب من الجهل.. ومصابيح الأبصار من الظُّلم.. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العُلَى فى الدنيا والآخرة."

"والتفكُّر فى العلم يَعْدِل الصيام.. ومُدارستُه تعدل القيام.."

"به تُوصل الأرحام.. ويُعرف الحلال من الحرام.."

"وهو إمام العمل، والعمل تابعه.."

"يُلْهَمُه السعداء.. ويُحرَمه الأشقياء.."

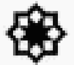
* * *

* هكذا بلغ العلم أرفع المنازل فى أفئدة أصحاب الرسول بوحى كلماته وسلوكه ووصاياه..

وهكذا بقى العلم فى كل عصور التاريخ الإسلامى يقود خُطى الموكب العظيم

الذى ظل يحمل راية التوحيد والإيمان والفضيلة والخير قرونا تلو قرون.

* وما نحسب العلم بلغ الغاية فـى رشده وهديه ونفعه للناس وإحيائه للروح وللعقل وللضمير - مثل ما بلغ من ذلك كله فى ظل الأمة المسلمة.. خير أمة أخرجت للناس..!!



مراجع الأحاديث النبوية

صحيح البخارى .... للإمام البخارى

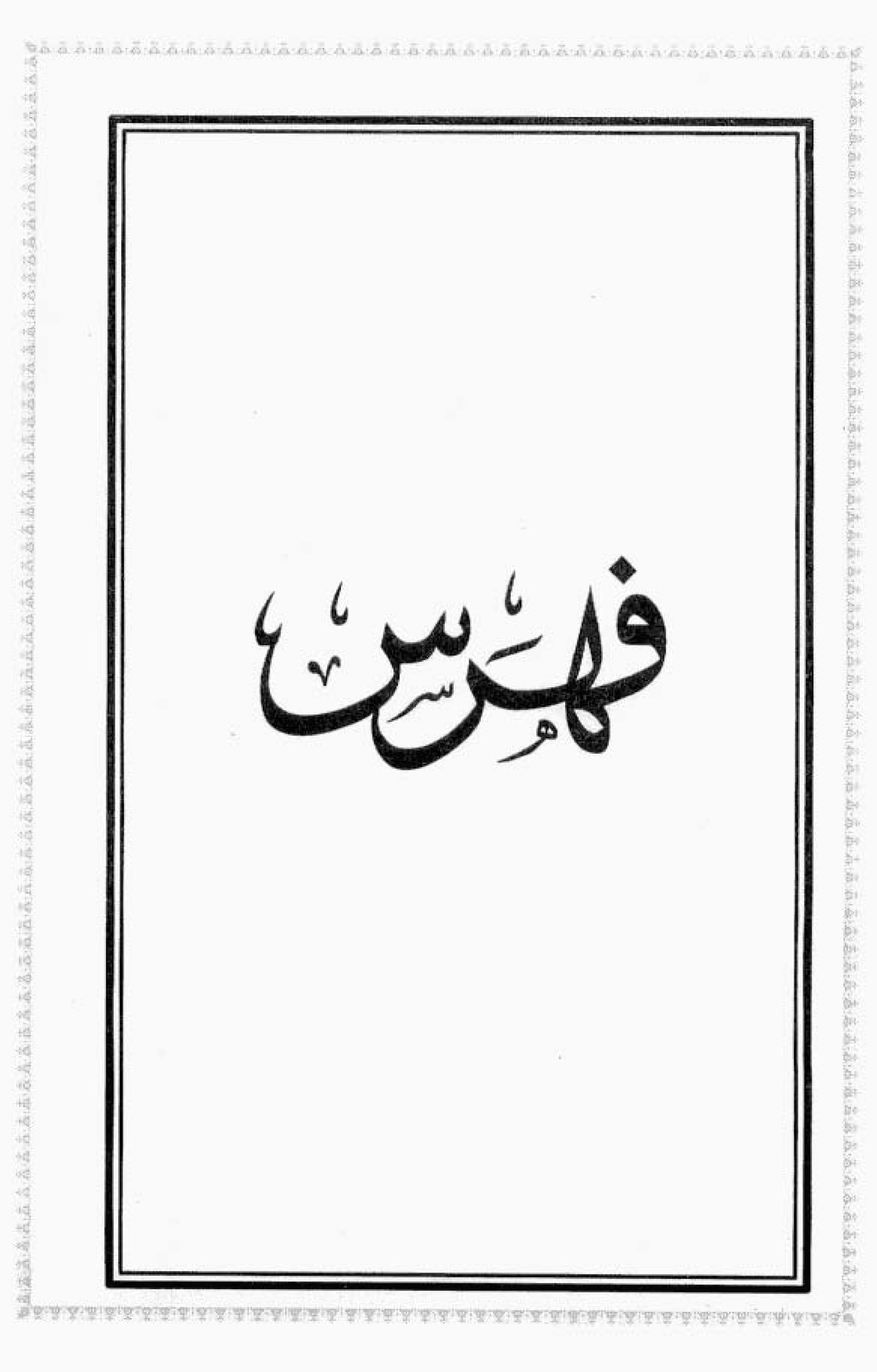
صحيح مسلم .... للإمام مسلم

رياض الصالحين .... للإمام النووى

تيسير الوصول .... للعلامة ابن الدَّيْبَع الشيبانى

الترغيب والترهيب .... للحافظ المنذرى

التاج الجامع للأصول .... للشيخ منصور على ناصف


فهرس



الفهرس